

# الشعر العربي

بين الجمود والنطور

تأليف  
محمد عبد العزيز الكفراوي



الطباعة والنشر والتوزيع





# الشجر العجيب

بين الجمود والتطور

تأليف

محمد عبدالغني البقرلاوي



مخزن  
للطباعة والنشر والتوزيع



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحاجة إلى هذا البحث

قد كان هناك إجماع أو شبه إجماع بين مؤرخي الأدب ونقاده على أن الشعر العربي ظل في صدر الإسلام والعهد الأموي صورة من الجاهلي حتى إذا جاء العباسي انحرف عن أصوله الجاهلية قليلا عند بشار وأبي نواس ، ثم اشتد به الانحراف في شعر مسلم بن الوليد ، وبلغ الذروة على يد أبي تمام . ولكنهم لم يفصلوا القول في ذلك مما أتاح لبعض نقاد الأدب ومؤرخيه<sup>(١)</sup> أن يهاجم ذلك الإجماع ، ويتحداه بذكر أمثلة كثيرة ، حاول بها أن يستدل على تطور الشعر العربي أثناء العصر الأموي .

ومع أننا نؤمن بكثير مما قاله القدامى ، وقليل مما جاء به الناقد الفاضل ، فإننا لن نقدم بحثنا في صورة الهجوم حتى لا يجرّ إلى مثله فيلزم الدور والتسلسل كما يقول علماء الكلام . وبعد فله فضل إثارة هذا الموضوع وتوجيه الأنظار إليه ، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون هناك بعض المآخذ على بحثه . والرأى عندنا أن الشعر العربي أصابه تغيرٌ حقا في العصر الأموي وصدر الإسلام ، بل وأصابه عدة تغيرات أثناء العصر الجاهلي ، لأنه كائن حتى يخضع كغيره من الكائنات لعوامل النشوء والارتقاء . وكل ما هنالك أن ذلك التغير يسير جداً وسطحي لا يمس العناصر الأولية ، والسمات الأصلية التي أئسم بها الشعر الجاهلي . وهذا هو السبب في إغفال جمهور النقاد له واعتباره مع الجاهلي كلا لا يتجزأ .

ولكى ننظّم الجدل حول هذا الموضوع اتخذنا نقطة ارتكاز نبدأ بها ونودور حولها . ونعنى بها العناصر الأصلية للشعر الجاهلي . وهي تلك التي كان يقصدها القدامى حينما يتحدثون عن عمود الشعر العربي . وقد قسمنا بحثنا في ضوءها إلى الخطوات التالية : -

الباب الأول : - وهم بتحديد تلك العناصر ، وتعرّف الظروف الاجتماعية التي كوتها . والآثار التي ترتبت عليها في الشعر الجاهلي ، وقد تلمّسناها فاتبيننا إلى أنها الطبع ، والصدق ، والصدق ، والميل إلى التصوير مع الدقة فيه ، والموسيقية ، وأخيراً بناء القصيدة التقليدي وتقسيمها إلى مقدمة وغرض :

(١) دكتور شوقي ضيف في كتابه « التطور والتجديد في الشعر الأموي » .

الباب الثاني : - وقد قسمناه إلى فصول .

الأول : في بيان الأسباب التي حالت دون تأثر الشعر العربي بالدين الجديد في صدر الإسلام ، وتلك التي وجهته شطر الجاهلية في العهد الأموي .  
الثاني : - في ذكر نموذج من الشعر الأموي يؤكد جمود ذلك الشعر عند الحدود التي رسمها شعراء الجاهلية .

الثالث : في الرد على القائلين بتطور الشعر العربي في العصر الأموي . وذلك بالتعرض لما أشاروا إليه من فنون ونماذج يبدو عليها سمات التطور وإقامة الدليل على أنها ليست إلا امتداداً طبيعياً للشعر الجاهلي .

الباب الثالث : - في العصر العباسي ويتكون من أربعة فصول .

الأول : في بيان مدى ما أصاب بناء القصيدة العربية من تطور .  
الثاني : في الأغراض وتطورها تبعاً لتطور الحالة الاجتماعية في ذلك العصر .  
الثالث : في ذكر ما أصاب عناصر الشعر من تطور . وفيه موازنة بين العباسي والأموي .

الرابع : في استرداد الشعر العربي لحرته على يد أبي الطيب المتنبي . وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه المباحث نلفت النظر إلى أن جميع ما ورد إلينا من الشعر الجاهلي الذي سيكون طرفاً فيما سنعقده من موازونات ، وإنما هو من نتاج القرن السابق لظهور الإسلام ، وقد يعجب القارئ لغزارة ذلك النتاج وروعته حين يقاس بقصر الفترة التي قيل فيها . ويزيد من عجبه سكوت المؤرخين عما كان قبل ذلك من شعر وشعراء ، وربما سأل نفسه عن السر في كل هذا .

والذي ينبغي أن نذكره إجابة عن تلك الأسئلة ، أن الشعر العربي مرَّ بأطوار طويلة من التثقيف والتهديب قبل أن يصل إلينا مكتملاً ، وما أمرؤ القس ومعاصروه إلا الدرورة العليا لجبل ضخيم من الثلج يسبح معظمه هادئاً مثنداً في أعماق المحيط . ولم يُتحَ لذلك الجبل أن يعرف لسبب يسير وهامّ في الوقت نفسه ، وهو أن الجزيرة العربية وثبت وثبة قوية أثناء القرن الخامس الميلادي<sup>(٢)</sup> ، تردد صداها في حياتهم الاجتماعية والسياسية والأدبية ، بحيث صار البون شاسعاً بين ما ضيهم وحاضرهم في

---

(٢) أهم أسباب تلك الطفرة ما كان من حروب بين عرب الشمال والجنوب انتصر فيها الشماليون وتخلصوا من سيطرة الجنوبيين ، وقد خاض كليب بن ربيعة سيد تغلب ومن ورائه عرب الشمال أهم تلك المعارك وأبعدها أثراً في حياة الجزيرة العربية .

هذه الأمور جميعاً . ولما كان العرب يعتمدون في حفظ آثارهم الأدبية وحوادثهم السياسية على الذاكرة فقط فقد شغلوا بما كان لهم أثناء تلك الطفرة من مواقف ، وما سجل فيها من أشعار عما كان لهم قبل ذلك من هذا أو ذاك . وهكذا ألهمى بنى تغلب عن ماضيها أشعار مهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم . كما شغلت بكر بشعر طرفة بن العبد والحارث بن حلزة . وقريباً من ذلك فعلت كل قبيلة بشعر شعرائها . وضربوا عما كان قبل ذلك من أشعار لا تتسع لها الذاكرة<sup>(٣)</sup> .

---

(٣) قال بعض الشعراء يتحكم بنى تغلب :

ألمى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم





## الباب الأول العناصر الأصلية للشعر الجاهلي

**الطبع :** كان الشعراء الجاهليون يجرون من طبائعهم فيسجلون كل ما تمليه عليهم شياطينهم ، أو تجود به قرائحهم ، دون مراجعة طويلة ، يجعلون الفكرة رائدهم وإصابتها هدفهم صارفين النظر عن الزخارف اللفظية والمعاني الغريبة ، وما سوى ذلك من أمور شُغف بها طائفة من شعراء العصر العباسي ، فأفسدت الطبع عندهم وأشاعت التكلف في أشعارهم .

وليس بعجيب أن ينحو الجاهليون هذا المنحى في أشعارهم . فقد كانوا بدوًا يعيشون عيشة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد ، وقد فطرتهم الصحراء على الحرية والصراحة في أحاديثهم العادية التي يندفعون فيها اندفاع الرياح الهوجاء في عرض الصحراء . . وطبعي أن يسرى عدوى ذلك إلى آدابهم وأشعارهم .

وكأنما رأى الشاعر العربي أنه مرهق بأغلال وتبعات مختلفة من إقامة الوزن وتسديد القافية والتماس الروي وإصابة المعنى . فأحب ألا يشغل نفسه عن ذلك كله بزخرفة اللفظ وتقليب العبارة . أما العودة إلى الشعور بعد الفراغ منه ، وإعادة النظر فيه بقصد تنقيحه وتنخّله ، فأمر وراء طبائعهم القلقة ، وأفكارهم التي لا تعرف الاستقرار إلا بقدر ما تعرفه رحالهم ، التي لا تفتأ تضطرب في عرض الصحراء من مكان لآخر . ولم يهتدوا إلى هذا النحو من تنقيح الشعر وتهذيبه إلا في أواخر العصر الجاهلي على عهد زهير بن أبي سلمى . وقبل أن نعرض لزهير نورد لك نموذجاً من المطبوع لعبيد بن الأبرص قالها لحجر بن عمر والكندي حين أقسم ألا تساكته أسد بأرض وكان ملكا عليهم وعلى غطفان<sup>(١)</sup> فطردهم من بلادهم بعد أن قتل كثيراً منهم ضرباً بالعصا حتى سموا عبيد العصا وفيها يقول :

(١) عصر ما قبل الإسلام للأستاذ مبروك نافع ص ١١٦ .

يا عين فابكي ما بنى أسد فهم أهل الندامة<sup>(٢)</sup>  
أهل القباب الحمر والت م عم المؤبل والمدامة<sup>(٣)</sup>  
وذوى الجياد الجرد والأ م سل المثقفة المقامة<sup>(٤)</sup>  
جللاً أبيت اللعن ح م لا إن فيما قلت آمة<sup>(٥)</sup>  
فى كل واد بين يث م رب فالقصور إلى اليمامة<sup>(٦)</sup>  
تطريب عان أودعا م . محرق أو صوت هامة  
ومنعهم نجدا فقد حلوا على وجل تهامة  
إما تركت تركت عف م وا أو قتلت فلا ملامة  
أنت المليك عليهم . . . وهم العبيد إلى القيامة  
ذلوا لسوطك مثلما . . . ذل الأشقير ذو الخزامة<sup>(٧)</sup>

ونعود إلى زهير فنذكر أنه قد اجتمعت له عدة أمور جعلت منه أستاذاً للمدرسة ظهرت في عهد النضج الاجتماعي الذي سبق ظهور الإسلام ومهدله . وعرفت بتجويد الشعر وتقييمه . نشأ زهير قريباً من شيخ شعراء الجاهلية إذ ذاك أوس بن حجر فقد كان راويته<sup>(٨)</sup> وعنه أخذ الأصول الفنية لصناعة الشعر ثم تفرغ لها فوقف عليها جهده ، وصرف إليها همه . وبلغ من ولوعه بتجويد شعره أن كلا من مطولاته كانت تستنفد عاماً كاملاً من وقته<sup>(٩)</sup> . وقد خالف بذلك سنة العرب في الارتجال على البديهة ، ولذا قال فيه الأصمعي<sup>(١٠)</sup> زهير والحطيئة وأمثالهما عبيد الشعر لأنهم

(٢) ديوانه ص ٧٧ .

(٣) المؤبل: المتخذة للقيمة (بكسر فسكون) لا للديح .

(٤) جرد: قصيرة الشعر رقيقته من أثر التضمير . الأسل: مفردة أسلة ، شجر يتخذ منه الرماح فصار يطلق عليها . مقامة: مقومة مثقفة .

(٥) حلا . تحلا من يمينك . يشير إلى ما كان منه من إقسامه ألا يساكن أسدا بأرض آمة: عيب ، غضاضة .

(٦) القصور لعله يقصد قصور خيرين بالموصل .

(٧) الأشقير . الجمل الأشقر - الخزامة: الحلقة التي توضع في أنف البعير .

(٨) الشعر والشعراء ص ٤٤ .

(٩) البيان والتبيين ج - ٢ - ص ١٠ .

(١٠) الشعر والشعراء ص ١٦ .

نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والقارىء لشعر زهير يرى فيه ثلاثة أمور دقة التصوير ، وتهذيب العبارة البراعة في اختيار مواطن المدح ، أما الأول فلن نعرض له هنا ، لأنه سيأتى بعد قليل في حديث عام يشترك فيه زهير مع غيره من معاصريه ، وأما الثانى والثالث ففيها يبدو امتيازها على سواه ، وإليك نموذجاً يوضحها ، وفيه ينتقل من الحديث عن ناقته إلى مدح هرم بن سنان فيقول (١١) :

إلى هرم تهجيرها ووسيجها تروح من الليل التمام وتغتندى (١٢)  
 إلى هرم سارت ثلاثاً من اللوى فنعم مسير الواثق المتعمد (١٣)  
 سواء عليه أى حين أتته أساعة نحس تُتقى أم بأسعد  
 أليس بضراب الكماة بسيفه وفكك أغلال الأسير المقيد  
 كليث أبى شبلين يحمى عربته إذا هو لاقى نجدة لم يعرد (١٤)  
 وثقل على الأعداء لا يضعونه وحال أثقال ومأوى مطرد (١٥)  
 إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية من الجحد من يسبق إليها يسود  
 سبقت إليها كل طلق مبرز سبق إلى الغايات غير مجلد (١٦)  
 كفضل جواد الخيل يسبق عفوه الم سراع وإن يجهدن يجهد ويعد (١٧)

أرأيت لغة أعذب وأتق من هذه. ثم أرأيت اختيار الألفاظ وتكرار (إلى هرم) إشارة إلى أن السير إليه كان قصداً لا مجرد مصادفة ثم تأكيد ذلك بقوله « مسير الواثق المتعمد » أما الأوصاف التي أوردتها فجميعها من أخص ما يعتز به أهل الجاهلية كما سنذكر بعد قليل . وأخيراً انظر إلى البيتين الأخيرين من المقطوعة وانظر كيف شبه صاحبه في سبق الناس جميعاً إلى الخير بالجواد مع الخيل يتقدم الراكب

(١١) ديوانه ص ٩٣ .

(١٢) تهجيرها: سيرها في الهاجرة - الوسيج: السير السريع - الليل التمام: أطول ما يكون من الليل .

(١٣) اللوى: منقطع الرمل - وأراد به هنا مكاناً بعينه .

(١٤) أبو شبلين: له شبلان في عربته وذلك أدعى لفتكه حتى يطعمهما ، وثورته على من يقترب منها -

نجدة: شدة - يعرد: يفر .

(١٥) ثقل على الأعداء: شديد الوطأة عليهم - لا يضعونه: لا يستطيعون التخلص من ضغطه عليهم .

(١٦) الطلق: الطليق غير المقيد أو الضاحك الوجه ساحة - مجلد مصروب .

(١٧) العفو: مآتى عن ساحة ويعبر مجهود .

دون أن يُستحث ، كأنه يفعل الخير دون أن يدفع إليه أو يحمل عليه .  
وهكذا يتضح أن امتياز زهير على إخوانه من أهل الجاهلية لم يكن لإدخاله شيئاً  
من البديع أو نحوه كما فعل العباسيون من بعد ولكن لهذه الدقة والحرص الشديد على  
تهذيب اللغة وضقل العبارة . وما دمتا نبحت الطبع والتكلف عند القدامى فلا بد لنا  
أن نذكر وجهة نظرنا في رأى سبقنا إليه الدكتور شوقي ضيف وذلك أن جميع شعراء  
الجاهلية بدون استثناء كانوا متكلفين ، وأن الجاحظ كان مدفوعاً بالعصبية للعرب  
حينما زعم أنهم كانوا يقولون الشعر ارتجالاً ، وبدون كد أو عناء . وحيثه في ذلك أن  
قرض الشعر صنعة ، وكل صنعة لها قواعدها التي ينبغي مراعاتها . ففي الشعر لا بد  
للشاعر من ملاحظة الوزن والقافية والروى وما إلى ذلك . وهذا كاف لأن يقول أن  
الشاعر الجاهلي كان صانعاً ومتكلفاً ، وإن لم يبلغ مبلغ زهير . وأظنه يوافقنا على أننا  
نتفاوت فيما بيننا تفاوتاً كبيراً حين نتجه إلى قاعة من القاعات لإلقاء محاضرة عامة عن  
موضوع نعرفه جيداً ، أو لأخذ طرف في مناظرة من المناظرات ، فنا من يقضى ساعة  
أو ساعتين منفرداً بنفسه كى يعد ما سيقول ، ويفكر فيما يمكن أن يلقيه الطرف الآخر  
فيعد الجواب عليه . ومنا من لا يكاد يفكر في الأمر إلا وهو على منصة الخطابة . إن  
هذا بالضبط هو ما نعنيه حينما نقول إن العرب القدامى كانوا مطبوعين لا يطيلون  
الرؤية أو يُعملون الفكر فيما قالوا أو ما سيقولون . وربما قال قائل : إن فرقا بين هذا  
وذاك ، فالشعر محتاج لإقامة الوزن وما إليه من تكاليف الشعر . والجواب على ذلك  
أن طول المراس وتمكّن الملكة يجعل هذه الأمور أقرب منالا إلى الشاعر القديم  
المطبوع مما نتصور . وكيف ننكر على القدامى مثل هذا مع أن بعض الشعراء  
العباسيين ممن لم تكن اللغة الفصحى لغة أبيه ولا جده كان يقول : لو أردت أن  
أجعل كلامي كله شعرا لفعلت<sup>(١٨)</sup> ثم يقول : إن الناس يتكلمون بالشعر في  
أحاديثهم العادية وهم لا يشعرون ولو أحسنوا تأليفه لكانوا شعراء<sup>(١٩)</sup> .

وبعد فلا أظن إلا أن الجاحظ والأصمعي وأضرابهما كانوا أعرف بلغة العرب  
منا ، لأن التكلف في اللغة مقرون بالمشقة ، ولست أدري لأى مشقة تعرض

١٨) أغان ج ٣ ص ١٢٧ .

١٩) الأغانى ج ٣ ص ١٤٠ .

طرفة بن العبد حينما قال في حبيبته هـ وهو من خير شعره بشهادة الثقة من  
النقاد (٢٠)

لا تلمني إنها من نسوة رُقد الصيف مقاليت نُزُرُ (٢١)  
كبنات المَحْرُ يَمَآذُن كما أنبت الصيف عساليح الخضر (٢٢)  
فجعوني يوم زَمُوا عِيْرَهُم برخيم الصوت ملثوم عطر (٢٣)  
ولها كشحا مهاة - مطفل تقترى بالرمل أفنان الزهر (٢٤)  
تحسب الطرف عليها نجدة بالقومي للشباب المسبكر (٢٥)

ألا توافقني على أن البيت الأول والأخير يعبران إلينا أكثر من أربعة عشر قرنا  
ليترجا بلغة أهل الفتوة والمرح من أبناء عصرنا . حقيقة هناك بعض ألفاظ غريبة  
ولكنها غريبة عندنا فقط أما عند طرفة فإنها عادية ومفهومة جيدا ، وإن شئت مزيداً  
فاقرأ الأبيات التي ختم بها قصيدته والتي يعتذر فيها إلى قومه من سابق لهُوه وعبثه  
عساك تظفر فيها بشيء من التكلف قال :

ولقد كنت عليكم جاتبا فعقبتم بذنوب غير مر (٢٦)  
كنت فيكم كالمغطى رأسه فانجلى اليوم قناعي وخمر  
سادرا أحسب عيى رَشْدًا فتناهيت وقد صابت بقر (٢٧)

(٢٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢١) ديوانه ص ٦٤ . مقاليت : لا يعيش لمن ولد . نزر : قليلات الأولاد .

(٢٢) بنات محر : سحاب بيض يأتين قبل الصيف - يَمَآذُن : يشنين - العساليح : ما أخضر ولان من  
القصبان .

(٢٣) رموا العير: وضعوها في الأزمة للرحيل - ملثوم: عليه لثام آى نقاب .

(٢٤) الكشخ: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف - تقترى: تتبع - أفنان: أنواع .

(٢٥) النجدة . الشدة - المسبكر: الممتد ، ولعله أراد بالممتد المتغطرس غير المكترث بمس حوله - وتحسب  
الطرف أى رفع الطرف .

(٢٦) عقبتم: جدتم - ذنوب: نصيب .

(٢٧) سادرا : لا أبالي بشيء ولا بأحد - صابت - من الصوب وهو النزول . قر : قرار ، وفى الأمثال

« صابت بقره أى نزل الأمر فى قراره فلا يستطيع له تحويل .

## «الصدق أو التزام الحقيقة» (\*)

وقد فطرهم على ذلك صراحتهم مع أنفسهم تلك الصراحة التي لا بد وأن تكون قد تسلت إلى نفوسهم من حياة البادية . فالبادية واضحة مكشوفة لا أدغال فيها ولا أحراش . بل ولابحار تطوى بين أمواجها أسراراً من طوتهم من راكبي ظهورها . والسمااء بعد ذلك صحو والشمس نهراً والقمر ليلاً لا تكاد تترك بالبادية حجراً بل حبة رمل حتى تجعلها تتوقد ناراً ونوراً .

وأخيراً يأتي دور الخيمة - التي يولد فيها العربي ويموت - فهي تلقنه دروساً لا تنتهي في الوضوح والصراحة وذلك بفضل حوائطها الرقيقة التي لا تكاد تخفى شيئاً عن أعين الناس . وإن زهير بن أبي سلمى الذي رسم الخطوط العريضة لحياة العرب في الأبيات الأخيرة من معلقته (٢٨) لم يفته أن يشير إلى هذه الحقيقة حين قال :

ومها تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم  
وتبدو آثار تلك التزعة عند العرب في البعد عن المبالغة والإغراق وتوخي القصد في المدح والفخر اقرأ ما شئت من الشعر فسترى دقة شديدة والتزاماً للحقائق . وإليك أبياتاً لطرفة بن العبد من القصيدة التي عرضنا لها منذ قليل هذه التزعة ، قالها يفخر بقومه بني بكر :-

لا تعزُّ الخمر إن طافوا بها بسبأ الشول والكوم البكر (٢٩)

(٥) كل أحكامنا تقريباً نسبية فحين نقول إن القدامى كانوا يلتزمون الحقائق لانعنى أنهم ما كذبوا قط . ولكن نعنى أن الغالب على شعريهم هو ذلك وسنعرض لهذا الموضوع مرة أخرى حين نتحدث عن المبالغة عند المحدثين لئرى آء علو الجاهليين كان مع ندرته مستساغاً .

(٢٨) نقصد تلك الأبيات التي يبدوها عن الشرطية مثل :

ومن لم يصانع في أمور كبيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنم  
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستنن عنه ويدم

(٢٩) الشول : جمع شائلة وهي الناقة التي مضى على وضعها سبعة أشهر - الكوم : جمع كوما كحمر -

فإذا ما شربوها وانتشوا  
ثم راحوا عَبَقُ المسك بهم  
يلحفون الأرض هُدَّاب الأزر  
نحن في المشتاة ندعو الجفلى  
لا ترى الأدب فينا يتنقر<sup>(٣١)</sup>  
يجفان تعترى نادينا  
من سديف حين هاج الصنبر<sup>(٣٢)</sup>  
كالجوابى لا تتي مترعة  
لقرى الأضياف أو للمحتضر<sup>(٣٣)</sup>  
ثم لا يخزن فينا لحمه  
إنما يخزن لحم المدخر

وشبيه بهذا أبيات لبيد التي ختم بها قصيدته وفيها يقول :-

إنا إذا التقت الجامع لم يزل  
منا لزاز عظيمة جسامها<sup>(٣٤)</sup>  
ومقسّم يعطى العشرة حقها  
ومغذمر لحقوقها هضامها<sup>(٣٥)</sup>  
فضلا وذو كرم يعين على الندى  
سمح كسوب رغائب غنامها

فلم يزد لبيد هاهنا على أن جعل أسرته من أعز الأسر في قبيلته ، ولم يسرف فيخلع عليها من المحامد والمفاخر ما ليس من شأنها . وهذا نفسه ما فعله طرفة من قبله . وقد ازداد هذا الأصل قوة بفضل زهير ومدرسته فقد جعله أساساً من أسسها ، والتزمه التزاماً استرعى التفات عمر بن الخطاب الذى قدمه على الشعراء جميعاً ولما سئل عن سبب ذلك قال : « كان لا يعاظر بين القول ، ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه »<sup>(٣٦)</sup> وتبعه في ذلك حوارية الحطيئة . استمع إلى قوله يمدح بنى لأى بن شماس ابن أنف الناقة بن قريع ويهجو الزبيرقان بن بدر ابن عمهم ورهطه

=وحمراء وهى الناقة العظيمة السنام - سباء الشول: شراؤها أى الحمر بالشول - البكر: الحديثات السس .

(٣٠) الأمون: مايؤمن عثاره من الإبل والحيل - الطمر (بكسر الطاء) الطويل . المشرف من الحيل .

(٣١) الجفلى: أن ييم بدعوته إلى الطعام .

(٣٢) الصنبر: بتشديد الصاد مع الكسر ، وتشديد النون مع الفتح أو الكسر ، الريح الباردة .

(٣٣) الجابية: الحوض الواسع يجيى فيه الماء أى يجمع - المحتضر: النازل على الماء .

(٣٤) لزاز عظيمة: ملازمها أى حالها .

(٣٥) مغذمر لحقوقها هضامها . مطلق اليد يعطى ويمنع من يشاء .

(٣٦) الشعر والشعراء ص ٤٤ .

وقد كان بين الفريقين تنافس وتحاسد (٣٧)

أفلّوا عليهم لا أبا لأبيكم  
من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدوا  
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البناء  
وإن عاهدوا أوفوا إن عقدوا شدوا  
وإن كانت النعماء فيهم جزّوا بها  
وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا  
مطاعين في الهيبة مكاشيف للدجى  
بنى لهم آباؤهم وبنى الجد  
ويحسدنى أفناء سعد عليهم  
وما قلت إلا بالذى علمت سعد

فقد وصفهم بأجمل ما يتمنى أن يوصف به المرء من الوفاء بالعهد والابقاء على الصديق والسماحة والشجاعة وكرم المحتد ، كل ذلك في ألفاظ يسيرة وعبارات عادية أو كالعادية لا أثر فيها لمبالغة أو إغراق .

وقوله في الزبرقان :-

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى  
آذاه رغم بساطته أشد إيداء حيث رماه بسقوط الهمة وتفاهة التفكير .  
وقد بلغ من تأدّى الزبرقان بها أن استعدى عليه عمر بن الخطاب ، فسجنه  
وهمّ بقطع لسانه . أو تظاهر بذلك على الأقل (٣٨)

وبالرغم من أن مذكرناه كان الصبغة الغالبة على الشعر الجاهلى ، فقد كانت هناك مخالقات اقتضتها الظروف السياسية والاجتماعية المختلفة .

(٣٧) تهذيب الكامل ج ٢ ص ١٠٦ .

(٣٨) نفسه ص ١١٠ .



فالدارس للشعر الجاهلي يدرك ميل شعراء تغلب إلى الغلو في تقدير شجاعتهم . ولم يحتمل منهم النقاد ذلك ، فقالوا في قول مهلهل بن ربيعة :-

فلو لا الريح أسمع أهلَ حجر . . . صليلَ البيضِ تفرع بالذكور<sup>(٣٩)</sup>

أنه أول كذب سمع في الشعر ومن الإنصاف أن نقول إن مثل هذه الزلة لا ينبغي أن تذهب ما في بقية القصيدة من قصد يبدو في قول مهلهل :

وهمام بن مرة قد تركنا      عليه القشعين من النسور<sup>(٤٠)</sup>  
على أن ليس عدلا من كليب      إذا طُرد اليتيم عن الجزور  
على أن ليس عدلا من كليب      إذا ما ضيم جيران الحجير  
على أن ليس عدلا من كليب      إذا خيف الخوف من الثغور  
على أن ليس عدلا من كليب      إذا برزت مخبأة الخدور

أما ما نراه في شعراء بكر كطرفة بن العبد والحريث بن حِلْزَة من قصد واتزان فيرجع فيما نعتقد إلى تلك الضربات المتوالية التي كالتها لها تغلب ، فقد ذاقت بكر مرارة الهزيمة بسبب اعتزال بعض بطونها الحرب ، ولذا كسبوا النصر النهائي بعد أهوال طوال ، ودفَعوا له ثمنا غاليا من دمائهم وأموالهم ، فعلمتهم التجارب ألا يلقوا الكلام على عواهنه إلقاء .

وقد تعرّضت هذه النزعة الكريمة إلى محنة أخرى على لسان المتكسبين بأشعارهم من أمثال النابغة الذبياني ، فقد انتهى به حرصه على إطراء الممدوح إلى مجاوزة القصد فيما يقول أحيانا كما ترى في قوله يصف سيوف الغساسنة :-

(٣٩) الأمل ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ حجر: قصة اليمامة ، والمعركة بالجزيرة . البيض: الحور

(٤٠) المرجع السابق ص ١٣٢ ، القشع: الهرم ، وعلى أن ليس عدلا من كليب أي أن همام بن مرة أو بجير للذكور قبله لا يغني غناء كليب وقت الشدة ، لأن جميع الأمور التي ذكرها من طرد اليتيم أو العجر عن حياة الجار أو خروج النساء من خدورهن لا يحدث إلا في الأوقات العصيبة حين يشتد الجذب أو يحدق بهم العدو .

تقدَّ السلوقيُّ المضاعف نسجه . . . وتوقد بالصُّفاح نار الحُبَّاب (٤١)  
ولكن مثل هذه الأبيات النادرة لا ينبغي أن تهدم القاعدة العامة التي  
سار عليها الشعر الجاهلي .

ولعله قد صار من واجبنا وقد انتهينا إلى هذا الحد من البحث أن نشير  
إلى أن أكثر الفضائل جريئاً على ألسنة العرب الشجاعة والكرم ويدخل  
تحت الشجاعة حماية الجار ونجدة الملهوف . وإنما عظم تقديرهم لهاتين  
الفضيلتين لأن حياة البادية تفرض عليهن ذلك ، فانعدام الحكومة  
المركزية ، واضطراب الحال الاقتصادية عرضهم للغارات ، وجعلهم بحاجة  
إلى من يرد عنهم ويلاطها ، وقلة الأمطار عرضتهم للجذب وأحوجتهم إلى  
من يرد عنهم غوائله الميل إلى التصوير .

يظهر أن هذا الميل فطري في الإنسان ، فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل  
إلى غيره ما عساه أن يكون قد سبق إليه من مشاهد أو تعرض له من  
تجارب . وقد وجدت هذه النزعة متنفساً عند الأمم الكاتبة القارئة ، فظهر  
التصوير ممتزجاً بالكتابة عندها أول الأمر ثم استقل عنها بعد ذلك (٤٢) وفي  
كلا الحالين استغلت تلك الأمم أيديها لتصوير تجاربها ومشاهداتها .

ولكن الشعب العربي لا يكتب ولا يرسم وهو مع ذلك محتاج كغيره من  
الشعوب إلى نقل تجاربه . بل هو أشد حاجة إلى ذلك لقوة المشاركة  
الوجدانية عنده ولم يجد وسيلة إلى ذلك سوى بضاعته الأولى وهي الشعر  
يرسم فيه صوراً دقيقة لكل ما يقع تحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب ،  
ولذا تكثر تلك الصور في الشعر العربي أثناء العصر الجاهلي كثرة لا نرى لها  
شبهاً في عهد آخر سوى العهد الأموي الذي يحاول دائماً أن ينسج على

---

(٤١) شعراء النصرانية ج - ٢ ص ٦٤٧ ، السلوقي الدرر نسبة إلى سلوق بيلاد الروم المضاعف نسجه .  
نسحت حلقاته مثنى - الصمغاح: حجارة عراض - الحاحب . ذناب يرسل شرراً أو شعاعاً أثناء الليل  
(٤٢) كانت الكتابة أول الأمر صورية ثم مقطعية ثم تحولت على يد الفينيقيين إلى رمزية

منواله ، وإذا أعوزك الدليل على ذلك فاقراً المعلقات السبع وتأمل وصف امرئ القيس لحبيته وفرسه ولا تنس الأبيات التي ختم بها معلقته وتحدث فيها عن الطبيعة . وإذا انتقلت إلى طرفه ومعلقته فقف قليلاً أو كثيراً عند وصفه أو بعبارة أدق تصويره لناقته ، وإنا لوائقون من أنك ستسأل نفسك عما إذا كنت أمام شاعر أو مصور وذلك لكثرة ما فيها من تشبيهات تتوالى في إسراف عجيب ، ويجمل بهذه المناسبة أن نذكر أن أسلوب أهل الجاهلية في التصوير هو الاعتماد على التشبيهات الحسية لتصوير الحسيات والمعنويات جميعاً ومثال الأول قول طرفه بن العبد :

وبلاد زَعَلٍ ظَلَمَانِهَا كالمخاض الجرب في اليوم الخدر<sup>(٤٣)</sup>

ومثال الثاني قول طرفه أيضاً .

وظلم ذوى القرى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند<sup>(٤٤)</sup>

واستعمال التشبيهات على هذا النحو مظهر من مظاهر البساطة والسذاجة والرغبة في الإيجاز حيث لا يستطيع المتحدث ذكر تفاصيل المنظر الذي يريد تصويره فيكتفي بذكر شيء شديد الشبه به ومعروف لكل من القائل والسامع مستغنياً بذكره عن التعرض لدقائق الموصوف ، ولكي يكون الغرض من هذه التشبيهات واضحاً نذكر لك مثالين يعينان على ما نريد أما أولها امرئ القيس يصف شعر حبيته :-

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كَقَنُو النخلة المتعشك<sup>(٤٥)</sup>  
غدائرة مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

(٤٣) زعل: نشيطة - المخاض: الحوامل من النوق - الخدر: الشديد البرد ، ديوانه ص ٦٦ .

(٤٤) معلقته .

(٤٥) القنو للنخلة مثل العقود لشجرة العنب ، وتعشك تمت عثاكيه وهى العيدان الرفيعة التي تحمل

البلح .

فأنت تراه قد وصفه بأوصاف متعددة تؤكد غزارته وكثافته ولكنه مع ذلك لا يهدأ ولا يستريح حتى يقول بجانب ذلك كل ، «كقنو النخلة المتعشكَل ، وكأنى به يرى أن تلك الصفات مهما توالى لانتقل الصورة التى ارتسمت على مرآة فكره وهو يتطلع إلى شعر حبيته ، صورة قنو النخلة ولذا يبادر بتسجيله فى شعره وشبيه بهذا قوله :-

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأثوب السقي المذلل<sup>(٤٦)</sup>  
بعد أبيات قلائل من قوله :-

هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضم الكشح ربا المخلخل  
وكانه رأى أن الإيضاح بالنعوت والصفات أقل دقة ووضوحاً منه بالتشبيه ، فعمد بعد ذلك إلى تشبيهه بالجديل ، فإنه على بساطته يتضمن الضمور واللفظ وتداخل بعض الأجزاء فى بعض مع الخلو من الفضول والترهل .

وفى هذا الضوء يجب أن تقرأ الشعر الجاهلى ، وأن تنظر إلى التشبيهات التى تمر بك فى كثرة أثناء قراءته متتبعا الشاعر وهو يتنقل بك كالنحلة أو الفراشة من زهرة إلى أخرى أو من منظر إلى آخر واضعا بين يديك الصورة التى انطبعت فى ذهنه عند رؤية هذا المنظر أو ذلك ، وفى هذا الضوء ينبغى أن نتدبر أمثال قول طرفة فى ناقته وقد خطرت به :-

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربا أذيال سحل ممدد<sup>(٤٧)</sup>  
أو قوله يصف امتلاء أطراف عشيقته :

كأن البرين والدماليج علقت على عُشْر أو خروغ لم يخضد<sup>(٤٨)</sup>

(٤٦) السقي: المسقى، المذلل: المقل بالغار ، شبه ساقها بأنابيب البردى أو القصب التى نشأت فى ظل محل كثير الماء والثمار .

(٤٧) شبه الناقة فى سيرها بحارية ترقص أمام سيدها فى ثياب بيضاء (المعلقة)

(٤٨) نفسه . البرين والدماليج: الخلاخيل والأساور ، والعشْر والخروغ نوعان من الشجر .

أو قوله متحدثاً عن حدة قلبه ونفاذه في الأمور:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خَشَّاش كُرَّاس الحَيَّة المتوقدة<sup>(٤٩)</sup>  
والتصوير اللفظي عند العرب يشبه اليدوي عند غيرهم من حيث  
اقتصاره على منظر جزئي بسيط كقول طرفة:  
وبلاد زَعِيل ظلماتها كالخاض الجرب في اليوم الخدر<sup>(٥٠)</sup>  
أو اتساع أطرافه وتعدد جوانبه حتى يشبه اللوحات الضخمة .  
وكانت روح الدقة التي تشيع في شعر زهير معينة له على تجويد هذا  
النوع من التصوير كما ترى في قوله:

تَبَصَّر خَلِيلِي هل ترى من طعائن تَحْمَلُن بالعلياء من فوق جرثُم<sup>(٥١)</sup>  
جعلن القنان عن يمين وحزني وكم بالقنان من محل ومحرم<sup>(٥٢)</sup>  
عَلَوْنَ بأنماط عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وِرَادٍ حواشيتها مشاكهة الدم<sup>(٥٣)</sup>  
كأن فئات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم<sup>(٥٤)</sup>  
فلما وردن الماء رزقا جامه وضعن عصي الحاضر المتخيم<sup>(٥٥)</sup>

على أنه ينبغي ألا تغلوا في تقدير زهير فإن معظم شعراء الجاهلية كانوا  
مصوريين مثله ، بل ربما كان من الواجب أن نذكر أنه مديناً لهم بأجمل  
ما عرف له من التصوير ألا ترى أن قوله:

---

(٤٩) نفسه . الضرب : الحفيف اللحم ، الخشاش بفتح المعجمة : الماضي الذي لا يتردد .  
(٥٠) راجع ص ٢١ من هذا الكتاب .  
(٥١) ديوانه ص ٤ - الطعائن : النساء على الإبل جمع طعينة .  
(٥٢) القنان . جبل لبني أسد - والحزن ما غلظ من الأرض - المحل : الذي لا عهد له كأنه يستحل ما  
الناس ودماءهم - المحرم : الذي له حرمة ودمه .  
(٥٣) الأنماط : ما يفرش من المتاع - الكلة : الستر - وراة حواشيتها : حمراء ، مفردة ورد .  
(٥٤) العهن : الصوف - فئاته : ماتناثر منه - الفنا : شجر حبة أحمر .  
(٥٥) الجمام : جمع جممة وجم وهو ما اجتمع من الماء وغرز - وزرقته دليل صفاته .

فينا نبغى الصيد جاء غلامنا يدبّ ويخفى شخصه ويضائله (٥٦)  
 مأخوذ من قول طرفة يتحدث عن بعض الفلوات .  
 يظل بها غير الفلاة كأنه رقيب يخافى شخصه ويضائله (٥٧)  
 وإن أحببت أمثلة على ماتقول فاقراً قول النابغة حين يصور سعة  
 عطاء النعمان مشها إياه بالفرات .  
 فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أو إذّيه العبرين بالزبد (٥٨)  
 يمدّه كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد (٥٩)  
 يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد  
 يوماً بأجود منه سبب نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غد  
 أو حين يقول مصورا سعة سلطانه وامتداد نفوذه :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع  
 خطاطيف حجن في جبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

ولكى يثق القارئ أن هذا النوع من التصوير كان عاما في الشعر  
 الجاهلى نزيده مثالين أحدهما لطرفة والآخر لأمير شعراء الجاهلية أما طرفه  
 فيقول :

ونحن إذا ما اللجن أمسى كأنه  
 سماحيق غيم وهى حمراء حرجف (٦٠)  
 وجاءت بصرّاد كأن صقيعة خلال البيوت والمبارك كرسف (٦١)

(٥٦) ديوانه ص ٢٧ .

(٥٧) ديوانه ص ٣٩

(٥٨) النابغة الذبياني ص ١٧٦ .

(٥٩) الينبوت : شجر الخروب - الخضد . الحشائش ،

(٦٠) ديوانه ص ٤٣ - سماحيق الغيم : الرقيق منه - حرجف : شديدة البرودة .

(٦١) الصراد كرماء : الغيم الذى لاماء فيه - الصقيع : ماينزل بالليل كأنه الثلج .

وجاء قريع الشول يرقص قبلها إلى الدفء والراعى لها متحرف<sup>(٦٢)</sup>  
تبيت إماء الحمى تطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتجرف<sup>(٦٣)</sup>

فقد وصف السماء والأرض وما يغطي إحداهما من غيم رقيق كأنه  
أغشية الدهن وما يثتر على وجه الأخرى من صقيع كأنه القطن المندوف  
ووصف الإبل وقد عادت مساء وعاد فحلها يرتعش ويستحث الخطأ  
طلباً للدفء على حين تخلف عنها الراعى خوفاً من البرد . كل ذلك  
ليعطينا صورة مما كان يحل بالبادية من أزمات في الشتاء يتولون هم  
تفريجها على المعسرین بإطعام الطعام في غير تقتير .

وأبيات امرئ القيس في وصف السيل وأثره في البادية معروفة  
مشهورة ومنه في وصف الجبل والسباع والطير أثناء اندفاعه وعقب  
إقلاعه :

كأن ثبيراً في عرانيين وبله كبير أناس في بجاد مزمل<sup>(٦٤)</sup>  
كأن ذرا رأس الجيمر حوله من السيل والغنّاء فلكة مغزل<sup>(٦٥)</sup>  
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أناييش سنصل<sup>(٦٦)</sup>  
كأن مكاكى الجواء غدئية صبحن سلافاً من رحيق مفلفل<sup>(٦٧)</sup>

وهي وإن كانت جزئيات منفصلة إلا أن تجاورها يكون منها وحدة

---

(٦٢) قريع الشول فحلها - متحرف . متخلف عنها سبب البرد .

(٦٣) المتجرف المدم .

(٦٤) ثبير: جبل - عرانيين وبله . أوائل المطر - البجاد . ثوب مخططة - مرمل: متلف

(٦٥) الجيمر . أكمة معينة - الغنّاء: ماحاء به السيل من حشيش أو شجر ونحوه فلكة المغزل . رأسه ، شبه

دوران السيل حول الأكمة بدوران فلكة المغزل

(٦٦) العنصل: البصل البرى - الأناييش: جذور النبات ، مفيدتها انيوش (بالضم) لأنه ينبت عنها ، تسه

الساع وقد اختلط الطين بشعرها بجدور البصل البرى حين يمتلط بها الطين واختار البصل البرى لأن حذوره أقرب للشعر .

(٦٧) المكاكى: ضرب من الطير مردها مكاء بضم الم وتشديد الكاف .

عامّة تعطينا صورة دقيقة لمنظر من مناظر البادية عند هبوب العواصف المطرة .

وقد عرضنا لنظرية التصوير لأنها تفسر لنا تفسيراً تاماً ميل العرب إلى تحرىّ الدقة في تشبيهاهم واستعاراتهم . وقد مر بنا تشبيه طرفة للظلمان بالمخاض الجرب ولايكاد يخفى قوة وجه الشبه بينهما . وإليك صورتين أخريين أولاهما لشاعر جاهلي والأخرى لآخر عباسي .. قال امرؤ القيس في عقاب يشبه بها فرسه ثم يشير إلى كثرة ضحاياها من الطيور: كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي ويحدثنا بشار أنه ظل يحسد امرأ القيس على هذا التشبيه المزدوج حتى قلده بقوله:

كأن مثار النقع فوق رعوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه وأظننا ندرك بسهولة قوة التشابه عند الأول فالرطب من قلوب الطير يكاد يختلط بالعناب حجماً وشكلاً ولينا كما أن اليابس منها يكاد يشبهه على المرء بالحشف من البلح ، والوضع بخلاف ذلك عند بشار لأسباب سنعلمها إن شاء الله عندما نتحدث عن التصوير وما أصابه من تطور في العصر العباسي .



## « الموسيقية »

لا يكاد القارئ للشعر الجاهلي يخطئ سيطرة الموسيقى عليه ، فأبياته مقسمة إلى مقاطع متوالية متناسقة ، وقوافيه محوطة بسياح من الشروط التي توجب أن تكون صورتها متحدة في القصيدة كلها من حيث الحركات والسكنات .

والروى يجب ألا يتغير أو يتبدل مها طالت القصيدة . والذي يمكن أن يصل إليه الباحث من هذا كله أن الشاعر العربي يهتم بإرضاء الأذن ، أنه يعلم أنها تتوقع عند سماع الشعر صورة صوتية خاصة تطرب لسلامتها وتضطرب لاضطرابها ، ولاسيما إذا كان ذلك الاضطراب في القافية ، الذي يمتد طينها في الأذن أكثر من أى كلمة أخرى في البيت لوقوعها في آخره . وهذا هو السبب في أن قوماً سمعوا قول النابغة .

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك نخبرنا الغراب الأسود  
لا مرحباً بغد ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة في غد

فلم يغتفروها له وكبر عليهم أن يجمع بين الكسر والضم في الروى . واحتالوا للأمر فأوحوا إلى قينة بغناء الأبيات في حضرته على النحو السابق ، ففطن إلى خطئه<sup>(٦٨)</sup> ويروى قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في عرانيين وبله  
كبير أناس في يجاد مزمل

بكسر اللام في مزمل ، محافظة على حركة الروى ، مع أنها تستحق الضم لأنها صفة كبير والسبب في عناية الشاعر العربي بالأذن واهتمامه بالموسيقى تبعاً لذلك أن اللغة العربية لغة مسموعة لا مكتوبة . حيث يجهل أهلها القراءة والكتابة وقد كان

(٦٨) الشعر والشعراء ص ٣٨ .

لهذه الخاصة فوائدها وأضرارها ، أما من حيث المزايا فقد ساعدت على شيوع تلك الروح العذبة التي تطل من خلال الشعر الجاهلي ، وكل ما نسج على منواله من شعر العصور التالية ، روح لا تلبث أن تستولى على نفس القارئ والسامع فتعمل فيه عمل السحر . ونحن لا نشك في أن هذا هو شعور القارئ لقول المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمي فأرقني وأصحابي هجود<sup>(٦٩)</sup>  
 فبت أدير أمرى كل حال . وأرقب أهلها وهم بعيد  
 على أن قد سما طرفي لنار يشب لها بلدى الأرتى وقود  
 حوالها مها جم التراقي وأرام وغزلان رقود<sup>(٧٠)</sup>  
 نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تروح ولا ترود  
 يسرن معا بطاء المشى بدا عليهن الجاسد والبرود<sup>(٧١)</sup>  
 فما بالى أفى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد

ونحن نعتقد أن قدراً كبيراً من إعجابنا بهذه الأبيات يعود إلى اتصالها الوثيق بعواطف مشتركة بين الناس جميعاً ، ولكننا لا نشك في أن قسطاً كبيراً أيضاً من هذا الإعجاب يرجع إلى ما فيها من موسيقية . وأن هذا الإعجاب كان يمكن أن يضعف أو يتلاشى لو أن تلك العواطف قد صبّت في عبارات معقدة تنقصها السلاسة والعذوبة والموسيقية . وحتى لا يندع القارئ فيظن أن التأثير كله أو معظمه عائد إلى موضوع الشعر فقط نثنى بقول أبي العلاء :

حياة عناء وموت عنا فليت بعيد حمام دنا<sup>(٧٢)</sup>  
 يد صفرت ولهة ذوت ونفس تمت وطرف رنا  
 وموقد نيرانه فى اللدجى يروم سناء برفع السننا

(٦٩) المفضليات ص ٢٣ .

(٧٠) جم جمع جماء كحمرو حمراء ، وهى التى غطى اللحم عظمها ، والتراقى جمع ترقوة بفتح فسكون فضم ففتح ، وهى أعلى الصدر فى مقدم العنق  
 (٧١) محاسد . جمع مجسد بصيغة اسم المفعول ، وهو الثوب المصبوغ بالجساد أى الزعفران - البرد : الثوب المخطط بد - جمع بداء كحمرو حمراء . وهى الغليظة الفخذين .

(٧٢) اللزوميات ص ٥٩

يحاول من عاش ستر القميص وملء الخميص وبراء الضنا  
ومن ضمّه جدث لم يُبَل على ما أفاد ولا ما اقتنى (٧٣)  
يصير ترابا سواء عليه مسّ الحرير وقطعن القنا

فبالرغم من أنها تدور حول الموت فإننا على يقين من أن قارئها سيضطرب لها سواء كان من عشاق الموت أو الحياة ، وأن جزءاً كبيراً من ذلك الإعجاب يرجع إلى موسيقيتها . وقد أشرنا في أول هذا الفصل إلى الشروط التي تتعاون على جعل الشعر موسيقياً وهي الوزن السليم وفقاً لبحر خاص من البحور المعروفة لدارسي العروض مع خفة القافية واتحاد الروى . ولكن هذه جميعاً قد لا تحقق سوى أدنى مراتب الموسيقية كما سنرى في الشعر المتكلف المصنوع ولا بد أن ينضم إليها أمور أخرى للارتفاع بالشعر إلى أعلى المراتب في هذه الناحية ، منها صدوره وعلى عاطفة جياشة وجريانه مع الطبع وخفة بجره (٧٤) ووضوح معانيه . ولعل أبرز شيء في القصيدة التي بين أيدينا بعد خفة بجرها ، ما نراه من اختيار مفرداتها بحيث يتفق معظمها مع التفعيلات العروضية كما هو واضح بأدنى ملاحظة .

أما الآثار السيئة التي يمكن أن تعزى إلى حرص الشعراء والنقاد على موسيقى الشعر فأهمها احتفاظه بالوعاء الشكلي الذي ورد عن الجاهلية من اتحاد الوزن والروى مع تشابه القوافي في القصيدة الواحدة (٧٥) وقد بلغ من عناية الشعراء والنقاد بالقوافي واحتفالهم لها أن قالوا : « إن حظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت (٧٦) » .

وما من شك في أن هذه الأمور جميعاً ، رغم إسهامها في تحقيق الموسيقية تشبه السلاسل والأغلال التي تعوق الشاعر أحياناً عن متابعة ما يدور برأسه من أفكار ، أو يعتلج في صدره من عواطف ، لأن جزءاً كبيراً من نشاطه الفكرى يضعف في ملاحظتها . ولعل الروى بخاصة أسوأها أثراً ، وأثقلها حملاً ، فإن الشاعر العربى

(٧٣) حذف الألف للتخفيف وعلى غير قياس (تاج العروس . مادة بلى)

(٧٤) لاشك أن بعض البحور أخف من بعض . وهذا هو السبب في تسميتهم المتدارك بالبحر المرقص .

(٧٥) وقد وضع النقاد وعلماء العروض كثيراً من الشروط التي تضمن تشابهها في جميع أبيات القصيدة .

(٧٦) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٦ .

ربما قصّ أغصاناً مثمرة من الفكر ، أو غيرَها ، بل ربما ضحّى بها جمعاء في سبيل المحافظة على وحدة الروى .

ولا يعلم أحد غير الله تعالى ما كان يمكن أن ينتهى إليه الشعر العربى من حيث اتساع الأغراض ، وقوة الأداء لو أنه صادف من أبنائه ما صادفه الشعر الإنجليزى على عهد إليزابث من مارلو الذى استطاع أن يحرره من وحدة الروى ، وبذلك مهّد لظهور الشعر المسرحى على يد شكسبير . حقيقة حاول الشعراء العباسيون كأبى العتاهية فى أرجوزته ، وأبان اللاحق فى نظمه لكتاب كليلة ودمنة أن يحطّموا هذا القيد ، ولكنهم لم ينجحوا لشدة اعتزاز الأذن العربية بالروى . ونحن لا نشك فى أن هذه الفكرة لو اعتنقها شاعر فحل كالمتنبى لكان أبعد أثراً من هذين وأشباههما ولعل هذا الميل الطبيعى بين شعراء العربية ونقادها إلى المحافظة على موسيقى الشعر كان الصخرة التى تحطمت عليها محاولة أبى تمام تجديد الشعر العربى فى معانيه وأصباغه التى تستمد ألوانها من المحسنات البديعية . فقد كان غوّص أبى تمام على المعانى ويحثه عن المحسنات صارفاً له عن العناية بموسيقى الشعر مما أضعف تحمّس الناس له ، بل أثار النقاد عليه . وأكبر الظن أن عناية الباحثى بموسيقى الشعر عناية فائقة لم تكن مجرد مصادقة ، بل كانت محاولة موفقة منه لاستغلال الظروف السائدة وتحويل ثورة النقاد على أبى تمام إلى عاصفة من التصفيق له وقد نجح فى ذلك أيما نجاح ، وكان مما أثر عنهم فى بيان سبب تعصبهم له أنه يحافظ على عمود الشعر ولم يحددوا بالضبط ما هية ذلك العمود وأوصافه إلا أننا نستطيع الاهتداء إليه بتتبع أبرز الخواص التى يمتاز بها شعر الباحثى من جهة والتي يلتقى فيها مع شعراء الجاهلية من جهة أخرى وقد وجدنا بعد البحث الطويل أن أول ما يصادف المرء فى ذلك الصدد الطبع والموسيقية .

## بناء القصيدة

ونختم حديثنا عن الشعر الجاهلي ببيان الخطوط العريضة في بناء القصيدة الجاهلية . ولعل أول ما ينبغى التنبيه عليه هنا أن الشعر الجاهلي كأخيه الإسلامي لم يرو جمعه في صورة قصائد مطولة ، بل منه مقطوعات قصيرة أنشدت في مناسبات غير خطيرة . أو اكتفتها السرعة ، فلم يشأ أو لم يتمكن الشاعر من إعطائها ما تستحقه من عناية واهتمام ، ومنه قصائد مطولة جمع لها الشاعر شعاب نفسه واستغل فيها فته ومواهبه إلى أبعد حدود الاستغلال . والنوع الثاني هو موضوع بحثنا الآن . أما الأول فليس له بناء خاص جدير بالدراسة بل كان يلتقى به الشاعر دون أن يلتقى له . بالا .

ولعل أتم صورة للنوع الثاني المعلقة العشر وإن كان بجانبها مئات من القصائد الطويلة الرصينة الجديرة بالدراسة . وأول ما يلاحظ على القصائد الجاهلية بدؤها بالوقوف على ديار الحبيبات بعد رحيلهن ، والدعاء لها حيناً والبكاء عليها أحياناً ، ووصل ذلك بالحنين إلى صواحبيها ، واستعراض شيء من ذكريات الشاعر عنهن ، أو علاقته بهن ، بمثل هذا يبدو معظم الجاهلين قصائدهم مسرفين أو مقتصدين . ثم يفترون بعد ذلك وفقاً لمشاربهم . فامرؤ القيس مثلاً ينتقل من التشبيب إلى الصيد وما التبس به من وصف الخيل .

وطرفة يذكرنا بأن له هواية غير الصيد وهي الضرب في عرض الصحراء على ظهر ناقته التي يسرف في الحديث عنها إسرافاً يضيق به من لم يألف الشعر الجاهلي . وبعد الفراغ منها يأخذ في غرضه الأصلي ، من الفخر بنفسه ، والدفاع عنها أمام لائمه على شربه وتبذيره .

على أن هناك أمثلة قليلة لمعلقات أو قصائد بدئت بالفزل والتشبيب دون تعرض للأطلال والدمن كمعلقة عمرو بن كلثوم . ونوع ثالث وإن كان أقل من القليل لم

يتعرض فيه صاحبه للتشبيب إلا تائباً منه مستغفراً . وقد استبدل به وبالأطلال وصف الطبيعة والصيد من ذلك إلى المدح . ونشير بذلك إلى قول زهير بن أبي سلمى بمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري .

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله  
وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله<sup>(٧٧)</sup>  
وأقصرت عما تعلمين وسُدَّت  
على سوى قَصْد السبيل معادله  
وغيثٍ من الوسميِّ حُوُّ تلاءه  
أجابت روابيه النَّجاء هواطله<sup>(٧٨)</sup>  
هبطتُ بمسود النواشر سابح  
مُمَرَّ أسيل الخد نَهْد مراكله<sup>(٧٩)</sup>

فأنه يستمر بعد ذلك في وصف حصانه رابطاً بين ذلك وبين الصيد ثم يخلص إلى غرضه من مدح حصن بن حذيفة . ولندع هذه الأمثلة النادرة جانباً ، ونتقدم لنسأل أنفسنا عن السبب في حرص الشعراء الجاهليين على أن يبدووا قصائدهم بمقدمات تمهيدية خارجة عن الموضوع الأصلي الذي قد يكون مدحاً أو فخرًا أو نحوه ، ولماذا لا يهدفون إلى الغرض الأساسي من القصيدة مباشرة ثم لماذا كان النسب وذكر الديار البالية أحب الموضوعات إليها ، وأخيراً ما الضرورة إلى ذكر الناقة والصحراء بحيواناتها ونباتها ؟

لقد نقل ابن قتيبة<sup>(٨٠)</sup> عن ناقد لم يذكره إجابة لهذه الأسئلة نذكرها مع الاختصار قال « سمعت بعض أهل العلم يقول إن مُقَصِّد القصيدة إنما بدأها بذكر

(٧٧) ديوانه ص ٢٤ ،

(٧٨) الوسمي: أول المطر - التلاع - مسایل الماء - حو - جمع حواء ، أي أن أطراف النبات سوداء من شدة الخضرة والخصب .

(٧٩) مسود: مفتول - النواشر: جمع ناشرة وهو عصب الذراع - المر: المحكم - المراكل: جوانب الفرس التي تركلها رحل القارس - نهْد: ضخم .

(٨٠) الشعر والشعراء ص ١٤ .

الديار فشكا وبكى ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها ثم وصل ذلك بالنسيب ليميل نحوه القلوب ويستدعى إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس . فإذا تأكد من إصغاء الناس إليه عقبَ بليغاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهو وإنضاء الراحلة فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح فهزه على السباح وفضَّله على الأشباه .

وفي رأينا أن إجابة ابن قتيبة جزئية وجانبية ، لأنه إن أمكن في ضوءها تحليل قول الأعشى في مدح الرسول ﷺ .

ألم تغتمض عينك ليلة أرمداً	وبتَّ كما بات السليم مسهداً (٨١)
وما ذاك من عشق النساء لأتني	تناسيت بعد اليوم خلة مههدا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن	إذا أصلحت كفايَ عاد بأسداً
شباب وشيب وافتقار وثروة	فله هذا الدهرُ كيف تردداً ؟
وما أزلت أبغى المال مذكنت يافعا	وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا
وأبهذل العبس المراقيل تغتلي	مسافة ما بين التجير فصر خدا (٨٢)
ألا أيها السائر ابن يَمَمْتْ	فإن لها في أهل يثرب موعدا
فأليت لا أرتي لها من كلاله	ولامن حتى حتى تلاقى محمدا (٨٣)
متى تُناخى عند باب ابن هاشم	تُرِيحِي وتُلْقِي من فواضله يدا (٨٤)
في يرى مالا يرون وذكره	أغار لعمرى في البلاد وأنجداً (٨٥)

حيث تدل روح القصيدة وهذا المزج بين الأسفار وحب المال أن الشاعر كان حريصاً على أن يلفت نظر الرسول إلى الغرض من تحمله هو وناقته المشاق . أو أمكن بها تحليل كثير من قصائد المدح التي جاءت بعد عصر الأعشى كقول جرير في عبد الملك مثلاً : -

(٨١) ديوانه ص ١٣٥ - الأرمذ: الذي يشكو وجعا في عينه - السليم. التي لدغته الحية - .  
(٨٢) المراقيل: التي ترقل في سيرها أى تسرع - تغتلي: تسرع - التجير. مكان بمحضرموت - صرخد: مكان الجزيرة .

(٨٣) الكلاله. الكلال والتعب .

(٨٤) أراح: رجعت إليه نفسه بعد الإعياء . تناق: مبنى للمجهول .

(٨٥) أغار: سار إلى القور وهو ما انخفض من الأرض ، وأنجد: سعد النجاد وهي المرتفعات .

أتصحو أم قوادك غير صاح عشية همَّ صبحك بالرواح  
حيث يذكر عدة أبيات في الغزل ثم ينتقل إلى ذكر رحلته باختصار فيقول : -

سيكفيك العواذل أرحبى<sup>(٨٦)</sup> هيجانُ اللون كالفرْد اللّياح<sup>(٨٦)</sup>  
يعزُّ على الطريق بمنكيه كما ابتك الخليع على القداح<sup>(٨٧)</sup>

فإنه لا يمكن في ضوءها ولا ظلها تعليل كل ما ورد من ذلك قبل عصر الأعشى وإخوانه قبل أن يصير الشعر مرتزقا وطريقا لكسب المال والثروة . بل ولا تعليل ما جاء بعد ذلك من أشعار في غير المدح من أغراض كالفخر والمهجاء . إذن فالسألة في حاجة إلى نظرة أشمل وتوجيه أدق ( وهذا ما نستعين بالله عليه ) وإليك رأينا في هذا الصدد : -

يظهر أن الشعر العربي كما يفهم من اشتقاقه بدأ أول الأمر في صورة نجوى بين المرء ونفسه يترجم بها عن مشاعره ، ويتغنى فيها بآماله وآلامه . وعواطفه ونزعاته كلما طال عليه الليل . أو امتد به الطريق ، فيحيل تلك المشاعر والعواطف أليانا عذبة ، وأغاريد شجية . وأى شيء أحب إلى نفسه وألصق بفؤاده من حبيبته يسترجع ذكرياته معها حلوها ومرها ، أو يبثها هواه وشكواه ، إن قدر له أن يلقاها أو يلتقي من يلقاها فإن حال الزمان بينهما فارتحلت عن ديارها على عادة البدو ، لم يجد سوى الربع الخالي يروى أرضه بدموعه حيناً ، ويسأله عن الحبيبة الراحلة أحيانا ، ويتلمس في جوانبه موطئ أقدامها ، ومضجع جنبها . فإذا أعياه التماسها هناك ، التمس صورتها في وجه القمر ، وتسمع حديثها في هديل الحمام ، وتشم أنفاسها عند الأصائل والأسحار .

ومن يدري لعل الشاعر العربي لم يكن يبكي حبيبته أو يرثى لعشها المهجور فقط ، بل كان يبكي من حيث لا يشعر ذلك الحظ التعس الذي مُني به هو أمثاله من البدو حين فرضت عليهم ضرورة الحياة ، ألا يزالوا متنقلين على رقعة الصحراء

(٨٦) أرحبى: نسبة إلى فحل لبني أرحب من همدات - الفرد: الثور المنفرد - اللياح : الأبيض .

(٨٧) يعز: يشتد - الخليع المقامر - القداح: سهام الميسر .



كانهم قطع الشطرنج ، تاركين في كل مكان فلذة من أكبادهم وقطعة من تاريخهم ، فهم دائماً غرباء وهم دائماً على سفر ، في اجتماع وافتراق ، ووصل وهجران ، مختارين حيناً ، ومكرهين أحياناً .

ولست أدري مدى ما يمكن أن يكون في قولنا من صواب ، إذا ذهبنا إلى أن ارتباط الرجل العربي بالمرأة من جهة وبالبيت من جهة أخرى أقوى مما نتصور . فلم يكن عبثاً أن يقول الله تعالى وهو العليم بسرائر خلقه « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » ويقول في آية أخرى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

إن الشيء الذي يمكن أن يهدينا إليه مجموع هاتين الآيتين هو أن المرأة تمثل في حياة العربي بعمامة والبدوى بخاصة عنصر الاستقرار النفسي والحسي الذي كان يود بجدع الآلف أن لو أدركه في بيئته المضطربة القلقة : ليس خباؤها هو المكان الوحيد الذي يأوى إليه من كل تلك الصحراء العريضة حين يفرغ من مشاكل البادية التي لا تنتهي فيصادف فيه نوعاً من الراحة والاطمئنان ، أليست الحياة دائماً في تجدد وتنكّر أمامه إلا وجهها ينظر إليه كلما دارت به الحياة ، فيدرك أنه لا يزال في يده شيء جوهرى من ماضيه العزيز يمكن أن يبنى عليه مستقبله ، ثم يستأنف رحلته في طريق الحياة الذي لا ينتهي إلا حيث ينتهي جميع الأحياء ، وهذا هو السر في تعلقه بها ، وحنينه إليها ، وربطه بينها وبين الديار ، ديارها أولاً ، وديار الجنس المشرد ثانياً وإذن فنحن نظلم العرب ، ونسئ إلى الشعر العربي ، حيناً نقول أن حب العربي للمرأة كان حب الجسد للجسد فقط ، فلو كان كذلك لما طال بهم الحنين إليها . فأشد الناس شغفا بالجسد أسرعهم نسياناً له حين يختنق عن نظره . ونظلم الحقيقة حيناً ندعى أن العرب أهانوا المرأة بتريد ذكرها في مطالع قصائدهم<sup>(٨٨)</sup> .

شغل العربي إذن بنفسه وعواطفه أول الأمر ، وكانت المرأة وديارها أهم تلك

---

(٨٨) الشعر الأندلسي ص ٥٧ .

العواطف وأكثرها جريانا على لسانه<sup>(٨٩)</sup> وقد حسن موقع أغانيه تلك من نفسه ومن نفوس السامعين ، وظهر تأثير الشعر على النفس البشرية ، فوجدت فيه القبيلة سلاحاً هاماً تدافع به عن نفسها في السلم والحرب ، واستعمله الشاعر رافعاً من شأنها ، واضعاً من شأن أعدائها ، وظل مع ذلك يبدأ بنفسه أول القصيدة ، متحدثاً كما كان يفعل من قبل عن مشاعره وعواطفه وأى خير فيه وفي شعره إن لم يكن له منه نصيب الأسد . بدأ الشاعر بنفسه اعتزازا بها وبعواطفها من جهة ، وجرياً على قديم عادته من جهة أخرى ، ولكنه مالبث أن أدرك بوضوح أن مثل هذا البدء يخدم غرضه الجديد<sup>(٩٠)</sup> من ناحيتين أولاهما أن يقوى انفعاله ، ويدكى شاعريته ، ويرضى شيطانه ، فيمده بكل جديد وعجيب من المعاني والأفكار .

ثانيهما : أنه يخدر السامعين ويسحرهم بتلك العواطف الإنسانية العامة التي يرى فيها السامع صورة من عواطفه ومغامراته ، فتأخذه هزة ونشوة تنسيه المنطق الجاف ، بل والوقار والتعقل ، وتجعله أداة طيعة في يد الشاعر يوجه بها كيفما شاء ، فإن كانت دعوته إلى حرب هب القوم إلى سلاحهم فلبسوه ، وإن كانت إلى سلم عادوا إليه فخلعوه .

وبما قدمنا من أن تأثير هذه المقدمات مزدوج يتناول الشاعر والمستمع كليهما ، يبدو ما في تحليل ابن قتيبة من قصور ، حيث يفهم منه أن المتأثر هو السامع فقط ، ومن أجله حيكت تلك المقدمات ، ولكي نزيد الأمر وضوحاً نضرب مثلاً بالمقدمات الموسيقية التي تُعزف بين يدي الأغاني عند إنشادها . أيتأثر بها الجمهور المستمع فقط أم يشاركه المعنى والمغنية ذلك الشعور؟ أكبر الظن أن جميع من شاهد المحافل الكبرى يؤكد معنا اهتزاز المغنين والمغنيات الشديد لتلك المقدمات مثل الجمهور تماما ، بل أكثر وأعمق من الجمهور . وأكبر الظن أنهم بدون تلك المقدمات قد لا يحسنون الغناء ، بل ولا يستطيعونه .

(٨٩) إن معلقة امرئ القيس صورة مكبرة لذلك النوع الذي لم يفكر فيه الشاعر فيما وراء نفسه ، ولم يشغل بما وراء عواطفه . وهذه المعلقة تعتبر فريدة من هذه الناحية بين بقية المعلقات التي لم تحل من غرض هام بجانب اللهو والمرح ولعل السبب في ذلك أن امرأ القيس أنشدتها في الفترة الأولى من حياته التي وهما للذة وللشيطان ، ولم يكن أثناءها يحمل بما سواها من أمور الحياة .  
(٩٠) العناية بشئون قبيلته .

على أن الظروف قد تجعل هذا الغزل ضرورة في بعض المواقف كما هو الحال في نقائض جرير والفرزدق فإن فيها كثيرا من السباب والترامى بالتهم وهذه الأمور يتقل على النفوس الأخذ فيها ابتداء ، وكأنتى بجرير حين يقول :

بكرت حامة أيكة محزونة تدعو الهديل فهيجت أشجاني  
لازلت في غلل يسرك نافع وظلال أملس وارف الأغصان

كأنتى به يحدّر الأعصاب ، ويستميل الأسماع حتى تتجاوز عما يمكن أن يأتي به بعد ذلك من إبداء للذوق العام بهجومه على عرض خصمه ، ونهشه للحمه (٩١) .

وتدخل الظروف أحيانا لتخرج أحاديث الدمن والأطلال عن دورها التقليدى وتجعل منها موضوعا حيا ، ومن أبرز النماذج في هذا الصدد معلقة عنترة العيسى ، حيث استغل المقدمة الغزلية في تأليف قلوب بنى ذبيان النافرة ، وذكرهم بما بينهم ، وبين أبناء عمهم العيسيين من روابط عاطفية ، وعلاقات إنسانية ، وذلك حين راح يبكى في إثر فتاة ربط الحب بين قلبها وقلبه برباط مقدس ، ثم جاءت الحزازات الشخصية لتمزق تلك القلوب الغضة دون رحمة أو إشفاق ، وذلك إذ يقول :

وتحلّ عبلة بالجِواء وأهلنا  
حلت بأرض الزائرین فأصبحت  
عسيرا على طلابك ابنة مَحْزَم (٩٢)  
عَلَّقَتْهَا عَرَضًا وَأَقْتَل قَوْمَهَا  
زَعَمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَرْعَم (٩٣)

(٩١) وفي هذا المعنى يقول ابن الرومي (ديوانه ١٣٥ ، تصنيف كيلاني)  
ألم تر أنتى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسييا  
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجالى محرقا يكوى القلوبا  
كصاعقة أنت فى إثر عيث وضحك البيض تتبعه النحيا  
بعى بالشر الأخر أن السيوف حين تلمع كالضاحكة فى الحروب تتسبب فى القتل ، وما ينعه من بكاء أهل الصحايا .

(٩٢) الزائرین: الأعداء أى بنو ديبان ، شهبهم بالأسود الرائرة ، وهذه خصومة شريفة .  
(٩٣) علقتها بالناء للمجهول: أحببتها ، عرضا: دون تفكير أو تدير سابق من جانبها أو جانبى ، وإنما نص على ذلك اتقاء للغيرة الشديدة عند العرب ، أو ليشير إلى عنف جمالها ، حيث يسلب الإرادة من أول نظرة . زعما =

وقريب من هذا قول الحرث بن حِلْزَة في مطلع معلقته :

أذنتنا ببيتها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء  
بعد عهد لنا بْبُرْقة شَمًا ء فأدنى ديارها الخَلْصاء  
فالمُحَيَّاة فالصَّفاح فأعنا ق فِتاق فعاذِبُ فالوفاء  
لا أرى من عَهْدت فيها فأبكي اليوم دَلْهًا وما يردُّ البكاء؟  
فتنوّرت نارها من بعيد بخزّارى هيات منك الصّلاء

أو قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

أقمرت من عبد شمس كداء فكُدَيّْ فالركن فالبطحاء  
فنى فالجار من عبد شمس مقفّرات فبلدح فحراء  
فالحيام التى يعسفان فالجحفة منهم فالقاع فالأبواء  
موحشات إلى تعاهن فالسقى قفار من عبد شمس خلاء  
قد أراهم وفى المواسم إذ يغدون حلم ونائل وبهاء

إلى أن قال :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء

فهذا الإسراف في ذكر الأماكن يدل على أن للشاعر غاية من ورائها أسمى وأعمق من المحافظة على بناء القصيدة ، وغرض ابن قيس الرقيات واضح فهو يتفجع على مجد قريش . ثم يوازن بين عبد شمس وحفدتهم الأمويين فيذكر أن الأوائل كانوا أبر بالحجار وأهله من الأواخر فهؤلاء جمعوا قريشا تحت لواء واحد وأولئك فرقوا كلمتها وضيعوا وحدتها ونقلوا الخلافة من الحجاز إلى الشام في أحضان القبائل اليمنية المنتشرة هناك .

فاستعراض الأماكن المذكورة هنا يراد به إثارة الماضي حيث يمثل كل مكان مجموعة من الذكريات العزيزة على نفس كل حجازى وقرشى فهو أشبه بتلك المناظر

= لعمريك النخ: أى إن حبي لها . وطمعى في وصلها رغم ما بين أهل وأهلها من حروب خرافة حالم وهذيان  
محموم

التي تمر بخيال الخالم كلما عاد بذاكرته إلى الماضي . أو بلغة العصر الحاضر هو أشبه بتلك الصور والمناظر التي يقحمها مخرجون من رجال الخيالة فيما بين أيديهم من قصص فيقطعون بها سير الحوادث كلما أرادوا العودة بأبطال القصة والنظارة معهم إلى ماض بعيد ،

وأكبر الظن أن الحرث بن حلزة لم يكن مشغولاً أثناء تعداده لهذه الأماكن بحبيته أسماء رغم الربط الظاهري بينها وبين تلك الديار ، بل كان مشغولاً بقومه وقبيلته . ولعله كابن قيس الرقيات كان يشير إلى ما مضى من زمن كانت تغلب وبكر فيه أخوين متواصلين غير متقاطعين ، متقارنين غير متدابرين ، ويؤكد هذا قوله يعقب ذلك :

لا أرى من عهدت فيها فأبكي  
اليوم دُلهاً وما يفيد البكاء

فإن اللاشعور قد فضحه في هذا البيت أراد أم لم يرد (٩٤) .

هذا ما كان من شأن المرأة وما يتصل بها من دمن وأطلال . والآن ما شأن الناقة والصحراء والرحلة والأسفار ؟ لقد رأينا صورة من ذلك في شعر الأعشى وجريز ، واتخذنا منه نموذجاً للمتكسبين بأشعارهم . فماذا كان موقف الناقة قبل أن يصير الشعر مطية لكسب المال ؟

أخطرت في شعر الأوائل من الجاهليين ، وما كان الغرض من ذكرها مع أنهم لم يكونوا إذ ذاك أمام سادة يمدحونهم ، ويعرضون لهم بما تحملوه في سبيل الظفر برؤيتهم من مشاق وأهوال ؟ وجواب ذلك أن أحاديث الناقة والضرب بها في عرض الصحراء وكبد البادية قد ورد كثيراً في شعر الجاهليين الأوائل على أنه نوع من تلك المغامرات الحبيبة إلى نفوسهم . فهم يستعدون بذكر الناقة والصحراء عصر المخاطرة

---

(٩٤) ذكر الدكتور عبد الله الطيب الأستاذ بجامعة الخرطوم في محاضرة له بجامعة مانستر أن حلزة لم يكن يبكي فراق تغلب ، بل يبدي سعادته برحيلها ، معتمداً على قوله «رب نأو ميل منه الثواء» ونحن نرى أن هذه العبارة تحتمل تفسيرات كثيرة ، منها مثلاً «لعل أسماء لسؤ حطنا قد ملت الثواء قريبا ما»

والشباب الذى تركوه وراء ظهورهم . وهو لذلك جزء مكمل لما بدأه الشاعر من الحديث عن عواطفه وذكرياته أثناء الحديث عن المرأة . وهذا هو السبب فى أن مالك بن الريب وقد حضرته الوفاة بمرور بعيداً عن دياره بجزيرة العرب قد لخص أمانيه من الحياة فى بيتين (٩٥) :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة  
بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا (٩٦)  
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه  
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا  
ومثله قول جميل بثينة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة  
بوادى القرى إني إذن لسعيد (٩٧)  
وهل أزجرن حرفاً علاة شِمْلة  
بجرق تباريها سواهم قود (٩٨)  
على ظهر مرهوب كأن نشوزه  
إذا جاز هُلاك الطريق رقود (٩٩)  
وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها  
لها بالشنايا القاويات وثيد (١٠٠)

والتأمل فى شعر الأوائل من الجاهليين يدرك صدق ما قدّمناه ألا ترى طرفة مثلاً

(٩٥) ذيل الأمل ١٣٥

(٩٦) أزجى القلاص النواجيا . أسوق الأبل السريعة

(٩٧) الأمل ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٩٨) حرف: ناقة ضامرة - العلاة: الناقة المشرفة - الشملة السريعة - الحرق: الغضاء الواسع - سواهم

ساحمة بمعنى ضامرة - قود: طبيعة ، منقادة: جمع قوداء ، كسود وسوداء

(٩٩) نشوره: جمع نشز (فتح الشين وسكونها) وهو المكان المرتفع عما حوله - هلاك الطريق: المسافرون

سلك لهلك فيه ، أى أقطع هذه الناقة طريقاً تبدو ونشوره حين أمرها وكأنها قوم يام .

(١٠٠) الثنايا: المعطيات - القاويات: الحالبات - وثيد صوت .

يعود في قصيدته الرائية بعد أن فرغ من التشيب حبيته هو :

وبلا زَعِلَ ظِلْمَانَهَا  
كالمخاض الجرب في اليوم الحذر<sup>(١٠١)</sup>  
قد تبطن وتختي جسة  
تتقى الأرض بملثوم<sup>(١٠٢)</sup> معر  
فترى المرو إذا ما هجرت  
عن يديها كالفراش المشفتر<sup>(١٠٣)</sup>  
ذاك عصر وعَدَانِي إِنِّي  
نابئى اليوم خطوب غير سر  
من أمور حدثت أمثالها  
تبتري عود القوى المستمر<sup>(١٠٤)</sup>

أُلتست ترى أن البيتين الأخيرين يمكن أن يبسطا على النحو التالى : تلك أيام  
عذبة جميلة مضت لسيلها ولن تعود ، فقد حلّ في اليوم من هموم الحياة ومشاغلها  
ما حال بينى وبين المتعة والأسفار ، ويروى ذكر الرواحل مقترناً باللهو والهوى  
والشباب في قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة  
وعرّى أفراس الصبا ورواحله<sup>(١٠٥)</sup>

على أن امرأ القيس قد قطع كل جدل حول هذا الموضوع بأبياته التي عدد فيها  
هوايته في الحياة وجعل الضرب بالعيس في مناكب الأرض لإحداها ، وذلك إذ  
يقول :

---

(١٠١) ديوانه . زعل : نشيط - ظلمان . جمع طليم وهو الذكر من النعام - المخاض : الحوامل من البوق  
الحذر : الشديد البرد .

(١٠٢) تبطن : صرت في بطنها أى جست خلالها - حسرة : ناقة عظيمة - معر : ذهب شعره

(١٠٣) المرو : الحجارة البيض - هجرت : سارت وقت الهجرة - المشفتر : المتفرق .

(١٠٤) المستمر : ماض في شأنه لا يضعف ولا يلين .

(١٠٥) ديوانه ( المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣هـ ) ص ٢٦ .

فأصبحت ودعت الصبا غير أننى  
أراقب خللات من العيش أربعا (١٠٦)  
فمن فولى للسندامى ترفقوا  
يداجون نشاجاً من الخمر مترعاً  
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا  
يبادرن سربا آمنا أن يفضعا  
ومنهن نص العيس والليل شامل  
ييمن مجهولا من الأرض بلقعا (١٠٧)  
خوارج من بريّة نحو قرية  
يجدّدن وصلا أو يرجّين مطمعا

ومازال منظر الإبل وقوافلها يسحر الشاعر الأموى كما كان يسحر سلفه في  
الجاهلية فترى كثير عزة في معرض قسمة لها يرسم لنا لوحة بديعة لقافلة من الإبل  
تسير بالحجيج إلى مكة رسماً يدل على رقة ومشاركة وجدانية فيقول :

حلفت برب الراقصات إلى منى  
خلال الملا يمددن كل جديد (١٠٨)  
تراها رفاقا بينهن تفاوت  
ويمددن بالأهلال كل أصيل (١٠٩)  
تواهقن بالحجاج من بطن نخلة  
ومن عزور والحبت حبت طفيل (١١٠)

(١٠٦) ديوانه ص ١١٢ .

(١٠٧) العيس . الأبل - نصها سوقها .

(١٠٨) الأمل ج ٢ ص ٦٣ الراقصات : اللون لأنها تهتز في سيرها كأنها ترقص - الملا : الفضاء - الجديد :  
الرمام لأنه مجدول أى ممتول .

(١٠٩) الأهلال : قول ( لا إله إلا الله ) لعلمه يريد أن هذا الأهلال يفعل فيها فعل الحذاء فتسرع في سيرها  
وقت الأصيل .

(١١٠) تواهقن . تبارين - بطن نخلة ، عزور ، حبت طفيل أماكن بعينها .



بكل حرام خاشع متوجه  
إلى الله يدعوه بكل ثقيل (١١١)  
على كل مدعان الرواح معيدة  
ومخشية ألا تعيد هزيل (١١٢)  
شوامذ قد ارتجن دون أجنة  
وهوج تبارى في الأزمة حول (١١٣)

وأخيراً أليست الناقاة شريكة العربى فى مسراته وأحزانه ومعوانه على بلوغ مآربه  
وإمضاء همومه . وبذا قويت الرابطة بينهما حتى ليكاد يناجيهما بخلجات نفسه  
وتناجيه . استمع إلى قول عروة بن حزام ، وقد ترك اليمن خلفه واتجه نحو العراق فى  
طلب حبيته وابنة عمه ، ثم انظر كيف يمزج بين عواطفه وعواطف ناقتة ، إن صح  
أن للنوق عواطف وأهواء .

هوى ناقتى خلنى وقُدَّامى  
وأنى وإياها لختلفان  
هواى عرافى وتثنى زمامها  
لبرق إذا لاح النجوم بمان  
من تجمعى شوق وشوقك تظلمى  
ومالك بالعبء الثقيل يدان (١١٤)

---

(١١١) الثقيل : الطريق .

(١١٢) المدعان : المذلة - معيدة : عاودت السير .

(١١٣) الشوامذ : الشانلات الأذئاب - حول جمع حائل وهى التى لاتلتفح .

(١١٤) ظلع البعير غمز فى مشيه لداء فى قوائمه .



## الباب الثاني

### في صدر الإسلام ، وعصر بني أمية

ويتكون من فصلين ، أولهما في أسباب جمود الشعر في العصرين المشار إليهما  
آنفا ، وثانيهما في مظاهر ذلك الجمود في العصر الأموي

### الفصل الأول

في صدر الإسلام :

إن الشعر مثل غيره من الفنون والآداب يركد ويكسد حين تركز الحياة ، ويخطو  
إلى الأمام حين تتطور الحياة وتتجدد بما يطرأ عليها من أحداث داخلية ، أو اتصالات  
خارجية .

فلنتظر إلى الإسلام ، أيمن أن يسمى حدثاً هاماً ؟ الذي لا شك أنه لم يكن  
حدثاً وكفى ، بل ثورة ، بيضاء هادئة ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، حمراء صارمة ما  
أعوزها الصبر ، وأعيتها الحيل ، ثورة على الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، والأنظمة  
السياسية البالية ، والخرافات الدينية المزرية .

لم تكن ثورة هوجاء أو عمياء ، بل ثورة متعلقة لها فلسفتها العملية والنظرية ومن  
خلفها كتاب مقدس يمثل أعظم ثورة أدبية أعلنها كتاب من الكتب في أية لغة من  
اللغات . فأين أثر ذلك جميعه أو بعضه في الشعر العربي ؟ إننا ننظر هنا وهناك فلا  
نرى شيئاً ، اللهم إلا مفردات أو شبه مفردات اقتبسها من القرآن حسان وإخوانه  
من شعراء الرسول ﷺ في ردودهم على شعراء قريش ، ردود لا تكاد تختلف عن

المهجاء الجاهلى فى قليل ولا كثير. فأين الإسلام وتسامحه ، وأين صرخاته المدوية فى سبيل العدل والمساواة ، ألم يأخذ كل ذلك طريقه إلى شعراء الصدر الأول للإسلام ؟ بل أين تأثر الشعر العربى بالقرآن من حيث الأسلوب والمعنى ، أسئلة كثيرة سنحاول الإجابة عليها فيما يلى :

لم تكن العداوة بين الدعوة الإسلامية والشعر سرّاً خافياً ، فقد كان الشعراء شديدي الوطأة على الرسول ﷺ ، آذوه فى شخصه وفى أهله ، وفى دعوته وكان يود مخلصاً لو هادنهم وهادنوه . ولذا بادر بإطلاق سراح أبى عزة الجمحى عندما وقع أسيراً فى يده يوم بدر دون فدية أو أذى ولكنهم أبوا إلا على أن يحتضنوا قضية الباطل فى تممس وإخلاص . ومع أن مؤرخى الأدب ورواته قد تخرجوا<sup>(١)</sup> من تدوين تلك المهجمات الشعرية التى شنّها القرشيون على الرسول وصحبه ، فإننا لا نشك فى أنها كانت لاذعة ومقذعة وإلا استحل الرسول وهو الرؤوف الرحيم دماءهم ، وأعلنها حرباً عليهم لا هوداة فيها ولا مهادنة فمنهم من قتل ومنهم من ألقى السلاح ، ورمى بنفسه بين قدمى الرسول عائداً تائباً .

ولم يتخلف القرآن عن تلك الحرب فهاجم الشعراء فى أكثر من موضوع وقد رسم للشعر دستوراً لا يعتداه وحداً لا يتخطاه فى قوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وظاهر الآية أن الشعر بجميع أنواعه وألوانه غير مرغوب فيه إلا إذا جرى فى ركاب الدعوة الجديدة . وقد تقيد الصحابة بتلك الآية حرفياً ، فأقسم لبيد ألا يقول شعراً ووقف الباقون مواهبهم على خدمة الدعوة برد هجمات قريش ؛ حتى إذا وضعت الحرب الأدبية بين قريش والرسول أوزارها لاذوا بالصمت . وهكذا

(١) من العجب أن القرآن نفسه لم يجد بأساً فى الإشارة إلى بعض ما ينسبه المشركون إلى الرسول من الجنون والسحر والافتراء وعدم الانجاب . وبهذا صار الرواة ملكيين أكثر من الملك ، وضاعت تلك الآثار ، والويل للمغلوب .

خمدت أنفاس الشعر في مكة والمدينة واضطربت قوائم عرشه في باقي الجزيرة العربية . ولعل ، الحطيئة خير من يمثل محنة الشعراء في تلك الفترة . فقد كان الشعر مرتزقة وصناعته ، أعداؤها نفسه إعداداً كاملاً ، فلما جاء الإسلام شغل الناس عنه وعن شعره بالدعوة الجديدة ، وبكتابتها الذي فاق الشعر حتى كاد يكون سحراً ، فصبر مغيضاً محققاً ، حتى إذا قامت فتنة المرتدين خب فيها ووضع ، وود أن لو عادت جذعة حتى يستعيد هو وأمثاله مجدهم السالف وسلطانهم الغابر ، وقد حفظ لنا التاريخ شيئاً من شعره في ذلك الصدد وفيه يقول :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا      فيالعباد الله ما لأبي بكر  
أيورها بكراً إذا مات بعده      لتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وفى المرتدون إلى ظل الإسلام الوريث ، ويعود الحطيئة معهم وعباءة الجاهلية فوق كتفيه ، وقوافيه المسمومة تطاير هنا وهناك تطاير المريش من السهام ؛ فيضطر عمر بن الخطاب إلى إلقائه في السجن ، وتهديده بقطع لسانه حتى يكف عن الناس (٢) .

ولعل روح الدين الجديد الذي ينهى عن التعظم بالآباء ، ومحرم الخمر ، وينفر من التعرض لأحساب الناس بالهجاء ، وأعراضهم بالتشبيب - لعل كل ذلك كان سبباً في ضعف الشعر العربي بضعف الدوافع إليه . وإلا فإذا يقول الشعراء في مدائحهم وقد صار أبو هريرة وابن مسعود وبلال وغيرهم من المغمورين أكرم على الله وعلى الناس ، بفضل تقواهم من صنديد قريش وقادة العرب . ثم في أي شيء يخوض الشعراء ، وقد حرمت أهم الموضوعات التي تثير الشعور وتعين عليه ، من شرب وغزل وهجاء ونحوه ، وإذا كان الحطيئة قد زار السجن بسبب الهجاء ، فإن أبا محجن الثقفي قد زاره أيضاً في سبيل الخمر (٣) ؛ كما عزل نعيان بن عدى عامل على البصرة بأبيات قالها فيها (٤) .

(٢) تهذيب الكامل - ٢ - ج - ص ١١٠

(٣) عمر بن أبي ربيعة ص ١٦٨ .

(٤) عمر بن أبي ربيعة ص ٦٦ ومن قوله فيها:

مس مبلغ الحسناء أن حليلها      بميسان يستى في زجاج وحتم =

ولقائل أن يقول : فما بال الشعراء لم يتجهوا إلى الحديث عن المبادئ التي جاء بها الإسلام ، من زهد في الدنيا ، وعمل للآخرة وجهاد في سبيل الله ؟ والجواب على ذلك يتطلب الإلمام بعدة حقائق .

أولاً : أن المسلمين في الصدر الأول للإسلام كانوا على العمل أحرص منهم على القول . ولذا كانوا يرضون عواطفهم الدينية عن طريق الأول لا الثاني . وكانت فرص العمل أمامهم كثيرة بسبب الفتوح والغزوات .

ثانياً : أن سلطان الكتاب الجديد على نفوسهم كان أقوى من أن يدع لهم فرصة للتفكير في سواء وماذا كان ينقص القرآن في لغته وأسلوبه أو معانيه وأهدافه حتى يطلبوه في سواء ؟ ألم تقل عنه قريش : إنه سحر حيناً ، وشعر أحياناً . إذن فبحسب المسلم أن يتلوه آثناء الليل وأطراف النهار ، وله على تلاوته أجر كأجر الصلاة والصيام .

ثالثاً : إن لغة القرآن كانت مقدّسة ومعجزة ، ولعل الجليل الأول من المسلمين قد ظنّوا أن مجرد التفكير في محاسنها ، أو النسخ على منوالها يعد تحدياً لقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » إذا عرفت كل ذلك أدركت لماذا صمت الشعراء ، وجمد الدم في شرايين الشعر ثم أدركت بعد هذا لماذا لم يتردد صدى الثورة الإسلامية ، وروحها العالية في الشعر وأخيراً أدركت لماذا لم يحاول المسلمون محاكاة أسلوب القرآن بما فيه من محسنات بديعية مختلفة وخصائص أخرى ليس هذا مكان تفصيلها .

---

= إذا شئت غتني دهاقين قرية وصناجة تجذو على كل مسه  
إذا كنت ندماني فبا لأكبر اسقى ولا تسنى بالأغر المتشلم  
لعل أمير المؤمنين يسوءه تسنادمنا بالجوسق المتهدم  
فلم بلغ عمر ذلك قال : أي والله إنه ليسؤني ذلك ، وعزله .

## « العصر الأموى »

عرفنا أن الصبغة الغالبة على الشعر العربى فى صدر الإسلام كانت الصمت أو ص . يشبه الصمت . سمه توقفاً عن الحياة والحركة ، أو جموداً أو ما تشاء من الأسماء . ولكن ذاك العصر قد انتهى وانتهت معه الظروف التى أدت إلى شحوب ضوء الشعر - فالناس لا ينظرون إلى الشعر على أنه رجس من عمل الشيطان ، ثم هم لا يقفون طويلاً عند آيات القرآن ليروا ما تأمر به أو تنهى عنه<sup>(٥)</sup> . وقامت أحزاب سياسية مختلفة من شيعة وزيريين وأمويين وخوارج . ووصل المسلمون فى الغرب إلى جبال البرانس وفى الشرق إلى الهند والصين وفى الشمال إلى أبواب القسطنطينية وسيطرت أساطيلهم على جزء كبير من مياه البحر الأبيض . واختلطوا بكثير من الشعوب والأجناس . وبالإجمال صارت لهم إمبراطورية بكل ما تتحمله هذه الكلمة من معان وأخيلة فأين كان الشعر العربى من كل ذلك أما زال يغط فى ذلك السبات العميق الذى سكن إليه خلال الصدر الأول للإسلام أم نهض منه ؟ وسؤال أشد من هذا أهمية ، وأكثر مناسبة لبحثنا<sup>(٦)</sup> . إلى أى شطر ولى الشعر وجهه أثناء تلك الحقيقة ؟ كان الشعر العربى إذ ذاك يقف فى مفترق الطرق . فكان يستطيع أن يأخذ عن الدول التى فتحتها ، وبعضها كان أعرق حضارة من العرب ، وكان يستطيع أن يأخذ عن الدعوة الإسلامية وكتابها ، وقد كان يستطيع أشياء أخرى كثيرة إلى جانب ذلك ولكنه أثر أن يثب وثبة طويلة إلى الوراء فيعود إلى الشعر الجاهلى ينسج على منواله ، ويجرى فى ركابه بم تسمى مثل هذه الحركة إذن ؟ أنسميها جموداً لأنها إلى الوراء ، ولأن الشعر فيها جمد عند أصوله الأولى ، أم نسميها تقليداً لأنه أولع بتقليد الماضى تترك لك الخيار مرة أخرى فى أن تسميها بأحب الأسماء إليك ، وأعذبها وقعا فى آذان القارئين إلا التطور .

(٥) الإشارة هنا إلى قول الله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاؤون »

(٦) لأننا نبحت هنا عن تطور الشعر واتجاهاته لاقوته وضعفه .

فإن كنت لا محالة فاعل فلي معك حديث أرجو ألا يطول : وكأني بك تنسبني إلى الغلط أو المغالطة فيما أدعيه من تشابه تام أو شبيهه بالتام بين الأمويين والجاهليين ، نتيجة لتقليد هؤلاء لأولئك . وأنا أعلم أن كتابا فيما قد ألف في هذا الموضوع<sup>(٧)</sup> وأن صاحبه قد أنفق كثيراً من وقته كي يقنعنا بأن تطوراً خطيراً قد أصاب الشعر العربي أثناء ذلك العصر ، ولكن ماذا أجدها ذلك المجهود الجبار ، والجبروت لا يغني شيئاً ما دامت القضية من أساسها خاسرة .

لقد قيل لنا إن نقائص جرير مع الفرزدق والأخطل كانت بدعاً من الشعر ومن الهجاء وأن مثل ذلك أو قريباً منه يمكن بل ينبغي أن يقال في غزل عمر بن أبي ربيعة ، وحديث ذى الرمة عن البادية ، واحتجاج الكمي لآل البيت ، ونحن نعتقد أن في مثل هذا القول مخالفة كبيرة ، لا لرأى السابقين من النقاد فقط بل للشعر الأموي نفسه ، حيث لا ترى فارقا كبيراً بينه وبين شعر الجاهليين .

ولا نقول هذا لأننا ننكر إنكاراً تاماً أن هناك فروقا بين شعراء العهد الأموي وأسلافهم من الجاهليين ، وكيف يمكن هذا والحياة والأحياء في حركة دائبة مستمرة . ولكن الذي نحب أي ننبه إليه هو أن تلك الفروق يسيرة وهينة بحيث لا ينبغي أن تسمى تطوراً في الشعر العربي . وإنما كانت هينة لأنها لا تمس أحد الأصول التي يقوم عليها الشعر الجاهلي والتي أشرنا إليها من قبل .

والرأى الذي يمكن في ضوءه تحديد ما بيننا وبين غيرنا من تقارب أو تباعد في هذا الصدد هو أن الشعر العربي بعدما ثبتت أصوله في العصر الجاهلي كان جديراً كأى كائن حتى أن يتطور رويداً ، وأن يلائم دائماً بين منهجه وبين الظروف التي مر بها . ولكن عوامل خارجية كانت تتدخل من حين لآخر ، لوقف هذا التطور أو تعويقه كما حدث في صدر الإسلام وفي العصر الأموي أو لإذكاء روح التجديد والتطور كما تم في عهد بني العباس .

هذه كلمة عامة أحببنا أن نتهّد بها لحديثنا عن العصر الأموي ولو بقي أمامنا

أمران :

(٧) التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوقي ضيف .



أما أولها : فيبان الأسباب التي جعلت شعراء هذا العصر يترسمون خطا  
الجاهليين .

وأما ثانيها : فيبان مظاهر وأمثلة ذلك التشابه في أشعارهم .  
وسنبداً بالأول منها .

### لماذا اتجه شعراء ذلك العصر

#### إلى الشعر الجاهلي

« من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل بيت أبي سيفان فهو آمن » بمثل هذا  
التكريم حاول الرسول ﷺ أن يتألف قلوب بني أمية النافرة ، وإنما نفرت لأنها  
كانت تعتقد أن ظهور أمر محمد سينال من ذلك المجد الذي أحرزوه في أواخر العهد  
الجاهلي .

ودخل بنو أمية الإسلام حين دخل الرسول مكة فاتحاً ، أى أسلموا حين لم يكن  
من الإسلام بد ، وخضعوا لما خضع له بقية المسلمين من سيطرة عمر وأبي بكر  
راغمين ، حتى ولي عثمان الأمر وهو منهم ، وإن كان خيرهم ، وثبوا إلى السلطة  
فشاركوه فيها ، وبذلك استردوا بعض ما كان لهم من سلطان في الجاهلية . وحين  
قتل عثمان كشفوا القناع عن حقيقة نواياهم وما قصة المطالبة بدمه إلا سلماً ارتقاه  
معاوية إلى مآربه وأطاعه ، وما حرب الجمل وصفين وتقسيم صفوف المسلمين إلا  
ثمرة من ثمار تلك الأطماع . أطماع لم يبق فيها معاوية على روح الإسلام إلا بقدر ما  
أبقى به عليها خلفاؤه من بعده حين أباحوا المدينة ، وحرقوا الكعبة .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر  
وكان محمداً لم يقف على منبرها منذ قليل داعياً إلى الأخوة والتسامح .

وإن دل كل هذا على شيء فعلى أن روح الإسلام لم تكن قد تغلغت في قلوب  
كثير ممن استظلوا بظله ، أو ساروا تحت لوائه . وبنو أمية دون شك من هؤلاء

الكثيرين . وكان معاوية بن أبي سفيان يمثل في كثير من تصرفاته شيوخ القبائل أكثر مما يمثل الخليفة الإسلامي الدّارس لأحكام الدين ، الواقف عند حدوده فهو يجمع الأنصار حوله على حساب بيت مال المسلمين . ويتصرف فيه كما يتصرف في ماله الخاص . وهو يسارع إلى التخلص من أعدائه السياسيين بالقتل ، وإن أعوزه الدليل على استحقاقهم له<sup>(٨)</sup> وهو يورث ابنه يزيد الملك بعد مسرحية سياسية تذكرنا بمسرحية التحكيم وبطلها عمرو بن العاص . لم يتعمق الإسلام إذن قلوب بني أمية . ومازال بها بقية من جاهلية ، والذي يهنا هو صدى تلك الروح الجاهلية في أذواقهم الأدبية ، فقد جعلتهم دائماً تمحن إلى الشعر الجاهلي ، وتعود إليه من وقت لآخر لكي تجد فيه مثلها العليا في الشجاعة والكرم وما إليها ، وسيرتهم تؤيد ذلك وتؤكد . قال عبد الملك يوماً لجلسائه أى المناديل أفضل ؟ فقال قائل مناديل مصر كأنها غرقى البيض . وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع فقال : بل مناديل عبدة بن الطيب حيث يقول<sup>(٩)</sup> :

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية وقار للقوم باللحم المراجيل  
 وورد وأشقر ما يأنيه طابخه ماغيّر الغلى منه فهو مأكول<sup>(١٠)</sup>  
 نمة قننا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل<sup>(١١)</sup>

لم يكن عبد الملك إذن مترفا يفكر في مناديل مصر أو غيرها وإنما كان فارسا محاربا يعيش بين مظاهر الحرب والقروسية بشخصه حيناً ، وبخياله وتفكيره أحياناً ، وهو بعد ذلك بدوى يحب البساطة فيحن إلى ظلال الخيام ويهوى الصيد والتهام اللحم على عادة البدو نيثاً أو كالتى<sup>(١٢)</sup> .

ويمدحه عبيد الله بن قيس الرقيات فيقول .

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

(٨) من ذلك قتل حجر بن عدى وصحبه تاريخ الفتح الإسلامي للأستاذ فخر الدين ص ٩١  
 (٩) تهذيب الكامل ج - ١ - ص ٣٠٤ .  
 (١٠) أنى يأتى كرمى يرمى : أمهل وانتظر .  
 (١١) ثم وثمة بفتح المثلثة اسم مكان معنى هنا وهماك .  
 (١٢) طعام نىء على وزن نيل : لم ينضج .

فيعرض عبد الملك قائلاً :

تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء !  
لم يكن عبد الملك إذن يريد أن يكون صورة من كسرى أو قيصر رغم عظم ملكهم وقدم حضارتهم فأين كان يجد مثله الأعلى ؟ إن موقفه مع كثير عزة يجب عن ذلك السؤال ، فقد أخذ يوماً بمدحه حتى إذا وصل إلى قوله

على ابن أبى العاصى دلاص متينة أجاد المسدئى نسجها فأذالها  
قال عبد الملك : كان الأعشى خيراً منك حين قال فى قيس بن معدى كرب .

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدار عون نزالها  
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلماً أبطالها

فقال كثير : وصف الأعشى صاحبه يأمر المؤمنين بالخرق ، ووصفتك بالحزم<sup>(١٣)</sup> ولم يعلم كثير أن ممدوحه لم يكن يبالى أكان أخرق أم حازماً ، مادام الشعراء يخلعون عليه نفس تلك الصفات البدوية التى خلعوها من قبل على أبطال الجاهلية فأعجب بها أيما إعجاب وتاقت نفسه إلى أن يمدح بمثلها ، ومن أجل ذلك جاهد وخطار وقاتل وقوتل .

وما قيل فى عبد الملك يمكن أن يقال فى الحجاج بن يوسف وغيره من ولاة الأقاليم ، ورؤساء الدولة . بل لعل الحجاج وأشباهه كانوا أشد جهالة من الجاهليين أنفسهم وما أظن أن كليبا وتأبط شراً أو سواهما من طغاة الجاهلية وذؤبانها حين ولى العراق فى خطبته المشهورة<sup>(١٤)</sup> .

وقد مدحته يوماً ليلى الأخيلية فقالت .

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائماً فشفأها

(١٣) نقد الشعر لقدامه بن جعفر ص ٢٢ .

(١٤) نعى تلك التى بدأها بقوله :

أنا اسن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها  
فقال لها : هلا قلت همام . أتبصر الروح الجاهلية من ثنايا تلك المراجعة إنه  
لا يريد أن تلين لغة الشعر أو تتكسر ، ولذا يبادر بتقويم الشعراء كلما بدرت منهم  
بادرة فى ذلك الاتجاه ، ولسنا بذلك نحاول أن نحمل رجل الدولة الأموية أوزار  
ذلك العصر ، ولا أن نلقى عليهم وحدهم ما كان فيه من ثبوت الشعر العربى على  
الأسس التى أرسل عليها الجاهليون بنيانه . وكل ما نود أن نقوله هنا : أن لهم نصيبهم  
الموفور وحققهم المعلوم من هذه التبعة وتلك الأوزار ، فالملوك وأنصاف الملوك  
كالسوق يحمل إليها الناس ما يروج فيها من بضاعة ، وأى غرابة فى ذلك ؟ ألم يكن  
الشعر إذ ذاك سلعة تباع وتشترى ، فلماذا لا يتحرى فيها الشعراء رضا المشتريين ؟  
وسترى حينما نعرض للشق<sup>(١٥)</sup> الثانى من هذا البحث مدى التشابه بين شعر هذا  
العصر والعصور السابقة .

على أننا نحسن الظن بشعراء هذه الفترة حينما ندعى أنهم كانوا بحاجة إلى من  
يشجعهم على أن يتخذوا مثلهم العليا من حياة الجاهليين ، أو ينسجوا على منوالهم فى  
أشعارهم فلسنا ندرى إلى أى حد ، أخلصت القبائل البدوية - وهم معظم  
العرب - للإسلام حينما علقت شارته على صدورهم ولكن الذى نعلمه يقينا أن  
الرسول ألف قلوبهم بالمال حتى أسخط فريقا من الصحابة . وأن الله تعالى يقول فيهم  
«الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم  
حكيم ومن الأعراب من يتخذ ما يفتق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة  
السوء والله سميع عليم» ولا تكاد الآية الكريمة تستثنى من أهل الجزيرة العربية إلا  
سكان المدن الثلاث مكة والمدينة والطائف<sup>(١٦)</sup> وقد صدقتها الحوادث حيث ارتدت  
جميع القبائل العربية تقريباً عدا تلك المدن . على أن بعض القبائل رأت نفسها فى  
غير حاجة إلى المسالمة كقبيلة تغلب التى اعترت بقوتها فرفضت الخضوع للإسلام ،  
وبقت على جاهليتها الأولى قلباً وقالباً ، ولنسأل أنفسنا عن كبار الشعراء فى ذلك

(١٥) مدى مظاهر التشابه بين الشعر الأموى والجاهلى

(١٦) الأعراب معناها البدو أو سكان البادية .

العصر ، أهم الأخطل وجرير والفرزدق ؟ إن الأول منهم لم يزر الإسلام قلبه ، إلا بقدر مازار الأعشى أو طرفة أو غيرها من شعراء الجاهلية . أما الأخير فقد أوتسك الإسلام أن يمس قلبه يوماً من الأيام ، فحبس نفسه على القرآن يحفظه ، ولكنه ما كاد يعلم أن جريراً علا صوته في هجاء قومه حتى قرّ من سجنه ، ولم يعد إليه حتى مات .

وبعد فقد كان أخذ الأمويين عن الجاهليين أمراً طبعياً ، فهم يرون نموذجاً يحتذونه ، وقد عجز شعراء الإسلام عن أن يتدعوا لأنفسهم نوعاً جديداً من الشعر يستمدون من الدين روحه ، ومن كتابه لغته وأسلوبه ، بل عجزوا عن أن يتركوا في الشعر أثراً يذكر إذا ذكرت الآثار . فلم يبق أمام الشعراء الأمويين إذن سوى الشعر الجاهلي يمدون أبصارهم إليه ، ويسيروا على ضوئه وهداه . أما الفتوح الأجنبية والاتصالات الخارجية ، فما كان لنا أن نتوقع منها أية مساعدة في ذلك الاتجاه .

حيث كانت آثارها لاتزال محصورة في الناحية الحربية والإدارية ، فإن تجاوزت ذلك قليلاً فإلى إقامة شعائر الدين وتدارس كتابه ، وحديث رسوله . أما فلسفة الإغريق وأدب الفرس والهنود فلم يكن قد وجد طريقة إلى اللغة العربية إذ ذاك وهكذا بقي الشعر الجاهلي وحده في الميدان بلغته ومعانيه ، أو بعبارة أخرى بعناصره التي أشرنا إليها .

## الفصل الثاني

ويبحث كما ذكرنا من قبل في مظاهر جمود الشعر خلال العصر الأموي وإنما لم نفعّل مثل ذلك بعصر صدر الإسلام ، لأن حركة الشعر قد توقفت فيه تقريبا . ويشتمل هذا الفصل على ثلاث وسائل نتوسل بها إلى إبراز وجه الشبه بين الشعراء الأموي والجاهلي ، في الأولى منها نورد نصا أمويا ونوازن بينه ، وبين أخيه الجاهلي ، وفي الثانية والثالثة نقيم البراهين على أن النقائص والغزل في العصر الأموي كانا امتدادا لأشباههما في الجاهلي . وإليك الآن النص الأموي ، وليكن قول جرير مادحا عبد الملك بن مروان :

أتصحو أم فؤادك غير صاح	عشية همّ صحبك بالروح <sup>(١)</sup>
يقول العاذلات علاك شيب	أهذا الشيب يمنغى مراحي
يكلّفني فؤادي من هواه	ظعائن يجتّر عن على رماح
ظعائن لم يدنّ مع النصاري	ولا يدرين ما سمك القراح
وبعض الماء ماء رباب مزن	وبعض الماء من سبّخ ملاح
سيكفيك العواذل أرحى <sup>٢</sup>	هجان اللون كالفرد اللّياح <sup>(٢)</sup>
يعزّز على الطريق بمنكيه	كما ابتك الخليج على القداح <sup>(٣)</sup>
تعزّت أم حزرة ثم قالت	رأيت الواردين ذوى امتناح
تقى بالله ليس له شريك	ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن رددت عليّ ريشي	وأنت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح

(١) ديوانه ص ٩٦ .

(٢) الأرحى نسبة إلى أرحب من همدان - هجان اللون أبيض اللون الفرد اللّياح . الثور الأبيض

(٣) بزز : يسرع ويشتد - الخليج : المقامر .

وقوم قد سموت لهم فدانوا  
 أبدحت حمى تهامة بعد نجد  
 لكم شم الجبال من الرواسي  
 دعوت الملحدين أبا خبيب  
 فقد وجدوا الخليفة هيرزياً  
 فما شجرات عصيك في قریش  
 بدُّهم في مُلَمِّمة رَداح<sup>(٤)</sup>  
 وما شئ حميت بمسبح  
 ومعظم سيل مُعتلج البطح<sup>(٥)</sup>  
 جاحاً قد شفيت من الجراح  
 ألف العيص ليس من النواحي<sup>(٦)</sup>  
 بعشّات الفروع ولا ضواحي<sup>(٧)</sup>

وأول ما يمكن أن نلاحظ عليها محافظتها على بناء القصيدة الجاهلية ، حيث أشار إلى انتقال الأحبة عن ديارهم ، وأثر ذلك في نفسه وعقله ، ثم مال مع الصبا بالحديث عن حبه وهواه ، وتحدث عن رحلته إلى الخليفة معرّضاً بتأميله وتأميل من خلفه فيه . وبعد هذه المقدمة التقليدية الدقيقة يأخذ في غرض القصيدة الأصلي وهو المدح .

أما الطبع فيها فأقوى من أن يحتاج إلى إيضاح أو تبيان ، فالمتملّ في انسياب الأبيات وعدوبتها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، مع خلوها من التعقيد ومن المحسنات ومن التكلف ، لايشك في أنها وليدة طبع خالص . وأما الموسيقية فتبدو في خفة ألفاظها وتلاؤم بعضها مع بعض ، كما تبدو في جمال البحر وعدوية القافية . وكذلك يشيع فيها التصوير الذي يذكّرنا بتصوير الجاهليين من حيث صيلته بالبادية ونقله عنها ، ووقوفه عند المظهر الخارجي المحسوس ، مع قوة التشابه بين الأصل والصورة ، ترى ذلك في تشبيهه لبعيره بالثور الوحشي ، وتشبيهه إكبابه على السير والجد فيه بأكباب اللاعب على قداحه . أليس جرير في الصورة الأولى - وإن لم يشعر - يُصدر عن نفس العقلية التي أصدر عنها طرفة حين قال :

(٤) مملّة: مجتمعة - رداح: ثقبلة لضخامة عددها .

(٥) معتلج البطح: يفيض عليها في قوة وعزارة

(٦) هيرزياً: خالصاً من الشوائب - ألف العيص من دوحة ضخمة ، وأجمة متكاثفة ( ليس من النواحي )

أى انه من وسط الأجمة وليس من الأطراف .

(٧) العشة: الدقيقة الفروع - الضواحي: المكشوفة للشمس .

وبلاد زَعِيل ظلماتها كالخاض الجرب في اليوم الخدر

وفي الثانية يصدر عن تلك التي يصدر عنها عنتره حين يقول :

وخلا الذباب بها فليس بيارح غردا كفعل الشارب المترنم  
هَرِحاً يحك ذراعاه بذراعاه قَدَحَ المكبَّ على الزناد الأجذم

وفي قصيدة جرير صورة ثالثة تلفت الأنظار وهي تشبيهه قريشا بأجمة يحتل بنو  
أمية وسطها وذلك حين يقول :

فقد وجدوا الخليفة هبرزيا ألف العيص ليس من النواحي  
فما شجرات عيصك في قريش بعشبات الفروع ولا ضواحي  
والمأمل في هذه الصبور الثلاث يجدها منتزعة من البادية بما فيها من الثيران  
الروحشية والإبل والعيص وما إليها .

وبعد فهل تلاحظ معي هذه الروح وذلك الجو الجاهلي البدوي الذي يبدو في  
قوله :

وقوم قد سموت لهم فدانوا بدهم في ململمة رداح

ألا تراه يرجع بذاكرته وخياله إلى منظر ذلك البدوي المتكشف الذي يتسلق  
الجبال في طلب صيد أو شبيه به ، ثم ماذا ترى في ذكره نجدا وتهامة في قوله :  
أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح

مع أنه يريد العراق والحجاز حيث يتحدث عن قتل عبد الله بن الزبير بعد  
مصعب أخيه ؟ ألسنت معي في أنه يجن إلى نجد وتهامة لأنها أكثر دورانا على السنة  
القدامي من العراق والحجاز . وفي تكراره للفظ الحمى واستباحته إشارة إلى ما كان  
يعتز به العرب من حماية حاهم والإغارة على من سواهم .

وأخيراً ينبغي أن نلاحظ أن الصفات التي نخلعها جرير على عبد الملك هي نفس  
الصفات القديمة المرتبطة بحياة البادية من كرم وشجاعة وضخامة الأسرة وما إليها .



النقائض : إن نقائض جرير والفرزدق امتداد طبيعي للشعر القبلي في العصر الجاهلي ، ولا تمثل تطورا في الشعر الأموي .

ويروى بعض<sup>(٨)</sup> النقاد أن نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل تمثل تطورا خطيرا في الشعر العربي ، حيث يختلط الهجاء بالمدح ممتزجين بالتاريخ ، وحيث كانت تنشده في مسارح أو شبه مسارح شعبية بقصد إلهاء الناس وإضحاحهم .

أما فيما يختص بالناحية المسرحية في هذا الحديث أو تلك النقائض فكم كان يسرنا أن لو استطعنا قبولها كى ندفع عن الشعر العربي عيباً طالما أخذه الناس عليه ، وحتى نفاخر مع المفاخرين بأن المسرحية الشعرية عند جرير والفرزدق سبقت أختها عند شكسبير بعدة قرون . وأنا لنعجب حين يدعى الدكتور شوق أن تلك النقائض لم يكن يقصد بها سوى إلهاء الناس وإضحاحهم مع أن فيها أفدح سباب عرفه الشعر العربي<sup>(٩)</sup> ونحن لا نشك في أن الدكتور قرأه . وأعتقد أنه كان ينم عن روح غير إسلامية وخصومة غير شريفة . وإذا أحببت أن تؤمن بما نقول فاقراً ما كان من ذلك في مأساة جعنين مع بنى منقر وستجد إشارة إليها في جميع نقائض جرير تقريباً مع القصد حيناً والإسراف مع الإقذاع أحياناً . وأما فيما يختص باختلاط المدح بالهجاء وامتزاج هذا وذاك بالتاريخ فقد سبقت منه أمثلة كثيرة في العصر الجاهلي . فقد التقت الوفود في مجلس النعمان بن المنذر وعمر بن هند من قبله ، بل وفي مجلس الرسول ﷺ وجرى بينها من الفاخرات مثلما كان يجرى بين جرير وصاحبه ، ولم تقم الدنيا لذلك ولم تقعد ولم يقل أحد أن الحرث بن جِلْزَة وعمر بن كلثوم كانا بطلين من أبطال التمثيل ، ولعل الأخير كان أجدر من أى شاعر آخر بأن يكون بطل مسرحية حيث تناول سيف ابن هند من خلفه - على ما يقال - وقتله به . ولعلك لا تزال في شك ولو يسير مما نقول فإليك قصيدتين إحداهما جاهلية والأخرى أموية الأولى لعمر بن كلثوم وفيها يقول مفاخرأً بالسابقين من رجال قبيلته :

(٨) الإشارة هنا وفيها يلى إلى رأى الدكتور شوق ضيف ( التطور والتجديد ..... ) .

(٩) اقرأ رأى المؤلف بالتفصيل في كتابه « جرير ونقائضه مع شعراء عصره »

وَرثنا مجد علقمة بن سيف      أباح لنا حصونَ المجد ديننا  
ورثتُ مهلهلاً والخيرَ منه      زهيراً نعم زخراً الذاخرينا  
وعتّابا وكلشوماً جميعاً      بهم نلنا تراث الأكرمين  
وذا البرّة الذي حدّثت عنه      به نحى ونحى المحجرين<sup>(١٠)</sup>  
ومنا قبله الساعى كليب      فأى المجد إلا قد ولينا

والثانية لجرير وفيها يقول مخاطباً محمد بن عمير بن عطارد وكان قد رشا الأخطل  
كى ينصر الفرزدق عليه .

لما انهزمت كفى الثغور مشيع      منا غداة جبت غير جبان<sup>(١١)</sup>  
شبت فخرت به عليك ومعليل      وبما لك وبفارس العلهان  
هلا طعنت الخيل يوم لقيتها      طعن الفوارس من بنى عقفان  
كذب الأخطل إن قومي فيهم      تاج الملوك وراية النعمان  
منهم عتية والمحلّ وقعب      والحنتقان ومنهم الرّدفان

ولاشك أنك ستدرك الشبه القوى بينها من حيث التمدح بمن ظهر في قبيلة كل  
منهم من أبطال والإسراف في تعداد أسائهم . أما إذا أردت أن ترى صورة من تعداد  
موقف الشجاعة هنا وهناك فاقراً للحرث بن حلزة :

هل علمتم أيام يُتهب النا      س غواراً لكل حيّ عواء<sup>(١٢)</sup>  
إذا رفعنا الجمال من سعف البحر      رين سيراً حتى نهاها الحساء  
ثم ملنا على تميم فأحرم      سنا وفينا بنات قوم إماء  
لا يقيم العزير بالبلد السه      ل ولا ينفع الدليل النجاء  
ثم اقرأ لجرير :

أبنا عدلت بنى خضاف مجاشعا      وعدلت خلك بالأشد سنان<sup>(١٣)</sup>

(١٠) البرة بضم الموحدة: الحلقة ، والحجرين المضطرين إلى الدخول في الحجر لضعفهم

(١١) ديوانه ٥٧٠ - مشيع: موقد، وغير جان صفة لمشيح

(١٢) المعلقات العشر.

(١٣) ديوانه ص ٥٧٠ وما بعدها والجزء الثاني من المنتخب ص ١١٠ وبعدها .

شهدت عشية رَحْرَحان مجاشع      بمجارف جَحَفَ الحَزيزِ بطان  
وطئت سنايك خيل قيس منكم      قتلى مصرعة على الأعطان  
الله در يزيد يوم دعاكم      والحيل مجلبة على حَلَنان  
لاقوا فوارس يطعنون ظهورهم      نشط البزاة عواتق الخربان  
إن رمت عبد بنى أسيدة عزنا      فانقل مناكب يذبل وذقان

والبيت الأخير يذكرنا بقول ابن حلزة من نفس القصيدة السابقة :

وكان المنون تردى بنا أر      عن جونا ينجاب عنه العماء  
مكفهرأ على الحوادث لآتر      توه للدهر مؤيد صماء<sup>(١٤)</sup>

الغزل :-

فإذا تقدمنا إلى الغزل بقسميه وجدناه صورة غزل الجاهلية . فشعر عمر بن أبي  
ربيعة يكاد يختلط بشعر امرئ القيس . ولا عجب في ذلك فقد تشابهت حياتها  
شباباً وفراغاً وجدة فأخذ كل منهم يهذى بالمرأة وبنفسه . وإن من يتتبع شعر هذا  
وذاك لا يكاد يخطئ اتحاد العناصر الأساسية لكلا الشعريين ضع إن شئت قول  
امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليها بعد ما نام أهلها      سُمُو حَبَابِ الماءِ حالا على حال  
فقلت سباك الله إنك فاضحي      أَلست ترى السُّمَّارِ والناسِ أحوالى  
فقلت يمينَ الله أبرحُ قاعداً      ولو قَطَّعوا رأسىَ لَدَيْكَ وأوصالى  
حلفت لها بالله حِلْفَةَ فاجر      لناَموا فما إن من حديثٍ ولا صال  
فما تنازعنا الحديثَ وأسمحتُ      هَصرتُ بغصنِ ذى شَمَارِيخِ مِبال  
وصرنا إلى الحُسنى ورقَّ كلامنا      ورُضتُ فذَلتُ صَبْعَةً أَىَ إِذلال  
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلاها      عليه القَتامِ سىِّ الظنِّ والبال  
يغَطُّ غَطِيظَ البَكرِ شُدَّ خنَاقه      ليَقْتلنِى والمِراءِ ليس بقتال

(١٤) وإذا قبل لنا: أن تناقض جرير وصحبه كانت تتحد غالباً في الروى والبحر، قلنا وكذلك كانت أشعار  
قريش في الرد على حسان وإخوانه، ومع ذلك لم يقل أحد أنها تمثل تطوراً في الشعر العريق، لاتحاد مجراها  
ورويها.

- أيقنتلى والمشرقى مضاجعى  
ليقتلى أنى شغفت فؤادها  
ومسنونة زرق كآنياب أغوال  
كما شغف المهنوة الرجل الطالى  
ضع هذا بجانب قول عمر:

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت  
وغاب قير كنت أرجو غيابه  
ومصايح شبت بالعشاء وأنور  
وروح رعيان ونوم سمر  
ونفضت عنى العين أقبلت مثنية آل  
حبات وركنى خيفة القوم أزور  
فحييت إذ فاجأتها فتولت  
وكادت بمكنون التحية تجهر  
وقالت وعصت بالبنان فضحتنى  
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

ويمضى فى وصف ما كان بينها حتى يسمعا القوم وقد استيقظوا فتضطرب  
وتسأله عما يمكن أن يفعلا فيرد بهذه الأبيات :-

فقلت أباديهم فلما أفوتهم وإما ينال السيف ثأراً فيثأر  
فقال: أتحميقاً لا قال كاشح علينا وتصديقاً لا كان يؤثر

واتهى الأمر بأن جاءت أختها فأحطن به جميعاً وهيان له سبيل الخلاص

والمتبع للقصيدتين يرى الأخير يسير في أعقاب الأول شبراً بشبر فكلاهما يدب  
إلى حبيته ليلا كما تدب الذئب وإن لم يفتنا إلى ذلك ، وكلاهما يتعرض للقتل  
ويتخطى الحراس ومحظى بما يريد . أليس فى هذا ما يكفى لبيان قوة الشبه بين  
أسلوبها فى الغزل ومسلكها فى الحياة ؟ قد يقال لنا كلا فإن عمر غير منهج الغزل حين  
جعل نفسه محور عواطف المرأة وكان القدامى يفعلون عكس ذلك . ويكفى للرد على  
هذه الدعوى (١٥) أن تلفت النظر إلى البيتين السابع والعاشر من أبيات امرئ القيس  
لنعلم أن عمر حتى فى هذه كان تلميذاً وفيماً لتعاليم أستاذه امرئ القيس .

ونزيد هنا كلمة قد لا ترضى بعض الناس ، وتلك أن عمر كان يحاكي امرأ  
القيس عامداً ويعارضه جاهداً ويحتال على نقل بعض ألفاظه وعباراته حتى يلفت  
النظر إلى تلك المحاكاة والمعارضة . وإلا فهل تظن أن قوله : « فاقبلت مشية

(١٥) راجع التطور والتجدد للدكتور شوقى ضيف .

الحياب» وقوله: «وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأشباهاها» على كثرتها كانت مجرد مصادفة لم يفظن لها ولم يقصد إليها عمر؟ أكبر الظن أنه يغضب ويتألم لو علم أن القراء لا يدركون الشبه القوى الواضح بينه وبين أستاذه رغم حرصه الشديد على إعلانه وإيضاحه، فقد كانت إحدى أمانيه أن يرى الناس فيه صورة من أمير الشعراء، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون مقلداً أو مجدداً.

والغزل المسمى بالعذرى أو العفيف مفترى عليه أيضاً أو على الإسلام فيه، ويشق علينا أن نرانا مضطرين إلى مخالفة رأى بعض أساتذتنا حوله (١٦) حيث ذهب إلى أن هذا النوع من الغزل كان نتيجة من نتائج «التقوى والزهد والتصوف والمثل الأعلى في الحياة الخلقية»، وغير ذلك من الأمور التي جاء بها الإسلام.

ولست أرى مبرراً لمثل هذه الدعوى، فشعراء هذا الفن لم يكونوا زهاداً ولا أنصاف زهاد، لا في حياتهم الخاصة ولا في غزلهم وفوق هذا فالمرء لا يكون زاهداً في أمور حتى يتمكن منه ثم ينصرف عنه ولم يكن الحال كذلك عند هؤلاء الشعراء. فقد تركوا من يحبون مرغمين، فهذا الغزل نتيجة للحرمان لا للزهد.

ونرى أن كلا نوعي الغزل العذرى والحسى متفقان من حيث النشأة، ففي كل منها تتجه النفس البشرية إلى الاتصال بمن تحب من الجنس الآخر اتصالاً تتحد دوافعه وأهدافه. ثم تختلف وسائله ونتائجه تبعاً لاختلاف الشخصيات، فيسلك أصحاب المذهب الحسى مسالك عملية يصحبها دائماً النجاح في الوصول إلى من يحبون، بينما يتعثر أصحاب المذهب الآخر، لأنهم في الغالب ممن تغلب عليهم العواطف وتنقصهم الجرأة والمرونة والخبرة العملية وغير ذلك من الأمور التي تمكن المرء من بلوغ أهدافه، وتحقيق مآربه في الحياة، فيقبضون الحياة على أبواب معبد الحب حيارى، لا يدرون ماذا يفعلون سوى ترتيل أناشيد الشوق والهيام، وإراقة الدموع ممزوجة بالآلام، مشبعة بالأنات والزفرات.

وهكذا نرى أن الفرق بين النوعين من حيث الوسائل والنتائج لا يعود إلى زهد أو

---

(١٦) الدكتور طه حسين (حديث الأراء) - ج ١ ص ١٨٥.

ورع بقدر ما يعود إلى اختلاف الشخصيات من عملية إلى عاطفية وجدانية .  
ومما يؤكد براءة الإسلام من الغزل المسمى بالعفيف وجود أمثلة كثيرة منه في  
العصر الجاهلي ، بحيث لا يكاد المرء يرى فرقا بين هذا وذاك . ويباعد بين  
أصحاب هذا المذهب والزهد ، بل أدنى درجات التقوى ما عرف عن بعضهم  
من التعلق بنساء ذوات أزواج شرعيين وناهيك بمثل هذا العمل بعداً عن الدين  
والمروءة (١٧) .

وينبغي ألا ننسى أننا ننسى أو نتناسى في نشوة مما يثيره الغزل العذرى في أنفسنا  
من عواطف وانفعالات ما يخفى تحت هذا الغلاف الخارجى من ضعف واضطراب  
يؤكدان أن معظم أبطال هذا الفن لم يكونوا من ذوى الشخصيات القوية ، وإلا لما  
استرسلوا مع عواطفهم إلى هذا الحد المزرى . والشخصية المترنة فيما نعتقد هى التى  
ترن الأمور بميزان العقل ، فإذا كانت فرص النجاح والظفر بمن تحب مواتية فيها وإلا  
بمحت عن مخرج سريع ، أما ترك نفسه نهبا للعواطف الجاحمة وفرسة للاضطرابات  
النفسية المستمرة فمن علامات ضعف الشخصية . حقيقة أن الفن والأدب قد أثريا  
على حساب هؤلاء البائسين ثراء عريضا ولكن هذا لا يعوقنا عن وضع الأمور فى  
نصابها .

وإن كل ما يمكن أن نتبعه من آثار الإسلام فى ذلك الفن لا يخرج عن  
أمرين .

أولها: إن الإسلام بما جاء به من قوانين صارمة فى تحديد فرص الاتصال بين  
الرجل والمرأة وتنظيم العلاقة بينها تنظيما دقيقا قد أكثر من فرص الحرمان الذى  
يعد السبب الأول فى نشأة هذا النوع من الحب والغزل .

ثانيها: ظهور بعض صور وأفكار جزئية منقولة عن الدين أو القرآن ربما دل  
ظهورها على تأثر الغزل بوصفه فنا شعريا بها ، ولكنها لا تدل على تأثر عاطفة

(١٧) من ذلك قول كثير . - .

يقولون ودع عك لى ولاتهم نقاطة الأقران ذات حليل  
الأمل ح - ٢ - ص ٦٤ .

الحب نفسها بالدين ولا بالقرآن . ومن أمثلة ذلك تلك الصورة أو اللوحة البديعة التي عرضها كثير في قصيدته .

ألا حيبا ليلى أجد رحيلي وآذن أصحابي غداً بقفون

وفيها يصف قوافل الإبل متوجهة بالحجيج إلى مكة وقد سبق ذكرها<sup>(١٨)</sup> وقد حاول بعض الزملاء أن يتتبع أثر الإسلام في الغزل العذري فانتهى إلى رأى لا يختلف كثيرا عن رأى الدكتور طه حسين ، وإن فصل أحدهما وأجمل الآخر .

وإننا لثرنا مضطرين إلى أن نستعرض ما ساقه الزميل من أدلة ذاكرين وجهة نظرنا فيها . وأول ما يلفت نظرنا من ذلك قوله : إن القرآن ضرب مثلا لعفة المؤمن في قصة يوسف كداعا إليها الرسول حين جعل أهل العفة من المحبين بين أولئك الذين يشملهم الرحمن بظله يوم لا ظل إلا ظله<sup>(١٩)</sup> .

ويضرب لنا مثلا على مدى تأثير أمثال هذه الآيات والأحاديث في أهل ذلك العصر بما كان من عبد الرحمن القس حين قالت له سلامة : أنا أحبك . فقال : وأنا والله أحبك قالت : فما يمنحك ؟ فوالله إن الموضع لخال ؟ فأجاب سمعت الله تعالى يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

والذى نعتقده أن أثر الإسلام قد ظهر في أهل النسك والورع من أمثال عبد الرحمن القس المذكور وعروة بين أذينة وأشباهم ولكن هؤلاء من سوء من الحظ لم يكونوا من كبار الشعراء ، ولم يخلدوا عواطفهم ، ولا تأثير الدين عليهم في أشعار ، ولو فعلوا ذلك ، ولو قال قائلهم مثلما قال ابن فرج الجياني<sup>(٢٠)</sup> :

وطائفة الوصال عفت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع  
بدت في الليل سافرة فبان دياجي الليل سافرة القناع

(١٨) يمكن أن يضاف إلى ذلك فكرة الشهادة لمن قتل في سبيل الله ، والقضاء والقدر

(١٩) ليلي والمجنون . للدكتور غنيمي هلال ص ١٢ .

(٢٠) نوح الطيب ج - ٢ - ص ١٤٣ .

وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي  
فلكت النهى جمحات شوقى لأجرى في العفاف على طبعى  
وبت بها مبيت السقب يظما فيمنعه الكعام من الرضاع<sup>(٢١)</sup>

لقلنا إن الغزل في تلك الفترة قد تأثر أو على الأقل يحتمل أن يكون قد تأثر  
بالإسلام فصار يدعو إلى إظماء النفس رغم سهولة المورد محافظة على الدين ، أما  
وإنهم لم يقولوا شيئاً من ذلك ، أما وزعيم تلك المدرسة يقول :  
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم ألق وجهك صاديا<sup>(٢٢)</sup>  
ويقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولى يابئين يعود<sup>(٢٣)</sup>

فلا نستطيع أن ننسب إليه زاهداً ولا عفة إنه زهد العاجز وعفة اليائس ترى لو  
كان جميل محظوظاً مثل ابن أبي ربيعة تسعى النساء إليه أكان يفر منهن إلى قبة أحد  
الجبال ، ثم يرتل أناشيد العفة والزهادة ؟ ألا حدثني بريك ماذا كان يستطيع أن  
يفعل جميل أكثر مما فعل لو أنه كان أشد كفراً بالله من فروعون وهامان . أكان  
يستطيع الحديث عن مقابلات وهمية ومغامرات خيالية ، وهو عاجز محروم لم يحظ  
بحبيته يوماً من الأيام كما حظى عمر بن أبي ربيعة ؟ إن كل ما بينه وبين ابن أبي ربيعة  
من فرق هو أن الحب عنده وقف عند مرحلة أولية رغم أنه لسوء حظه وعجزه عن  
متابعة خطواته بتوفيق ، ولذا ظل يندب حظه ، ويتمنى أنفه أنواع الوصال من  
حبيته ، أما الزهد وأما انتظار ثواب الله على هذا الجهاد الذى يتفضل به عليهم  
بعض أساتذتنا وزملائنا الكرام<sup>(٢٤)</sup> فلم يخطر لهم ببال ، فقد كانوا أعرف بأقدارهم ،  
وأعظم تواضعاً فيما بينهم وبين أنفسهم من أن يدعوا لها شيئاً من ذلك ولو عرف  
جميل أن بعض الباحثين يجعلون قوله :

(٢١) السقب ولد الناقة - الكعام مايشد به فه .

(٢٢) الأدب العربى فى صدر الإسلام ص ٢٩٠

(٢٣) الأملى ج - ٢ - ص ٢٩٩ .

(٢٤) ليل والمجنون ص ١٢ .



يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأىَّ جهاد بعدهن أريد (٢٥)  
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

دليلاً على أنه كان يعتقد حقاً أنه سيموت شهيداً إذا سقط صريعاً تحت إقدام  
بشنة ، لتوارى حياء وخجلاً من تلك السذاجة التي يرميه الناس بها لمجرد أنه شاعر  
يقول ما لا يعتقد كغيره من الشعراء . بل وربما تذكر شيئاً مخجلاً بجانب ذلك وهو أن  
يذهب شباب المسلمين لجهاد عدوهم من الفرس والروم ، ويظل هو بجانب حبيته  
يجاهدنا حيناً ويجاهد نفسه أحياناً ثم يدعى بعد ذلك أنه مسلم زاهد ، وأنه متأثر في  
حبه وزهادته تلك بالإسلام . ويروى أصحاب هذا المذهب الأبيات التالية لكثير  
ويجعلها مظهراً من مظاهر التقديس الذي ظهر في الغزل العذري أبان العصر  
الأموي :

رهبان مكة والذين عهدتهم      سيكون من خوف العذاب قعوداً (٢٦)  
لو يسمعون كما سمعت حديثها      خروا لعزة ركعاً وسجوداً  
والميت ينشر أن تمس عظامه      مساً . ويخلد أن يراك خلوداً

مع أن بعض هذه الأبيات يكاد يكون نقلاً حرفياً عن قول النابغة في المتجردة :  
لو أنها عرضت لأشمط راهب      يخشى ألا له ضرورة متعبد  
لرنا لبهجتها وحسن حديثها      ولخاله رشداً وإن لم يرشد  
أما الثالث فمأخوذ من قول المرقش الأكبر في حبيته :

أينما كنت أو حلت بأرض      أو بلاد أحييت تلك البلاداً (٢٧)  
مما يدل على أن العذريين كغيرهم من أصحاب الغزل المكشوف كانوا ينسجون  
على منوال الجاهليين . ويحتذون مثلهم . وإذا كنا لم نتبع تلك الشواهد والأدلة  
واحدًا واحدًا فما ذلك إلا لأن الأمر في نظرنا أيسر من أن نأخذ به وجد .

(٢٥) نفسه ص ١٣ .

(٢٦) ليلى والمجنون ص ١٥ .

(٢٧) المفضليات ج ٢٠ - ص ٢٢١ .

على أننا نجد من بين شعر الجاهليين مقطوعات لا تقل في نغمتها العفة الصابرة  
المحتسبة عن غزل العذريين . وإن شئت فاستمع لقول المرقش الأصغر :

وإني لَأَسْتَحِيْ فطيمة جاثعا خميصا وأستحي فطيمة طاعما<sup>(٢٨)</sup>  
وإني لأستحيك والخرق بيننا مخافة أن تلقى أخا لي صارما  
وإني وإن كَلَّتْ قَلُوصِي لراجم بها وبنفس يافطيم المراجما  
أفاطم إن الحب يعفو عن القلى ويحشم ذا العرض الكريم المجاشما  
ألا يا سلمى بالكوكب الطلق فاطما وإن لم يكن صرف النوى متلائما  
أفاطم لو أن النساء بيلدة وأنت بأخرى لاتبعتك هائما

إننا نعلم الجاهليين كثيراً ، ونعتقد أنهم كانوا جميعا طلاب متعة وأصحاب لهو ،  
مع أن شاعراً من شعرائهم ، بل صلوكا من صغاليكهم ، قد ترك لنا صورة المرأة  
التالية عنده فإذا بها تفوق في الدلالة على عفته وعفتها ما رسمه لنا جميل زعيم مدرسة  
الغزل العفيف في العصر الأموي حين قال :

ألم تعلمى يا أمّ ذى الودع أنتى أضاحك ذكراكم وأنت صلود  
أما الشاعر الجاهلى فهو الشنقرى ، وأما أبياته فتلك التى يقول فيها :

لقد أعجبتنى لاسقوفا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلتفت<sup>(٢٩)</sup>  
تحل بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حلت  
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت  
أميمة لا يُخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت  
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت  
فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن إنسان من الحسن جنت

وأخيراً نحب أن نعرف موقف الزهاد والمتصوفين من الأبيات التالية لجميل

(٢٨) مفضليات ح - ٢ - ص ٤٦ .

(٢٩) نفسه ح - ١ - ص ١٠٧ .

سبنتي بعيني جُودَر وسط ربرب      وصدر كفاثور اللجين وجيد (٣٠)  
تَزِيْف كما زافت إلى سَلَفَاتِهَا      مَبَاهِيَةً طَىَّ الوشاح مَيُود  
إِذَا جِئْتَهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا      تَعْرُضُ مَنقُوضَ اليدين صَدُود  
يَصِدُّ وَيَغْضَى عَن هَوَايَ وَيَجْنِي      ذُنُوبًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعَنُود  
فَأَصْرَمَهَا خَوْفًا كَأَنِّي بِجَانِبِ      وَيَغْفُلُ عَنَّا تَارَةً فَنَعُود

ضع البيت الثاني من هذه المقطوعة بجانب أبيات الشنفرى ، وانظر إلى ما فى هذه من فتنه وإغراء وعبث بجانب ما فى تلك من جد وعفة . وأخيراً ليت شعرى من هذا الذى كان يجرسها من شيخ الزهاد ، لعله زوجها الشرعى ، ولا ينبغى أن نعجب أو نأسى لما ناله من أذى ، فإن حظه على أية حال كان خيراً من حظ زوج عزة الذى يقول فيه شريكه أو منافسه فيها كثير :

يكلفها الخنزير شتمى وما بها      هوانى ولكن للمليك استندلت (٣١)

وأخيراً أرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لى إذا قلت :إنتى لا أرى بل لا أرضى أن يكون بين مثل هذا الحب والإسلام صلة ما من قرب أو بعد . إنه مثل حب عمر ابن أبى ربيعة تماماً سوى أن أحدهما بلغ غايته والآخر تعثر دونها .

أما ذلك العفيف الذى يمكن أن نلمس أثر الإسلام فيه فهو حب الزهاد من امثال عبد الرحمن القس كما أسلفنا .

وأخيراً نحب أن ننبه القارئ إلى أن واجبنا وأدلتنا على قرب الشعر الأموى من الجاهلى وبعده عن العباسى لم ينتهيا بعد . وكل ما أسلفناه إنما هو مجرد إزالة لما قد يعلق بالأذهان من قول القائلين بتطور الشعر العربى فى العهد الأموى .

وستتخذ من هذه القضية موقفاً إيجابياً بناءً حين نتحدث عن تحول الشعر العربى عن أصوله الأولى خلال العصر العباسى ذاكرين بعض النماذج التى تؤيد نظريتنا من الشعر الجاهلى والأموى القديم ، والعباسى الحديث .

(٣٠) الأمالى ج - ٢ - ص ٢٩٩ .

(٣١) ذكر صاحب الأغاني فى سبب هذا البيت أن روح عزة نار عليها حين عرف أنها استعانت به فى بعض

أمورها فكلفها سه (الأغاني ج - ٨ - ص ٣٧ .



# الباب الثالث

## مقدمة

### العصر العباسي

سمع ابن الأعرابي أبا تمام ينشد شيئاً من شعره فقال: «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»<sup>(١)</sup> وهذه العبارة على ما فيها من بساطة ومبالغة عذبة تصوّر رأى ذلك العصر في شعر أبي تمام وكل من سلك مسلكه من الشعراء فشعره فيما نعتقد يمثل حركة انفصال عن القديم أو ثورة عليه ، بدأت في أوائل العصر العباسي ثم ما زالت تستشري وتستفحل ، وتقوى وتعنف ، حتى كان لها في أذهان الناس ومخيلاتهم ذلك الصدى العميق الذي تصوره العبارة السابقة .

وبدء حركة الانفصال عن القديم مع قيام دولة بني العباس ليس مجرد مصادفة ، وربطنا بين الحديثين أو الحركتين ليس من قبيل التأريخ بالحوادث العامة بل كانت هذه ناشئة عن تلك ، ومرتبطة بها أوثق ارتباط ، ولكن الإنسان دائماً ينسى الأحداث الماضية التي ما تزال تتضاءل وتتلاشى على مر الأيام ، حتى يضعف إحساسه بخطورتها ، وحتى تبدو كأنها شيء لا يستحق الذكر ، فمن منا يذكر شيئاً عن الحروب الصليبية وأهوالها أو بعض أهوالها ومن منا يذكر الطوائف المختلفة التي ناهضت الخلافة الإسلامية في جميع عصورها من خوارج ، وزنج وقرامطة ؟ بل ومن يذكر أو يتخيل أن الأمة العربية قد شملها أثناء القرن الثاني للهجرة - على أيام المهدي والرشيدي والمأمون - من التحول السياسي والتطور الاجتماعي ، والتقدم الثقافي ما لم تشهد له مثيلاً في عصر من العصور . وبوصفنا مؤرخين للأدب سيكون من واجبننا استعراض هذه الظواهر الثلاث مع الإشارة إلى صداها في الشعر العربي . أما التحول السياسي : فأهم مظاهره تغلغل النفوذ الفارسي في شئون الحكم .

(١) الموازنة ص ٨ .

فقد قامت الدولة العباسية على أسنة الرماح الزاحفة من الشرق بقيادة أبي مسلم الخراساني. فلم يكن هناك بد من مجاملة هذا الشريك الجديد ، فصار منهم قواد الجيوش وحكام الأقاليم والوزراء والحجاب . وما مقتل أبي مسلم على يد المنصور والبطش بالبرامكة في عهد الرشيد إلا محاولة جريئة من ملوك العرب لوقف النفوذ الفارسي المتحفز للطغيان والسيطرة .

وقد كان لهذا النفوذ السياسي صدهاء في الحياة الأدبية ، فقد أضعف العصبية لكل ماهو عربي من أشعار وآداب وتقاليد ، وسنرى بعد قليل أن ذلك قد كالم ضربة قوية لبناء القصيدة العربية . كما ارتفعت أصوات الموالى بمفاخرة العرب فنشأ عن ذلك شعر الشعبوية .

وقد صحب هذا النفوذ السياسي نفوذ ثقافي اجتماعي ، استحث خطوات الشعر العربي نحو التطور والتحول . وقبل ذلك كان اتصال العرب بغيرهم من الدول محصورا في دائرة ضيقة لاتتجاوز الناحية الحربية والإدارية ، وإزالة الصعوبات التي قد تعترض نشر الدين في أبسط مظاهره وتعاليمه ، أما في هذا العصر فقد صار التفاعل بين العرب والدول الطارئة على الإسلام قويا ولاسيما الدولة الفارسية التي أعطت العرب وأخذت منهم الكثير في النواحي الدينية والأدبية (٢) .

وإذا كان تأثير الفرس قد انحصر في الناحية الأدبية . فإن تأثير الروم كان أقوى وأعظم فقد أخذ العرب عن الروم علومهم المختلفة من منطق وفلسفة وما إليها . وقد طبعت هذه العلوم الدخيلة مناهج البحث في العلوم الشرعية بل واللغوية بطابع جديد مالم يألأ أن تسرب إلى الشعر فظهر واضحا في إنتاج هذا العصر . أما من الناحية الاجتماعية فقد تغير وجه الحياة أمام العرب تغيرا كبيرا فاتخذوا القصور الشماء ، والرياض الفيحاء ، واستمتعوا بكل ما نستمتع به ، أو بعبارة أدق يستمتع به المترفون فينا من ألوان الترف والنعيم وغزتهم الدول الشمالية بسيل جارف من الجوارى والغلمان ذوى الجمال البارع ، فكان منهم الخدم والمغنيات في

( ٢ ) نعى بالناحية الدينية أخذ الفرس الإسلام عن العرب وإعطائهم مذهب ماى ومزدك .

القصور ، وسقاة الخمر في الخانات ، وطوائف أخرى كثيرة في أماكن مشابهة وقد لقي منهم المجتمع بلاء كبيرا ، فقد كانوا يفوقون العرب رقة وجمالا ، وحذقا لفنون الإغراء . وكان تأثيرهم يتفاوت باختلاف الظروف ، فسلك أهل الدين والشرف في الاتصال بهن مسلكا شرعيا عن طريق الشراء والمتعة أو الزواج ، أما المتحررون أو المتحللون من الشعراء ومن لف لفهم ، فقد أعلنوا حربا صريحة على المجتمع والتقاليد ، وراحوا يهذون في أشعارهم بالغزل في هؤلاء الغلمان غزلا لا يقل عن تشبيب امرئ القيس بفاطمة أو المرقش بسلمى .

ويغفل المؤرخون عادة أمرين أو تيارين خطيرين التقيما معا وتعاوننا سويا على خلق هذا النوع الشاذ من السلوك وأنواع أخرى بجانبه لا تقل عنه غرابة وإن تزيّت بأزياء مغرية ، وتسمّت بأسماء لامعة كتزاهد أبي العتاهية ، وتشاؤم ابن الرومي وثورة أبي العلاء . ونعني بهذين التيارين :

أولا : خيبة آمال أهل العراق وهزائمهم المتوالية . فقد ضحوا بما لم يضح به شعب في سبيل نقل الأمر من يد قتلة الحسين إلى أهله وعشيرته . ولكنهم تبنوا أخيرا أن مجهوداتهم ذهبت مع الريح ، وأن بني العباس استبدوا بالأمر دون بني علي ، وهم بعد ذلك لا يقلون عن سلفهم من بني أمية جرأة على الله ، واستهانة بمحفدة رسوله (٣) ﷺ .

ثانيا : تعاليم ماني ومزدك التي دخلت بغداد تحت ظلال رايات أبي مسلم ومن معه ، فصادفت بيئة صالحة ، وأمة سيئة الظن بنفسها وبولاة أمورها ، يائسة من مستقبلها ، شاكّة أو كالشاكّة في دينها .

وكان أن انقسم الناس حيال هذين التيارين أو تحت تأثيرهما إلى طوائف مختلفة فمنهم من لبس سلاحه ، واستأنف جهاده ضد العباسيين كما كان يفعل مع سلفهم ، ومنهم من آثر العافية ، واستعمل التقيّة ، فأقام ساخطا متربصا ،

---

(٣) قام أهل العراق بثورات مختلفة هدفها نقل السلطان إلى بي علي . ولكن بني العباس انصموا إلى صفوف الدعوة السرية واستطاعوا بمهارتهم وخداعهم أن يستولوا على السلطة دون أبناء عمومهم . ولما حاول بنو علي اغتصابها منهم قابلهم بنو العباس بقسوة وعنّف أنسّتهم وأنست شيعتهم كل مارأوه من نكال أيام الأمويين .

وفريق ثالث غلب عليه الشقاء فقويت عنده عوامل الشك، فأقبل على الحياة يغترف من معينها غير مفرق بين حلال وحرام ، مستمتعا بحاضره مطرحا وراء ظهره ما عسى أن يأتي به المستقبل من ثواب أو عقاب . وإلى الفريق الثاني ينتسب الساخطون من الشعراء أمثال أبي العتاهية وابن الرومي وأبي العلاء . وشعر الأول كان يلقي من بقية الطائفة عطفًا وتأييدًا ظاهرًا ومستورًا . وإلى الفريق الأخير ينتسب بشار بن برد وحامد عجرد ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ووارث أدبهم جميعًا بما فيه من خير قليل وشر كثير أبو نواس .

ونكتفي بهذه المقدمة العامة في إيضاح ما طرأ على الحياة خلال هذا العصر من تطور وتحول على أن نعود إليها مع شيء من التفصيل كلما عرضنا لفن من الفنون أو ظاهرة من الظواهر الأدبية التي تأثرت بذلك التغير والتطور .



# الفصل الأول

## بناء القصيدة

آثرنا أن نبدأ بالحديث عن بناء القصيدة ، وإن لم يكن أخطر ما أصاب الشعر من تطور لأنه كان أسبق ظهوراً من غيره ، ولأن حامل لواء الدعوة إليه لم يصانع أو يداهن في نشر مبادئه بل رفع عقيرته بها ما وسعه ذلك .

وقد عرفنا فيما سبق صورة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، وعرفنا أنها تتكون من مقدمة وغرض ، وأن المقدمة تجمع عادة بين الحنين إلى الأحبة الراحلين والبكاء على ديارهم إلى آخر ما قلناه هناك . وقد ظل لهذا الوضع قداسته طوال العصر الأموي فلم يمار فيه أحد من الشعراء ، بل على العكس من ذلك كانوا يحاولون تأكيد ولائهم لسلفهم من الجاهليين بنقل بعض مطالبهم نقلاً حرفياً . وما زال جرير يتحرى حتى اختار لكبرى قصائده مطلعاً جاهلياً فقال .

لمن الديار ببرقة الرُّوحان إذ لا تقيس زماننا بزمان

أخذه من قول عبيد بن الأبرص في مطلع إحدى رواثعه :

لمن الديار ببرقة الروحان درست وغيرها صروف زمان

وأخذه الأخطل أيضاً فقال :

لمن الديار بحايل فوعال درست وغيرها سنون خوال

وشبيه بهذا ما فعله الأخطل حين قال يمدح بشير بن مروان :

صحا القلب عن أروى وأقصر باطله

وعاد له من حب أروى أخابله

أخذه من قول زهير يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله  
وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله<sup>(١)</sup>

والناس يخطئون إذ يظنون أن مثل هذا من الشعراء مجرد عبادة للقديم ، والحقيقة أن الشاعر يستغل إعجاب الناس بروائع الفن القديم التي بهرت عقولهم ولعبت بمشاعرهم وعواطفهم حيناً من الدهر ، فيجعل في نتاجه شياً منها كي يضمنى عليه شيئاً من قداسة القديم وروعته . وهم يصيبون في تقديرهم هذا فنحن نظير إعجابنا بكل خطيب أو ممثل أو مغن يبدأ تمثيله أو غناؤه بما يشعرنا أنه تممّص شخصية بطل معروف من أبطال التمثيل أو نجم لامع من نجوم الغناء . ولهذا يخطئ النقاد حين يضعون هذا الاقتباس العلني في باب السرقات . دارت الأيام بعد ذلك دورتها وتحولت الخلافة إلى بني العباس ، حاملة على جناحها كل ما أشرنا إليه من تطورات ، وهناك في حانة من حانات بغداد لعب الشيطان أو لعبت الخمر برأس طائفة من المتحررين الذين أشرنا إليهم سابقاً فأقبلوا على ما يقبل عليه أمثالهم في كل عصر وبلد من استعراض الحياة الأدبية حولهم ، وجرّهم الحديث إلى الأطلال والدمن ، فناقشوها في جو مطلق ، وبعقلية متحررة وانتهوا فيها إلى رأى اتخذ صورة شعرية في قول أحد أفرادها :

لأحسنُ من بيدٍ يحاربها القطا ومن جيلٍ طيٍّ ووصفكما سلّعا<sup>(٢)</sup>  
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

(١) وربما تجاوز الشاعر هذا القدر اليسير من الاقتباس كما فعل الكيت حين قال .  
قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر  
ماذا عليك من الوقو ف يهامد السطلين داسر  
درجت عليه المغاديات الرا نحات من الأعـاصـر  
بعد قول امرئ القيس بن عابس .  
قف بالديار وقوف حابس وتأن إنك غير آيس  
ماذا عليك من الوقو ف يهامد السطلين داسر  
لعت بين العصفات الرا نحات من الـروامس

الوساطة ص ١٩١ .

(٢) الأغاني ج - ١٢ - ص ١٠٣

وسرعان ما تلقف أبو نواس هذه الهمسات فكون منها مذهبا جديداً أخذ يدعو له ويناضل عنه حتى نسب إليه وعرف به .

ويتلخص هذا المذهب في استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه من وقوف على ديار الأحبة ، أو تعرض للصحراء ، بل وتشيب بالمرأة وحجته في ذلك أن الحياة قد تغير وجهها ، حيث هجر العرب البادية ، واستقروا بالمدن ، وصار الشاعر يقيم على بعد خطوات من الممدوح ، فالعودة إلى البادية وأطلالها والصحراء ورمالها إذ ذاك ضرب من العبث المضحك ، أو الضحك المزرى . والمتتبع لشعر أبي نواس يرى مذهبا أحسن صاحبه تحديده والاحتجاج له . ولكي نوفى هذا البحث حقه يجب أن ننظر إليه من النواحي التالية :

أولاً : سبب تحمس أبي نواس لهذا المذهب وبلائه في سبيله ، بلاء انفرد به عن شعراء عصره بل وشعراء العربية جميعاً .

ثانياً : احتجاجه لمذهبه..

ثالثاً : مدى تقيده في شعره برأيه ومذهبه .

رابعاً : مدى تأثيره أو تأثير دعوته في شعراء عصره ، ومن جاء بعدهم .

أما الأسباب التي دفعت بأبي نواس إلى تكوين هذا المذهب<sup>(٣)</sup> فينبغي أن نتلمسها في شخصيته . وهي شخصية معقدة متعددة النواحي ضللت الباحثين ، حتى حاول بعضهم أن يطبق عليها علم النفس فأجهد نفسه وأجهد الدارسين معه<sup>(٤)</sup> ولكننا نفضل أن نفهمه في ضوء أحاديثه وتصريحاته . ولعلنا لا نكون بمعزل عن الحقيقة إذا ربطنا بين هذه الثورة الفنية ونقمة الشاعر على العرب بعامة وعرب

---

(٣) نغني بذلك تعصبه ضد ذكر الأطلال مع أن كثيراً من معاصريه كانوا يشاركونه هذا الرأي ، فلم يشغلوا أنفسهم أو الناس به مثلاً فعل هو . بل لانكون مبالغين إذا قلنا أن الشك في جدوى مثل هذا البكاء كان أقدم من أبي نواس وعصره ، من هذا قول الأعشى  
مابكاء الكبير بالأطلال  
دمنة ففرة تعاورها الصي  
سؤالي وسؤالي ومبايرد سؤالي  
ف برحين من صبا وشمال  
(٤) الأستاذ عباس العقاد .

الشمال بخاصة لأسباب سنشرها فيما بعد<sup>(٥)</sup> . وقد رأى أبو نواس في التغنى بتلك الأطلال تمجيداً وذكرًا للعرب وباديتهم وآثارهم وتقاليدهم ، فأعلنها ثورة على الأمرين جميعاً . ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه ربط الشاعر بينهما في قوله :

دع الرسم الذى دثرا يقاسى الريح والمطرا<sup>(٦)</sup>  
 وكن رجلا أضاع العد م فى اللذات والخطرا<sup>(٧)</sup>  
 ألم تر ما بنى كسرى وصـابور لمن غبرا  
 منازه بين دجلة والـ فـرات أحفها الشجرا  
 بأرض باعد الرحمـ ن عنها الطلح والعشرا  
 ولم يجعل مصايدها يرا بيعا ولا وجرا  
 ولكن حور غزلان تراعى بالملا بقرا

ثم يتكلم بالمرأة البدوية ويفضل الغلمان عليها فيقول :

تعد الشـيحـ والقـيصـو م والقـفـعاء<sup>(٨)</sup> والسـمـرا  
 جـنـى الآس والتـسـريدـن والسوسان إن زهرا  
 ويغنيها عن المرجا ن أن تتقلد البعرا  
 وتغدو فى برا جدها تصيد الذئب والنمرا  
 أما والله لا أشرا حلفت به ولا بطرا  
 لو أن مرقشا حيّ تعشق قلبه ذكرا  
 كأن ثيابه أطلعـن من أزراه قرا  
 يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

أما الحجج التى يقدمها شاعرنا بين يدي دعواه ، فقد مر بعضها فى الآيات

(٥) كان أبو نواس متحيزاً لعرب الجنوب لأن ولاءه فيهم .

(٦) ديوانه ص ٠٦٤ .

(٧) لعل أبا نواس فى هذا البيت يشير إلى ما فى دعوته من مخالفة لدراسته المستقيمة لأشعار العرب دراسة كانت تفيده كثيراً لو أنه أحسن استغلالها .

(٨) القفعاء : مسك البر (مخصص ج ١١ - ص ١٩)

السابقة حيث يسخر من تلك الأطلال التي أطل العرّب النوح عليها مع أنها لا تعد شيئاً بجانب ما تركته الدول الأخرى من آثار ، ويضرب مثلاً لذلك ببلاد فارس ومنازلها الجميلة ، وسهولها الخصبة ، مقارناً بينها وبين بادية العرّب التي لا ترى فيها من النبات سوى الأعشاب الشوكية ، ولا من الحيوان سوى الوجر واليرابيع ، وغيرها من الحيوانات والنباتات التي يصرّ شعراء العرّب على التغنى بها ، وكان جديراً بهم أن يستحووا من ذكرها ، أو العودة بأذهانهم إلى ماضيها البغيض .

وكأنه لم يقنع بمهاجمة الأطلال وحدها بل هاجم الغزل أيضاً ولم يعدم قولاً ، فقد وصف البدوية بالتخلف عن ركب المدنية ، مما يضعف ناحية الإغراء فيها ، وبرغم بعد ذلك أن الغلمان الوافدين إلى الجزيرة العربية من بلاد الترك والفرس أقدر على خلب العقول وتصيد الألباب منهم ، حتى أن مرقشاً لو تأخر به الزمن إلى العصر العباسي لما ترك هؤلاء الغلمان في قلبه فضلاً لسلمى ولا ليلي .

ويقول في مطلع قصيدة أخرى يمدح بها العباس بن عبيد الله بن المنصور :

ديار نوار ما ديار نوار<sup>(٩)</sup> كسونك شجواهن منه عوار<sup>(٩)</sup>  
يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار  
إذا كنت لا أنفك عن طاعة الهوى فإن الهوى يرمى الفتى ببوار  
فها إن قلبى لا محالة مائل إلى رشأ يسعى بكأس عقار  
كأن بقايا ما عفا من حبابها تفساريق شيب في سواه عذار

فهو يبدأ قصيدته متكبها من نوار وديارها ، متسائلاً عن مدى مالها من خطورة استحققت عليها كل ذلك الاهتمام ، ويلفت النظر إلى أنها حجارة صماء لا تعي ولا تعقل ، تثير في أنفسنا أشد العواطف مرارة ، وفي الوقت نفسه لا تشاركنا في حمل شيء منها .

ثم يعلن بعد ذلك اطراحه للوقار في سبيل ملذاته ، كما أعلن في القصيدة السابقة

(٩) ديوانه ص ٧٢ .

إضاعته للعلم في سبيلها أيضاً . ومن فوق منارة عالية<sup>(١٠)</sup> ، يرسلها صرخة مدوية في الآفاق ، فيخبرنا بأن آماله وأمانيه قد تبلورت في أمرين وإن شئت في أمر واحد ، غلام كأنه الظبي الغرير يسعى بكأس من الخمر ، وما دامت تلك هي أمانيه في الحياة ، وشغله الشاغل ، فلماذا لا يكون من حقه أن يبدأ بها شعره ، وأن يسترضى بها شيطانه ، وإذا كان القدامى قد بدأوا بالأطلال أو غيرها ، فلأن ذلك كان يستهوى عقولهم ، أما هو فهواه وعواطفه تدور حول أمور أخرى .

ولعل الأبيات التالية من خير ما قاله أبو نواس في الدفاع عن مذهبه .

مالي بدار نخلت من أهلها شغل ولا شجاني لها شخص ولا طلل<sup>(١١)</sup>  
 ولا رسوم ولا أبكى لمنزلة للأهل عنها وللجيران منتقل  
 ولا قطعت على حرف مذكرة في مرفقيها إذا استعرضتها فتل  
 بيداء مقفرة يوماً فأنعتها ولا سرى بي فأحكيه بها جمل  
 ولا شتوت بها عامماً فأدركني فيها المصيف فلبى عن ذلك مرتحل  
 ولا شددت بها من خيمة طنبا جارى بها الضب والحرباء والورل<sup>(١٢)</sup>  
 فهاك من صفتي إن كنت مختيرا ومخبرا نقرأ عني إذا سألوا

وحجته هنا في غاية البساطة والوضوح . إنه لا يعرف البادية ولا صلة بينه وبينها فلماذا إذن يبكي لها أو عليها ، ولم يركب إلى الممدوح ناقة ولا جملا فما حاجته إذن إلى وصفها ، أليس من الخير إذن أن يتحرى الصدق ويلتزم الواقع فيتحدث عما امتطاه حقيقة إلى ممدوحه ؟ إن هذا هو ما فعله حين قال في مدح الفضل البرمكي ، مشيراً إلى الأحذية .

إليك أبا العباس من دون من مشى

عليها امتطينا الحضرمي الملسنا<sup>(١٣)</sup>

(١٠) يدل على ذلك استعماله «ها» التي للتثنية .

(١١) ديوانه ص ٣٢٢ .

(١٢) الورل على وزن جمل دابة على خلقة الضب إلا أنه أضخم منه .

(١٣) ديوانه ص ٧٦ الحضرمي الملسنا . الرقيق من النعال .

قلائص لم تسقط جنينا من الوجى  
ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا<sup>(١٤)</sup>  
نזור عليها من حرام محرم  
عليه بأن يعدو بزائره الغنى

مدى تقيده برأيه هذا : -

قد يعجب المرء حين يرى بعض قصائد لأبي نواس مبدوءة بذكر الأطلال والدمن رغم هذه الحملة الشعرية التي أعلنها عليها . ولكن مهلاً فالأمر أدق من ذلك ، فلم يكن شاعرنا يخط خط عشواء ، ولكنه كان يتلون ويتصرف حسب الظروف والمناسبات ، فإذا مدح شخصاً يتهيه كهرون الرشيد ، سلك مسلك القدامي طوعاً أو كرهاً أو وقع قريباً منهم ، فهو يعلم أن هرون يكره منه الخروج على تقاليد العرب ، ولا سيما إذا كان ذلك عن كراهية أو احتقار لهم ، ويعلم أن سخط الخليفة ربما انتهى به إلى السجن<sup>(١٥)</sup> ولذا نراه يشتمل شملة الأعراب حين يمدحه فيقول :

حَيَّ الديار إذ الزمان زمان وإذ الشباك لنا حَرَى ومَعَان<sup>(١٦)</sup>  
يا حَبِذا سفوان من مترِّعٍ ولربما جمع الهوى سفوان  
وإذا مررت على الديار مسلماً فلغير دار أمية الهجران  
إن نسبنا والمناسب ظنة حتى رُميت بنا وأنت حصان

وكأنما عز على أبي نواس أن يخالف مذهبه حتى في أدقّ المواقف وأحرجها ، فإذا

---

(١٤) قلائص جمع قلوب وهي الشابة من الأبل - الوجى : الحفا - قرع الفنيق ضراب الصل - الهنا :

القطران يطلى به الأجر من الأبل . وأصله الهناء فقصره

(١٥) ربما جاهر الشاعر بأنه إنما يعود إلى ذكر الأطلال أحياناً خوفاً من الخليفة وامتنالاً لأمره كما في قوله .

أعر شعرك الأطلال والتمزل القفرا      فقد طالما أزرى به نعتك الحمرا  
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة      وإن كنت جشمتني مركباً وعرا

(١٦) ديوانه ص ٥٨ . جرى ومعان علان على مكابن

به يمزج الأطلال والدمن وخزة خفية في البيت الثالث .

وفي قصيدة أخرى يقول :

خلق الشباب وشيرتي لم تخلق      ورميت في غرض الزمان بأفوق<sup>(١٧)</sup>  
تقع السهام وراءه وكأنه      إثر الخوالف طالب لم يلحق  
وأرى قواى تكاءدتها رزية      فإذا بطشت بطشت رخو المرفق  
ولقد غدوت بدستبان<sup>(١٨)</sup> معلم      صحب الجلاجل في الوظيف مسبق  
حر صنعناه لتحسن كفه      عمل الرفيقة واستلاب الأخرق

ويستمر في الحديث عن صقره واستعانه به على صيد البط والأوز من بعض  
البرك القريبة من بغداد فيذكرنا بما يجري في عصرنا الحاضر أحياناً . وقد ينجل إلى  
المراء أن أبا نواس مبتدع هنا ، والحقيقة أنه يسير في خطا زهير بن أبي سلمى في  
قصيدته التي يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري والتي يبدوها بقوله :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة  
وعُرى أفراس الصبا ورواحله

وفيها يأخذ في وصف الطبيعة ، ثم ينتقل إلى الصيد ومنه إلى المدح وكل ما هناك  
من فرق بين زهير وأبي نواس أن كل منهما ذكر نوعا من الرياضة والصيد يناسب  
عصره فالأول كان يصيد الغزلان وحمير الوحش ، أما الثاني فيتحدث عن رياضة  
هينة لا يعنى بها إلا أهل الترف والنعيم .

ومن هذا الباب قصيدة قالها في الفضل بن يحيى البرمكي ، وكان معروفا  
بالصرامة والجد واحترام النفس ، ويبدوها بقوله :

أربع البلى إن الخشوع لباد      عليك وإني لم أحنك ودادى<sup>(١٩)</sup>

(١٧) نفسه ص ٦٠ . وبشره نكسر المثلثة وتشديد الراء: الطيش

(١٨) دستان: صقر.

(١٩) ديوانه ص ٧٣ .



فعدرة منى إليك بأن ترى رهينة أرواح وصوب غوادى  
 ولا أدرا الضراء عنك بحيلة فما أنا منها قائل لسعاد  
 وإن كنت مهجور القنا فيارمت يد الدهر عن قوس المنون قوادى  
 وإن كنت قد بُدلت بؤسى بنعمة فقد بُدلت عيني قذى برقاد  
 سأرحل من قُود المهاري شِيلة مشخرة لا تُستحث بحاد  
 مع الريح ما قامت وإن هي أعصفت تهوس برأس كالعلاعة وهاد (٢٠)

وقد تعجب إذا قلنا لك إن هذا المطلع من خير ما قيل في الأطلال حتى ذلك  
 العصر؛ حيث كان القدامى يمرون عليها من الكرام في بيتين أو ثلاثة ويكتفون  
 بقطرات من الدمع يريقونها على أرضها الصادية، أما أبو نواس فيربط بين صنيع  
 الزمان به وبالربيع ربطا عجيبا وجميلا. وإنما عجبنا لأنه من رافع لواء الثورة على  
 الأطلال. ويظهر أنه اعتصر ذهنه هنا ليثبت لمنافسيه أنه قادر على وصف  
 الأطلال لو شاء، أو كأنه يقول لهم إذا شتم بكاء الأطلال فهكذا وإلا فلا.

أما إذا كان بينه وبين الممدوح ألفة تذهب بالتوقر والتكلف فإنه يسترسل على  
 طبيعته ويقدم لمدحه بالخمر والغزل بالمذكر كما رأينا في قصيدته التي أنشدها في  
 العباس بن عبد الله. وربما جاوز المذكر والغزل فيه إلى ما هو شر منه كما ترى في  
 إحدى مدائحه للفضل بن الربيع وفيها يقول:

ياربع شغلك إني عنك في شغل لاناقتي فيك لو تدرى ولاجملي (٢١)  
 على عين وأذن من مدكرة موصولة بهوى اللوطى والغزل  
 كلاهما نحوها سام بهمته على اختلافها في موضع العمل (٢٢)  
 يا فضل غاية خلق الله كلهم إذا ضربنا بجود غاية المثل

أثر أبي نواس في غيره من الشعراء -

(٢٠) هاس: متى معتمدا على الأرض اعتادا شديدا، فلعله يعنى أنها حين تسرع تضغط الأرض نتيجة  
 لمركبة رأسها وعقها

(٢١) ديوانه ص ٨٦.

(٢٢) يشيخ إلى أن الأول يهيم بديرها والثاني بفرجها.

لقد نجح أبو نواس في أن يسلط الأضواء على قضية المطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة وشكك الناس في قداستها وبذلك فتح الطريق لكل ما أصابها بعد ذلك من تغير وتطور . ومع أن كثيراً من الشعراء لم يتقيدوا بمذهبه حرفياً ، إلا أنهم رغم ذلك تأثروا به من قريب أو بعيد . وكان أسرع الشعراء استجابة له معاصره ومنافسه أبو العتاهية<sup>(٢٣)</sup> ، وقد ظهر ذلك في قصيدة يمدح بها موسى الهادي وفيها يقول :

لهفي على الزمن القصير      بين الخورنق والسدير<sup>(٢٤)</sup>  
 إذ نحن في غرف الجنا      ن نـعموم في بحر السرور  
 في فتية ملكوا عنا      ن الدهر أمثال الصقور  
 مامنهم إلا الجسو      ر على الهوى غير الحصور  
 يتعاورون مدامة      صهباء من حلب العصير  
 عذراء رباها شعما      ع الشمس في حر الهجير

وإذا جاز لقائل أن يقول : إن تأثر أبي العتاهية كان بالجو العام المسيطر على العصر أكثر منه بشعر أبي نواس ، فإن هناك شاعرا آخر من معاصريه<sup>(٢٥)</sup> تبدو المحاكاة في شعره واضحة ، ونعني به أبا الشمقمق في قصيدته التي مدح فيها يزيد بن مزيد قائد الرشيد فقال :

رحل لم يكن بايزيد مطيةً      فجعلتها لك في السفار مطيةً<sup>(٢٦)</sup>  
 تخدى أمام اليعملات وتغثلى      في السير تترك خلفها المهرية  
 وإذا ركبت بها طريقا عامرا      تنساب تحتي كانسياب الحية  
 لولا الشراك لقد خشيت جاحها      وزمامها ما إن يمس يديه

(٢٣) يظهر أم أبا العتاهية خشى أن يبه أبو نواس بفخر ذلك النوع من التجديد ، فأنشد القصيدة المشار إليها ، وهي كما ترى حافلة بالحديث عن الخمر وجلسها وسقاتها .

(٢٤) الأغاني ج - ٣ - ص ١٥٦ .

(٢٥) معاصري أبي نواس .

(٢٦) تاريخ بغداد ٤ / ٣٣٦

حيث نرجع أنه قد تأثر في ذلك بقصيدة أبي نواس النونية التي مدح فيها الفضل البرمكي ، وأشار فيها إلى الأحذية ، وقد مرت بك منذ قليل .

وقد كان لثورة أبي نواس الفضل فيما شاع بعد ذلك من اقتضاب المطالع ، فإن كان لابد لبعض الشعراء من الإلمام بالناقة والصحراء في صدور قصائدهم احتراماً للعرف الأدبي ، وإبقاء على التقاليد ، فأولى بهم أن يَمروا بذلك مرّ الكرام ، كما فعل أبو العتاهية في لاميته التي مدح بها عمّ بن العلاء والتي يقول فيها .

إن المطايا تشتكك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالاً  
فإذا وردن بنا وردن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقلاً

وقد كان سرور ابن العلاء بهذا الاقتصاد شديداً ، حيث يروى (٢٧) أنه أعطاه سبعين ألف درهم أثار حسد زملائه من الشعراء وبخاصة مروان بن أبي حفصة فجمعهم عمر وقال لهم: يامعشر الشعراء عجباً لكم ، ماأشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشب فيها بصديقه بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره ، أما أبو العتاهية فقد شب بأبيات قليلة ثم قال: وذكر البيتين السابقين ، ويروى صاحب تاريخ بغداد (٢٨) أن مروان روى واقفاً بباب الجسر كئيباً أسفاً ينكت بسوطه في معرفة دابته فقيل له: ماالذي نراه بك ياأبا السَّمْط؟

قال: أخيركم بالعجب ، مدحت الأمير فوصفت له ناقتي من خطامها إلى خفيها ، ووصفت الفياثي من الإمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ، ورملة رملة حتى إذا أشفيت منه على غني الدهر جاء ابن بائعة النواخير - يعني أبا العتاهية - فأنشده بيتين ضعضع بهما شعري . وأشار إلى البيتين السابقين:

ويصعب على الباحث أن يضع المحاولات المختلفة التي قام بها الشعراء بعد دعوة أبي نواس لتطويع المطالع لظروف العصر وظروف الموضوع تحت عنوان أو اثنتين

(٢٧) ابن خلكان ج - ١ - ص ٧٢ .

(٢٨) تاريخ بغداد / ٢٥٨

لكثرتها وافتنان الشعراء فيها . وبالرغم من ذلك يمكن مع شيء من التساهل تقسيمها إلى نوعين :

الأول منها حاول الشعراء فيه خدمة الغرض الأساسى من أول القصيدة مباشرة . وذلك بتكليف الجو العام للغزل تكييفاً خاصاً بحيث يلقى أضواء وظلالاً مختلفة ويحدث ارتباطات متنوعة شعورية ولا شعورية ، تلتقى فتألف وتتعاون جميعاً على إصابة الهدف الذى يرمى إليه الشاعر ، وأهم ما يتوسلون به إلى ذلك اختيار ضمائر الخطاب فى الغزل بحيث تصلح للمذكر والمؤنث ، ثم دسّ المعانى أو الشكاوى التى يريدون أيضاها إلى أذن الممدوح ، فتصل إليها بين التعريض والتلميح . وتقع من النفوس أجمل موقع وأعذب . ومن أمثال ذلك قول أبى العتاهية فى مطلع مدحته لعمر بن العلاء (٢٩) .

ياصاح قد عظم البلاء وطالا	وازددت بعدك صبوة وخبالا
حُمِلْتُ ممن لا أنوّه باسمه	ثقلا كأن به علىّ جبالا
ماذا لقيت من الهوى وسقامه	فيها تبارك ربنا وتعالى
يامن تفرد فى الجبال فلاترى	عيني على أحد سواه جبالا
أكثرت فى شعري عليك من الرقى	وضربت فى شعري لك الأمشالا
فأبيتَ إلا جفوة وتمسعا	وأبيتُ إلا صبوة وضلالا

وقول البحترى يمدح المتوكل :

عذيرى فيك من لاح إذا ما  
شكوت الحب حرقنى ملاما (٣٠)  
فلا وأبيك ما ضيعت عهدا  
ولا أبيتك ما قارفت ذاما  
ألام على هواك وليس عدلا  
إذا أحببتُ مثلك أن ألاما

(٢٩) برائق فى أبى العتاهية ص ١٧٧ .

(٣٠) ديوانه ص ٢٢٤ .

لقد حرّمتَ من وصلى حلالاً  
وقد حلّلتَ من هجرى حراماً

وقوله يمدح الفتح بن خاقان ويعاتبه :

عنتَ كبدى قسوة منك ما إن تزال تجدد فيها ندوبا (٣١)

ومنه أيضاً قول أبي الطيب المتنبي ، يعاتب سيف الدولة ويمدحه :

واحر قلباه ممن قلبه شيم ومن يجسمى وحالى عنده سقم (٣٢)  
مالي أكتّم حبا قد برى جسدى وتَدعى حبّ سيف الدولة الأُمم  
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نققسم

وقول ابن المعتز مفتتح مدحه للمعتضد ، وقد نفاه وحال بينه وبين مجالسه :

أتسمع ما قال الحمام السواجع وصائح بين فى ذرا الأبك واقع  
مُنعا سلامَ القول وهو محلل سوى لمحات أوتشير الأصابع  
وإنى لمغلوب على الصبر إنه كذلك جهل المرء للحب صارع

فظاهر هذه المطالع جميعها التشبيب بفتيات معروفات للشعراء . ولكننا مع

ذلك واثقون من أن قول أبي العتاهية مثلا :

يا من تفرد فى الجبال فلا ترى

عيسى على أحد سواه جمالا

لا بد أن يسترعى انتباه ابن العلاء ، حتى ليكاد يظن أنه المخاطب به دون غيره

من البشر ؛ لأن خلوه من ضمير المؤنث يجعله صالحا لأن يوجه له مباشرة أليس من

الجبال ما هو خلقى يصلح للرجال وغير الرجال ؟

ومثل هذا يمكن أن يقال فى قول البحرى للمتوكل .

---

(٣١) ديوانه ص ١٥ . عناه الأمر يعنيه بفتح ياء المضارعة أهّمه .

(٣٢) ديوانه ج - ٣ ص ٣٦٢ .

ألام على هواك وليس عدلا إذا أحببت منك أن ألاما  
وأما قوله للفتح بن خاقان :

عنت كبدى قسوة منك ماإن تزال تجدد فيها تدوبا  
وقول ابن المعتز للمعتضد :

منعنا سلام القول وهو محلل سوى لمحات أوتشير الأصابع  
وقول أبي الطيب لسيف الدولة :

وأحر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمى وحالى عنده سقم  
فلايد أن يلفت نظر المدوحين إلى موقفهم من الشعراء عند بدء القصيدة  
مباشرة . ولئثل هذه المبادرة خطرهما حيث تثير شكوى الشاعر بطريق غير مباشر؛  
فتخف على الأسماع وتسرع إلى القلوب .

ولعلنا الآن قد أدركنا الفرق بين غزل هذا العصر وغزل العصور السابقة من مثل  
قول كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متمم إثرها لم يفد مكبول  
فإنه على جودته محصور فى دائرة ضيقة هى دائرة الغزل بالمرأة . أما الأمثلة التى  
سقناها آنفا فهى كالقطعة الثينة من الماس يحسن الصانع صقلها بحيث ترسل  
إشاعات مختلفة ، تحلب الأبصار ، وتبهر العقول .

ومما لا شك فيه أن الشعراء الأوائل لم يكونوا يلقون بالا إلى مثل تلك المعانى  
الجانبية والأشارات الخفية ، فقصيدة « بانت سعاد » السالفة الذكر متضمنة لأمر لم  
تسرع التفات الشاعر ولا الرسول ، وإلا لكانت هجوما صريحا على الأخير  
كقوله (٣٣) .

---

(٣٣) ذهب الدكتور عبد الله الطيب فى محاضراته التى ألقاها عما نشستر ، والتي أشرنا إليها من قبل أن الشاعر  
كان يلوح منا بغضب الرسول عليه ، فهو بذلك لايرى رأينا .

فيالها خلة لو أنها صدقت  
بوعدها أو لو أن النصح مقبول (٣٤)  
لكنها خلة قد سيط من دمها  
فجع وولع وإخلاف وتبديل  
فما تدوم على حال تكون بها  
كما تَلَوْنَ في أثوابها الغول  
ولا تَمَسَّكَ بالوعد الذي وعدت  
إلا كما يمك الماء الغرابيل  
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً  
وما مواعيدها إلا الأباطيل

وإنما بدءوا يفطنون لها في عصور متأخرة بعد أن لفت المدوحون أنظارهم إليها ، إذ يبدو أن المدوح وهو المقصود والمخاطب بالقصيدة يكون من أدق الناس ملاحظة عند إنشادها . رووا أن ذا الرمة لما أنشد عبد الملك قوله :

ما بلل عينك منها الماء ينسكب  
كأنه من كلي مفرية سرب (٣٥)

وكان يعين الأخير علّة فهي تدمع أبداً ، قال : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ، وأمر به فأخرج من المجلس وأشبه ذلك كثير . ومنذ ذلك الحين بدأ الشعراء والنقاد يفطنون لمثل تلك الارتباطات الخفية ويتجنبون التورط فيما تورط فيه سلفهم من أخطاء . وكان مما قاله أبو هلال في ذلك : « ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه ، ويستجنى من الكلام - ولا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني . . . فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه وإن كان يعلم أن الشاعر يخاطب نفسه دون المدوح (٣٦) » .

(٣٤) سيرة ابن هشام ح - ٤ ص ١٥٤ .

(٣٥) الصناعتين ص ٤٣١

(٣٦) نفسه .

ولم يكتف الشعراء بهذه الناحية السلبية التي فطن إليها أبو هلال ، بل كانوا إيجابيين على النحو الذي أشرنا إليه .

أما المحاولة الثانية فقد قام بها أبو تمام ، وإن لم يشعر كثير من الناس بجهوده في تلك السبيل . وبيان ذلك أن أبا تمام مداح يستغل كل وسيلة ممكنة ، وكل لفظ في القصيدة لتحقيق الهدف الذي يسعى إليه من إطراء الممدوح والتأثير عليه . وطبيعي والحال هذه أن يحمّل المقدمة نصيبها الموفور من خدمة تلك الغاية . ولذا لم يستطع أن يهبها للغزل التقليدي الذي دب إليه الفتور في آخر أيامه ، وكانت وسائله إلى ذلك كثيرة ومتنوعة ، إلا أننا نحب أن نسجل هنا أجر تجربتين قام بهما في هذا الصدد . في الأولى منها حاول أن ينحو بالمقدمة منحى كتاب القصص في عصرنا الحاضر من حيث استعراض الماضي في لمحات خاطفة قبل الدخول في الموضوع<sup>(٣٧)</sup> ترى ذلك في مثل قوله يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري<sup>(٣٨)</sup> :

أطلهم سلبت دُماها الهيفا	واستبدلت وحشا بين عكوبا
يامتزلا أعطى الحوادث حكما	لامُطْلَ في عدة ولا تسويفا
أرسي بعرصتك الندى وتنفت	نفسا بعقوتك الرياح ضعيفا <sup>(٣٩)</sup>
شغف الغمام بعرصتيك وربما	رَوّت رباك الهائم المشغوبا
ولئن ثوى بك مقلبا أجرامه	ضيف الخطوب لقد أصاب مضيفا
وهي الفجائع لم تزل نكباتها	بألفن ربع المنزل المألوبا
خلفت بعقوتك السنون وطالما	كانت بنات الدهر عنك خلوبا
أيام لا تسطو بأهلك نكبة	إلا تراجع صرفها مصروفا
وإذا رمتك الحادثات بلحظة	ردت ظباؤك طرفها مطروفا

إلى آخر ما قاله في تلك المقدمة . ونحن لا نشك في أن القارئ لها يدرك بسهولة

---

(٣٧) هذا التشابه يجعلنا نعتقد أن الفكر العربي في تلك الفترة من الزمن كان قد تهيأ للقصص ولكنه تحت ظروف مختلفة وقف عند هذا القدر المتواضع في الشعر ، كما وقف عند المقامة في النثر .

(٣٨) ٢٠٤ ديوان .

(٣٩) العقرة : بفتح المهملة وسكون المثناة الفراغ المحيط بالدار .



الفرق بينها وبين قول امرئ القيس مثلاً :

فما نبتك من ذكرى حبيب ومنزل      بسقط اللوى بين الدخول فحول  
فتوضح فالحِقْرَاءَ لم يَعْفُ رسمها      لَمَّا نَسَجَتْهَا من جنوب وشمال  
ترى بحر الآرَامِ في عَرَصَاتِهَا      وقيعانها كأنه حب لفل

حيث قنع امرؤ القيس بتصوير الأثر المائل بين يديه والوقوف عند حدوده ، بينما يحاول الطائي أن يربط بينه وبين الماضي ، مستثيراً هذا بذكر ذاك ، على أن مجهوداته كانت أبعد أثراً وأشد وضوحاً في ميدان آخر هو ميدان المطالع الطبيعية ، ونعني بها تلك المطالع التي تتحدث عادة عن الطبيعة وعن الأمطار والسيول ، وما ينبت عليها من ورود وأزهار ونحوها ، وإحلال ذلك محل الدمن والأطلال والنساء والغزلان .

وقد ظهر ذلك النحو من المطالع في العصر الجاهلي ومنه قصيدة زهير بن أبي سلمى التي أشرنا إليها سابقاً<sup>(٤٠)</sup> ولكنه كان قاصراً حيث لم يربط بين وصف الطبيعة والمدح<sup>(٤١)</sup> على عادة الجاهليين من الفصل الظاهري بين المقدمة والموضوع ، اللهم إلا ما كان من ربط ضعيف في مثل قول أوس بن حجر :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه      في عارض كيباض الصبح لَمَّاح  
دانٍ مسفٍ فوق الأرض هَيْدَبِه      يكاد يدفعه من قام بالراح

ثم وصله بالدعاء والمدح فقال :

سقى ديار بني عوف وساكنها      ودار علقمة الخير بن صباح  
وأما أبو تمام فشرع طريقة جديدة استمد عناصرها الأولى من زهير ومن بعده ،

---

(٤٠) نقصد قوله : صحبا القلب عن سلمى وأقصر باطله . وعرى أفراس الصيا ورواحله ويظهر أن الجاهليين فعلوا ذلك تحملاً للملل وطلباً للتجديد فلم يكن مجرد مصادفة أن يظهر هذا النحو من التجديد عند إمامي الصنعة في العصرين الجاهلي والعباسي بل كان عن قصد . ومغزاه في نظرنا أن كلا منهما يبذل جهده في الرقي بصناعة والافتتان فيها .

(٤١) وهذا متفق مع عادة الجاهليين من عدم الربط بين المقدمة والغرض الأصلي بأكثر من مثل قول زهير .  
دع ذا وعد القول في هرم      خير السيدة وسيد الخضر  
فتأويل هذا عندهم : دعك من أحاديث الدمن والأطلال وانتقل بنا إلى ما هو أهم من ذلك .

ولكن أبا تمام بعقليته الجبارة استطاع أن يحيل تلك العناصر الأولية إلى مثل تلك الصورة البارعة التي نراها في قوله بمدح المعتصم .

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تُمَرِّمِرُ      وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ<sup>(٤٢)</sup>  
بذلت مقدمة المصيف حميدة      ويد الشتاء جديدة لا تكفر  
وقد أخذ في وصف الطبيعة حتى قال :

يا صاحبِيْ تَقْصِيْبًا نَظْرِيْكَمَا      تَرِيَا وَجُوهُ الْأَرْضِ كَيْفَ تُصَوِّرُ  
تَرِيَا نَهَارًا مَشْمَسًا قَدْ شَابَهُ      زَهْرُ الرَّبِيِّ فَكَأَنَّمَا هُوَ مَقْمَرُ  
دُنْيَا مِعَاشٍ لِللُّورِيِّ حَتَّى إِذَا      حَلَّ الرَّبِيْعُ فَأَنَّمَا هِيَ مَنظَرُ  
أَبْضَحَتْ تَصَوُّغَ بَطُونِهَا لظُهُورِهَا      نَوْرًا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تَنُورُ  
مِنْ كُلِّ زَاهِرَةٍ تَرْتَفِقُ بِاللُّدَى      فَكَأَنَّهَا عَيْنُ إِلَيْكَ تَحْدَرُ  
تَبْدُو وَيُحِجُّهَا الْجَحِيمُ كَأَنَّهَا      عِذْرَاءُ تَبْدُو تَارَةً وَتَحْفَرُ<sup>(٤٣)</sup>  
حَتَّى غَدَتْ وَهَدَاتِهَا وَنَجَادَهَا      فَثَيْنٌ فِي حَلْلِ الرَّبِيْعِ تَبْخَتُرُ

وبعد عدة أبيات على هذا النسق يصل الحديث عن الطبيعة بالمديح فيقول :

خَلَقَ أَهْلًا مِنَ الرَّبِيْعِ كَأَنَّهُ      خَلَقَ الْأَمَامَ وَهَدِيَةَ الْمُنْتَشِرِ  
فِي الْأَرْضِ مِنْ عَدَلِ الْأَمَامِ وَجُودِهِ      وَمِنْ النَّبَاتِ الْغَضِّ سُرْجُ تَزْهَرِ  
تُنْسِي الرِّيَاضَ وَمَا يُرَوِّضُ فَعَلَهُ      أَبَدًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُذَكَّرُ

والدارس لمثل هذه القصيدة ينبغي أن يفطن إلى أمرين : أولها إخراج الورود في صورة العذارى ، وكأن أبا تمام وهو يبحث عن شيء جديد تشترك العواطف الإنسانية جميعها في التعلق به ليحله محل المرأة طلبا للتجديد وفرارا من التكرار - لم يجد شيئا أيسر منالا من الأزهار . ولذا نراه يمزج بين البذل والمبدل منه ليلفت الأنظار إلى أنه لم يسرف في تجاهل تقاليد الشعر العربي حين وضع الطبيعة موضع المرأة ، وأسبغ عليها من عواطفه وأعجابه ما كان سواه من الشعراء يسبغه على المرأة وديارها .

(٤٢) يقال مرمر جسم الجارية أى اهتز وترجرج .

(٤٣) الجميم: نبت يطول حتى يصير مثل جمّة الشعر ، كذاني اللسان .

وثانيهما الربط القوي البديع بين الحديث عن الطبيعة والموضوع الأصلي وهو أمر لم يسبق إليه<sup>(٤٤)</sup> مما يجعل المقدمة تبدو كأنها جزء من المدح ، أو المرحلة الأولى من مراحلها .

وليست هذه القصيدة هي المحاولة الأولى لأبي تمام في هذا الصدد بل له أكثر من محاولة مشابهة نذكر منها قصيدة أرسلها إلى إبراهيم والفضل كاتبى عبد الله بن طاهر يعتذر إليهما حين حبسه المطر عنهما وفيها يقول :

منع الزيارة والوصول سحائب شم الغوارب جأبة الأكتاف<sup>(٤٥)</sup>  
ظلت بنى الحاج الملح وأنصفت عرض البسيطة أيما إنصاف<sup>(٤٦)</sup>  
إلى أن قال :

إن الشتاء على شتامة وجهه هو المفيد طلاقة المصطاف  
وكأما آثارها من مزنة بالميث<sup>(٤٧)</sup> والوهداث والأخفاف  
آثار أيدي آل مصعب التي بسطت بلا من ولا إخلاف

وربما جمع أبو تمام بين وصف الطبيعة والحديث عن الخمر في مطالعه كما فعل في تلك القصيدة التي مدح بها محمد بن حسان الضبى<sup>(٤٨)</sup> .

ومعرس للغيث يخفق فوقه رايات كل دجنة وطفاء  
نشرت حدائقه فصرن مطارفا لطرائف الأنواء والأنداء

(٤٤) لأستاذه مسلم بن الوليد محاولة كان فيها أقل نضجا من أبي تمام ، ونشير بذلك إلى قصيدة ربط فيها بين الخمر والمدح ربطا صعبا فقال :

إذا شئت أن تسقياني مدامة فلا تقتلاها كل ميت محرم  
خلطنا دماً من كرمه بدمائنا فائر في الألوان منا الدم الدم  
فن لامي في اللهو أو لام في الندى أبا حسن زيد الندى فهو ألوم

وظاهر أن مسلم وهو أحد أقطاب الصنعة في العصر العباسي لم يقنع بما كان يفعله سلفه أبو نواس من التمهيد بذكر الخمر بل ربط بينها وبين المدح كى تبدو كأنها جزء منه .

(٤٥) ديوانه ص ٢٠٤ جأبه : عريضة .

(٤٦) الحاج . جمع حاجة .

(٤٧) الميث : الأرض اللينة ، والوهداث : الحصر ، والأخفاف : سفوح الجبال أو نحوها في الارتفاع .

(٤٨) شرح ديوانه للخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ص ٢٢ .

فسقاه مسك الطل كافور الندى وانخل فيه خيط كل سماء  
غنى الربيع بروضه فكأنما أهدى إليه الوشى من صنعاء  
صبحته بسلافة صبّحتها بسلافة الخلطاء والندماء (٤٩)

وكان أهل الأندلس أشد الناس ولوعا بهذا النوع من المقدمات ، ولعل هذا راجع إلى جمال البيئة الأندلسية نسيبا واختلاطهم بالأجانب ثم ميلهم إلى اللهو والمتعة وعشقهم للطبيعة وحرصهم على الاستمتاع بها ، وقدرتهم على تدويقها ، فقد روى أن نهر أشيلية على عهد العرب كانت تحف به جنان متصلة من الجانبين ، وكانت الزوارق تهادى فوق سطحه ليلا ونهاراً بطلاب المتعة وفيهم المغنون والموسيقيون ويؤكد الشقندي صاحب هذا الخبر أنه زار مصر ورأى نيلها فكان في هذا دون نهر أشيلية (٥٠) وأول نص يصادفنا من الشعر الأندلسي في هذا الباب قول أبي عمر يوسف بن هرون الرمادى من شعراء القرن الرابع الهجرى يمدح ابن القرشية :

تأمل يائز العيّم من زهرة الندى  
حياة عيون متن قبل التغميم (٥١)  
تعجبت من غوص الحيا في حشا الثرى  
فأفشى الذى فيه ولم يتكلم

ثم قال بعد عدة أبيات رابطا بين الطبيعة والمدح على طريقة أبي تمام :

وإن جتتا بالشمس والبدر والحيا  
مفاخرة جاءت بأسنى وأكرم  
بعبد العزيز ابن الخلائف والذى  
جميع المعالى تنتمى حيث ينتمى

واستغل الجزيرى من شعراء القرن الرابع أيضا الطبيعة في إطراء المنصور ومدحه أيما استغلال ومن ذلك قوله :

(٤٩) السلافة الخالص من كل شيء - والمراد بالسلافة الأولى الخمر والثانية المدوح .

(٥٠) راجع الشقندي في الجزء الثانى من نصح الطيب ١٥٠ .

(٥١) الحلة السيرة ص ١٠٩

وعلى يمينك سوسنات أطلعت  
فكأنما هي في اختلاف رقومها  
في مجلس جمع السرور لأهله  
ويقول في قصيدة أخرى:

حيّنتك ياقر العلاء والمجلس  
زهر تريك بحسنها ويلونها  
ملّكنَ أفئدةَ الندامى كلما  
ملكَ الهمام العامريّ محمد  
أزكى تحيتها عيون النرجس<sup>(٥٣)</sup>  
زهر النجوم الجاريات الكنس  
دارت بمجلسهم مدار الأكوّس  
للمكرمات وللنهي والأنفس

ويظهر أن تعلق المظفر بن أبي عامر بالأزهار ، أو بالمدح ، أو بكليهما قد زاد من اهتمام الشعراء بهذا الفن الجديد ، فقد روى<sup>(٥٤)</sup> صاحب البيان المغرب أن المظفر بن أبي عامر اقترح على شعرائه في بعض أوقات الربيع من دولته قطعا نوارية في المنشور وهو الخيري وفي الزهر وغير ذلك من أنواع النوار . وكان شديد الإعجاب بذلك ، كثير الطلب لأنواعه في مظانه ، وأحب أن يدخلها قيانه في أغانيه ، واكتب كثير منه في وقته لحسنه وغرابتة في معناه وكان من مستحسنه قول أبي العلاء صاعد بن الحسين البغدادي في الآس:

من كان وده للآس متها  
نعم الصديق فما يخشى تلونه  
إذا رآه أبو مروان ذكّره  
فإن عندي ودغير متهم<sup>(٥٥)</sup>  
على معاقبة الإصباح والظلم  
تهافت الركب في القيعان والأكم

وقوله في الترنجان: م

لم أدر قبل ترنجان مررت به  
من طيبه سرق الأترجج نكهته  
أن الزمرد قضبان وأوراق<sup>(٥٦)</sup>  
ياقوم حتى من الأشجار سراق

(٥٢) نفع الطيب - ج - ١ - ص ٢٤٩ .

(٥٣) المرجع السابق .

(٥٤) ج ٣ ص ١٨ .

(٥٥) نفسه .

(٥٦) نفسه الذي ورد في اللسان ترنجج بجلف الألف والنون .

يشارك الخمر في نقي الهموم إذا ماشمه مؤثر بالهجر مشتاق  
كأنما الحاجب اليمون علّمه فعل الجميل فطابت منه أعراق

والتأمل في هذه المقطوعات يراها تجرى على نسق شعر أبي تمام والرمادى  
والجزيري من حيث إدماج الأزهار في النسيج العام للقصيدة ، فتبدو وكأنها  
وشي يطرز به الشعراء ما يخلعونه على سادتهم من حلل المدح والثناء . وفي عصر  
ملوك الطوائف الذي يمثل العصر الذهبي للأدب في الأندلس ، أقبل الشعراء على  
هذا الفن إقبالا شديداً . ولدينا قصائد كثيرة بعضها وشيت مطالعه بوصف  
الطبيعة ، وبعض بالخمر ، والثالث بهما جميعاً . ومن أمثلة الأول قول أبي  
حفص بن الشهيد يمدح المعتصم بن صمادح من ملوك الطوائف :

سقى كل غيث صادق البرق وابل منابت نوار الربى والخائل (٥٧)  
فروى غصونا كالقدود تطلعت من أوراقها في مثل خضر الغلائل  
خليلى عوجا بي على الربيع دراساً نحى رياضاً أحدقت بجداول  
ملاعب كاسات ونزهة أعين ومسلى لمشتاق وذكري لغافل  
وأحسن من روض تحلى بنوره محيا ابن معن في حلى الفضائل  
جواد كأن الأرض جمعاء راحة له وبحور الأرض خمس أنامل

وينبغي أن يلاحظ الدارس ما في البيت الثاني من مزج بين صور الطبيعة  
الإنسان ، يتفق مع ما ذكرناه في غير هذا المكان من أن الطبيعة حلت عندهم  
محل المرأة ، والإشارة إلى الربيع الدارس في البيت الثالث يؤكد هذا المعنى حيث  
أخذ يبكى ديار الأزهار كما كان العرب فيما سبق يبكون ديار الأحبة (٥٨) ومن  
الثاني قوله في ابن صمادح أيضاً :

فشربتها كلف ألفؤاد عميدا راحا وكانت مرة عنقودا (٥٩)  
ختمت بطينتها وزمزم حولها قس وغادر بابها مسدودا

(٥٧) الدخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٩٦ .

(٥٨) وقد صرح الصنوبري من شعراء الشام بأن الرياض صرفته عن الأطلال - الطبيعة للدكتور نوفل ص

(٢١١) .

(٥٩) الدخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١٩٩ .

وئُتوسيت فكان صفّ دنانها      في الحان أصحاب الرقيم وقودا  
وكأنما الخمار كلهم وقد      ألقى ذراعيه وسد وصيدا  
فإذا شممت فسكة مفتوقة      وإذا لحظت فبارقا معقودا  
وإذا طمعت فريق أشنب واضح      شفّ المشوق تجتبا وصدوداً  
حُدِيَتْ على خلق ابن معن فاغدت      أملا وكنزا للسرور عتيدا

ومن الثالث قصيدة لأبي عامر بن شهيد أرسل بها إلى المؤمن عبد العزيز ابن  
أبي عامر وفيها يقول عن المطر وأثره في الرياض<sup>(٦٠)</sup> ويصل ذلك بالخمير  
وبجالسها:

أما الرياح يجو عاصم      فحلبن أشطار الغمام  
سهر الحيا برياضها      فأسالها والنور نائم  
حتى اغتدت زهراتها      كالغيد بالّج العوام  
من ثيبات لم تُبَل      كشفت الخدود ولا المعاصم  
وصغار أبكار شكت      خجلا فعادت بالكائم  
ورد كما خجلت خدو      د العين من لحظات هائم  
بكر الحسان يردنها      من كل واضحة الملاغم<sup>(٦١)</sup>  
وضحكك عجبا فالتقت      فيها المباسم بالمباسم  
وكانني فيهم لقيم      ط قاد من أحياء دارم  
وتكاوست فيها الأبا      رق وهي فاهقة الخلاقم<sup>(٦٢)</sup>  
فكاننا فيها العفارت      والكؤوس من الرواجم  
وأغن من سدن الملو      ك سليل أقيال خضارم

(٦٠) أرسلها إليه ضمن رسالة طويلة يستحديه ضيعة . والمؤمن من أحفاد المصور مؤسس دولة بني عامر  
بالأندلس في النصف الثاني من القرن الهجري الرابع . ولما زالت دولتهم في أواخر ذلك القرن ظل موالى آباءه  
وأتباعهم متربصين حتى إذا سقطت الدولة الأموية في صدر القرن الخامس الهجري وانقسمت الأندلس إلى  
دويلات يحكمها أمراء يسمون بملوك الطوائف أمر هؤلاء المولى المؤمن المذكور عليهم في بلنسية بشرق الأندلس  
وأقام لنفسه ملكا هناك الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ١٦٩

(٦١) الملاغم بالغين المعجمة مأحاط بالفم

(٦٢) تكاوست . تراكمت

يشكو الرُّعات تنعمًا      ويضجمن حمل التائم  
لاستحيه الراشفا      ت ولاتباليه اللوائم  
لازمت باب محله      والنجح من قنص الملازم  
وبعيدة الأرجاء نا      زحة على أيدي الرواسم  
من فتنة قد أسبلت      ظلماتها بيد المظالم  
فكأننا عمى نسا      ق على العمى في ظل عاتم  
حتى انتضى عبد العزيز      ز عزيمة من صدر عازم  
فبدت لنا سبل الهدى      بنواجم غير الهواجم  
ضرب الأعاجمَ سودها      بالسد من بيض الأعاجم

وقد عز على أهل المجون ألا يستغلوا بضاعتهم في التمهيد لمداثهم ، مع أن  
المجون جدير بأن يبعث السرور والانتعاش في نفس المدوح ، فيزيد في عطاء  
الشاعر ، ويبالغ في إكرامه . وأبو الشمقمق من أسبق الشعراء إلى هذا النوع من  
المقدمات . وقد روى له ابن المعتز في طبقاته قصيدة خفيفة الظل يمدح فيها هارون  
الرشيد ويقول في أولها:

عاد الشمقمق في الخسارة      وصبا وحنً إلى زارة (٦٣)  
ويقول في ثنائها:

إن العيال تركتهم      بالمصرأ كلهم العصاره  
وشراهم بول الحما      ر مزاجه بول الحماره  
وحينما استفحل المجون في الشعر ، وكلف الناس به ، واشتد إقبال الرؤساء  
عليه ، وعظمت عطاياهم لأصحابه في القرن الرابع للهجرة - حين ذاك طالت  
المقدمات الماجنة حتى كادت تطفى على الغرض الأول وهو المدح . ومن ذلك  
قصيدة أبي حامد الأنطاكي التي يقول فيها:

ولقد دخلت على الصيد      ق في البيت في اليوم المطير (٦٤)  
متبخترا متشمرا      للصفح بالدلو الكبير

(٦٣) ص . (٦٤) بيتة الدهر ج ١ ص ٢٨٤ .



فأدرت حين تبادروا  
يا للرجال تصافعوا  
لاتغفلوه فإنه  
هو في المجالس كالبخو  
ولأذكرن إذا ذكر  
ولأحزنن لأنهم  
رحلوا وقد خبزوا الفطير  
والذي نطق النبي  
ما للإمام أبي عسلى  
دلوى فكان عمى المدير  
فالصفع مفتاح السرور  
يستل أحقاد الصدور  
ر فلا تملوا من بخور  
ت أحبتي وقت السحور  
لما دنا نضج القدور  
ر ففاتهم أكل الفطير  
يُ بفضلته يوم الغدير  
ي في البرية من نظير

وواضح أن المدوح لم يحظ من القصيدة إلا بالبيتين الأخيرين وإن كان في الحقيقة قد فاز بها جمعاء حيث استمتع بما فيها من فكاهة ومجون وإطالة المقدمات على هذا النحو تذكرنا بآبن الساعاني ،<sup>(٦٥)</sup> فقد كان يسرف في الغزل إسرافا يجعل القارئ لمدائحہ يتساءل عما إذا كان موضوعه الأصلي هو الغزل أم المدح .

#### المتنبي والمقدمات:

إن الوظيفة الطبيعية للمقدمات هي رفع الحال المعنوية وتقوية الانفعال عند المنشد والسامع ، ومن أجل هذا خاض القدامى في ذكر البوادي وحيوانها ، ومن أجله أيضا ثار أبو نواس على البوادي ، وأحل الخمر وسقائها محلها ، وقد عرفنا من قبل مدى ما في ثورته من منطق ، خلاصته أن شيطانه يهيج في محارِب الحانات بنفس الدرجة التي يهيج بها شياطين أسلافه عند رؤية الدمن البالية ، والأطلال الدارسة .

ثم نتقل إلى أبي الطيب لنقول ، أنه كان ذا شخصية متمردة ، لا تخضع لقانون ، ولا تخفى هامتها أمام نير العرف ، ولذا نراه يجهر بمهاجمة المقدمات الغزلية

(٦٥) من شعراء القرن السادس الهجري .

لما فيها من نفاق لا تحتمله طبيعته ، وتكلف لا تطمئن إليه نفسه ترى شاهدا على ذلك في قوله مادحا سيف الدولة :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم      أكل فصيح      قال شعرا متيم ؟  
لحُبِّ ابن عبد الله أولى فإنه      به يبدأ الذكر الجميل ويُختم  
أطعت الغواني قبل مطمح ناظري      إلى منظر يصفرن فيه ويعظم

والآن وقد ثار على أكثر الموضوعات التي يقدم بها الشعراء لقصائدهم شيوعا ، وهو الغزل أين يتجه ؟

الجواب يسير ، فإذا كان القدامى قدّموا بأحب الموضوعات إلى أنفسهم ، وإذا كان أبو نواس قد تحول بتلك المقدمات إلى ما يعنيه من متع الحياة وملاهيها ، فلماذا لا يطلق هو أيضاً نفسه على سجيّتها ، ويضع في مقدمات قصائده أهم ما يشغل نفسه ويقض مضجعه من شئون هذه الحياة ؟ وأي خير فيه وفي شعره إن لم ينفس بعض ما يجيش في صدره من نقمة على الزمان ، وعتاب لدوى السلطان ، وتعال على الأقران ، واعتزاز بالنفس ، واعتداد بالمواهب ، وغير ذلك من دعاوى عريضة ، وشكاوى مرة ، تستخفي فتأخذ صورة الحكمة والمثل ، ثم ترمى النقاب جانبا ، فتكون هجوما عنيفا وثورة عارمة . وبين يدي قصيدتان تفسران صنيعه في هذا الميدان تفسيراً دقيقاً ، أولاهما بائته في مدح كافور الإخشيدي ، ويبدوها بقوله :

مُنَى كُنْ لِي أَنْ الْبِياضِ خِضابِ

فيخفى بتييض القرون شباب (٦٦)

ليالى عند البيض فوداي فتنة

وفخر وذاك الفخر عندي عاب

فكيف أذمّ اليوم ما كنت أشتهى

وأدعو بما أشكوه حين أجاب ؟

جلا اللون عن لون هدى كل مسلك  
 كما انجاب عن ضوء النهار ضباب  
 وفي الجسم نفس لا تيب بشبيه  
 ولو أن ما في الوجه منه حراب  
 لها ظُفْرٌ إن كَلَّ ظُفْرُ أُعْدَه  
 وناب إذا لم يبق في الفم ناب  
 وإني لنجم تهدي بي صحبتي  
 إذا حال من دون النجوم سحب  
 غني عن الأوطان لا يستغزني  
 إلى بلد سافرت عنه إياب (٦٧)  
 وما العشق إلا غيرة وطاعة  
 يعرض قلب نفسه فيصاب  
 وغير فؤادي للغواني رمية  
 وغير بناني للزجاج ركاب  
 تركنا لأطراف القنا كل شهوة  
 فليس لنا إلا بهن لعباب

أما القصيدة الثانية فهي تلك التي مدح فيها مغيثا العجلى ، ويبدأها بقوله :

فؤاد ما تسليهُ المُدَام وعمر مثلما تهب اللثام (٦٨)  
 ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام  
 وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام  
 أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام  
 وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام (٦٩)  
 ولولم يَعْلُ إلا ذو محل تعاني الجيش وانحطَّ الفتام

(٦٧) استغزه . استخفه واستدعاه .

(٦٨) ديوانه ٢- ٣٣٨ .

(٦٩) الطغام بفتح الطاء المهملة أرغاد الناس وأراذلهم .

والآن ماذا يمكن أن يفهم الدارس من هاتين القصيدتين ، أو بعبارة أدق هذين المطلعين ؟ الذى أراه هو أن الأبيات الأولى تمثل تطورا خطيرا فى عقلية الشاعر العربى وتفكيره – وإنما قلنا الشاعر العربى لأنك سترى بعد قليل أن معاصرى أبى الطيب ومَن جاءه بعد من الشعراء ما لبثوا أن نسجوا على منواله لتشابه ظروفهم وظروفه إلى حد كبير .

وفى الحق أن أبا الطيب رائدا فذاً ولكن ما كان لسواه من الشعراء أن يحاكيه بنجاح واضح لو لم يكونوا فى قرارة أنفسهم مؤمنين بالكثير مما جاء به ، ولو لم تكن عقولهم وقلوبهم مهياةً للتجاوب معه ، وفى إيضاح ما أجملنا نقول :

إن الشاعر العربى فى القرن الرابع الهجرى ، بل والحياة العامة فى مجموعها قد وصلت درجة من النضج الفكرى درجة لم تصل إليها من قبل وقد يبدو هذا القول وكأنه من باب المبالغات الرخيصة، فقد درج الناس على جعل أيام الرشيد والمأمون العصر الذهبى للشعب العربى ، ونحن لا نمارى فى ذلك ، ولا نبحد أن الأمة العربية كانت تعيش إذ ذاك أجمل أيامها ، سياسيا ، واقتصاديا ، وأديبا وثقافيا واجتماعيا ، ولكننى ألفت الأنظار إلى عنصر هام وهو النضج ، ففى رأى أن القرن الثانى للهجرة كان عصر الغزو العلمى إن صحَّ ذلك التعبير ، أقبل فيه الشعب العربى بتحسُّس شديد على تراث الإغريق والفرس ، ولكن هذه الثروة المكتسبة لم تؤت أكلها ولم تنضج تمام النضج إلا فى القرن الرابع وما بعده .

ولن أخوض فى ذكر الفلاسفة من أمثال الفارابى وابن سينا ، وإخوان الصفا ولا النقاد من أمثال الآمدى وعبد العزيز الجرجانى ، فإنى لمثل هذه المباحث مكان آخر ، ولكنى ألفت النظر فقط إلى أن أبا الطيب ومعاصريه من أمثال ابن نباتة السعدى ، ومَن جاء بعده من أمثال أبى العلاء وابن الحيات والطغرائى وعشرات آخرين بجانبهم قد أتوا فى الميدان الفكرى النفسى الاجتماعى بروائع ترتفع فوق مستوى بشار بن برد وأبى نواس بقدر ما ارتفعا فوق جرير وأشباهه من القدامى .

والذى يهمنى من مظاهر ذلك النضج هنا هو أن الشاعر العربى متمثلا فى أبى

الطيب قد أخذ ينظر إلى أحاديث الغزل على أنها نوع من البراءة والسذاجة التي كانت تناسب أسلافهم من أهل الدعة والترف وخلو البال والتخفُّف من أعباء الحياة وأزماتها ، أما في عصر المتنبي وصحبه فقد تعقّدت الحياة ، ومَرَّ الشعب العربي بمراحل كثيرة اختلفت فيها ظروفه رفعة وضعة ، وقوة وضعفا ، وعسرا ويسرا ، وأخيراً تبدّلت حاله من حاكم إلى محكوم ، وسيد إلى مسود ، ومزقته الخلافات ، وأنهكت الثروات . ولا بد أن تترك هذه الأمور جميعا صداها في نفوس الناس ، ولا سيما من كان منهم مستعدا بفطرته ، أو مهيبًا بما يحيط به من ظروف إلى إدامة التفكير فيما يجري حوله من مآسى ومظالم ، وما يمثّل على مسرح الحياة من مهازل ومناقضات .

وشاءت الظروف أن يعيش المتنبي المتمرد الطموح الناقم الثائر في هذه الفترة من الزمن ، وشاءت له أن يكون شاعرا ، وأن يكون المديح هو وسيلته الأولى للشهرة ، بل ولكسب لقمة العيش ، وكأني به يسعى إلى إنشاد بعض الناس مدائحهم ، وهو مشغول عنهم تماما بما يعتلج في نفسه ، ويحول في صدره من المعاني التي أشرنا إليها سابقا ، ولذا يُغلب الرجل على أمره ، وتستبدّ به عواطفه ونزعاته ، فتظفر تلك المعاني إلى لسانه ، وتأخذ مكان الصدارة من مدائحهم وقد يكون ذلك بطريقة لا شعورية تماما ، وقد يكون مدركا تمام الإدراك لما يفعل ، وسواء كان هذا هو الشأن أو ذاك فإن النتيجة واحدة ، وهي أنه كان يتصرفا طبيعيا تماما ، وأنه لا يختلف عن القدامى حين قدّموا بالبوادي وبقايا ديار الأحبة ، وغيرها من أمور كانت هي كل ما يشغل بالهم حين يفرغون من زحمة الحياة ، بل ولا يختلف عن أبي نواس حين أصرّ على أن يكون له من قصائده نصيب الأسد ، وأن تحتل الخمر وسقاتها صدور تلك القصائد .

وبعد هذا التمهيد الضروري رغم طوله نعود إلى أبيات أبي الطيب لئلا نرى أنها تسائر الفكرة التي بسطانها خطوة خطوة ، فهو لا يتباهى بسواد اللّمة ووفرتها ، وغير ذلك من مظاهر الشباب التي تزكّيه عند المرأة بل يفكر تفكيرا غريبا لم يسبق إليه . فقد تمّنى أن يكون هناك خضاب أبيض حتى يقطع ما بينه وبين الجنس اللطيف من

أسباب ، ويتقل إلى عصر الشيخوخة ، حيث التجربة والحكمة والاتزان والوقار ،  
وكأنما أحسنّ المتنبي بغرابة موقفه ، وسمع همسات النقاد ، وهم يتساءلون عن سر  
عزوفه عن الغزل ، وإعراضه عن المرأة ، فأخذ يدافع عن نفسه في الأبيات الثلاثة  
الأخيرة ، مينا أن الحب من هوايات الشباب الذين لم تعركهم الحياة ، ولم  
يعركوها .

أما هو فقد هجر جميع الشهوات بما فيها الخمر ووصال الغواني ، واستبدت  
به شهوة واحدة هي شهوة النضال في سبيل المجد بلسانه حيناً وبرمحه حيناً آخر .  
وفي الأبيات الباقية من المقدمة يفصح بطريق لاشعورى عن الحبيب الذى  
استولى على مشاعره ، فأصبح فيه غزله ونشيدته ، وفي محرابه صلاته تسيحه ألا  
وهو نفسه التى يكيل لها الثناء كيلا ، وسواء كان مبالغا في ذلك ، أو مقتصدا ،  
فإن شيئا واحدا لايسعنا أن نجحده ، وذلك أنه أجاد القول ، وأحسن الثناء .  
وحب أبى الطيب لنفسه يؤيده من شعره ، ألا تراه في قصيدة أخرى يقول :  
خليلك أنت لامن قلت خلّى وإن كثر التجمل والكلام  
أما الأبيات التى قدّم بها لمدح مغيث العجلى فتمثل جانبا آخر من نفسه  
العديدة الزوايا والجوانب ، لعله أشد تلك الجوانب استيلاء عليه وعنفا به ،  
ونعنى به النقمة على الحياة والأحياء ، ولاسيما السادة والحكام . وأحد الأسباب  
الهامة في نقمته عليهم هو ضآلة عطاياهم ، كما ترى بوضوح في أول تلك  
الأبيات . ومن حق المرء أن يعجب كيف سكت الممدوح أمام شاعر يمحطه  
والسامعين بهذه اللعنات ؟ وفي جوانب ذلك تقول : إن الظروف المحيطة بإنشاد  
تلك القصيدة هي التى تفسّر ذلك الموقف الغريب ، فربما كانت هناك مثلا  
خصومات ومنافسات بين الممدوح وبين بعض سادة عصره ، وقد انتهز الشاعر  
هذه الفرصة ليشفى صدره وصدر الممدوح في نفس الوقت . ومهما يكن من أمر  
فإن ثورة أبى الطيب ، وضيقه بالناس لم يكن خافيا على أحد ، وبحسب الممدوح  
أن يكون بمنجى من شواظ تلك المعركة الدائرة بين الشاعر ومعاصريه ،  
ولا يضيره بعد ذلك من يسقط في ميدانها من الضحايا . والمعاني الواردة في مدح  
مغيث منتقاه وناصعة نصوعا يباعد بينه وبين غبار تلك المعركة .

وقبل أن نفرغ من المتنبي نلفت النظر إلى أن ماورد في مقدمات مدائح من الفخر بنفسه والإعجاب بمواهبه تارة ، والحط من قدر خصومه ومنافسيه تارة أخرى - إنما هو امتداد طبيعي لمواقف كثيرة مشابهة ، وقصائد ومقطوعات مُستقلّة وردت في هذا الاتجاه ، ولايعنينا الآن كثيرا ، رغم تأثيرها الضخم على الشعر العربي في الأجيال التالية لأبي الطيب ، حيث تلقف الشعراء القيثارة من يده ، وأخذوا يعزفون عليها مقطوعات وقصائد شجيّة ، تبدو ألحان المتنبي واضحة فيها ، كما ترى في شعر أبي العلاء ، والطغرائي ، وابن سناء الملك وعشرات يجانبهم . ولكن الذي يعنينا الآن وعليه نقصر مجهودنا هو تسلّل تلك الموضوعات إلى مطالع القصائد ، مع أنها لم تُر فيها من قبل .

#### إعجاب الشعراء بمطالع أبي الطيب ومحاسنهم لها :

ما كان لنا أن نضيع ما أضعنا من وقتنا ووقت القارئ لو أن ثورة أبي الطيب على المطالع وتجديده فيها قد وقف عند حدود شعره . أما وقد صارت مطالعته نموذجا يحتذى ، ومثلا أعلى تشرب إليه أعناق الفحول من الشعراء ، فقد صار من واجبنا أن نذكر عدة نماذج لما كان من مظاهر ذلك الإعجاب ، وما أدى من محاكاة . على أننا كما قلنا في بحث آخر نظم شعراءنا ، وتاريخنا الأدبي إذا عزونا صنيع الشعراء إلى مجرد الإعجاب والمحاكاة ، وأولى بنا أن نذكر الدارس بما قلناه منذ قليل ، حين ذكرنا أن القرن الرابع الهجري كان قد شهد نضوج الفكر العربي بدرجة لم يصل إليها من قبل ، وقد تضافرت فيه عوامل مختلفة على الشاعر العربي أيقظت فكره ، وألهيت مشاعره ، وخلقته خلقا جديدا ، ومن كان في شك من ذلك فليقرأ الأبيات التالية ، وليخبرني إذا شاء متى أحسّ الشاعر العربي بخطورة رسالته في الحياة على هذا النحو الذي يعلن عنه ابن نباته السعدي ومتى ربط بين الشعر وبين اليقظة العقلية والروحية هذا الربط الوثيق الذي يبدو في قوله :

وكم لليل عندك من نجوم جمعت النثر منها في نظام \*

\* مختارات ٢/ ٢١١ ، والأبيات في مدح القاضي ابن معروف .

عتابا أو نسيباً أو مديحاً لخلٍّ أو حبيب أو هُمام  
تفيد بها العقول نُهيَّ وصَحْواً وقد فعلت بها فِعْلَ المدام  
لها في حَلْيَةِ الآداب رَكْضٌ إلى حبِّ القلوب بلا احتشام

والذى يهمننا بعد هذا التطواف هو أن الشاعر العربي بعد أبي الطيب قد أخذ  
بيثاً في صدور مدائح بعض ما يثقل رأسه من هموم الحياة أو ما يجيش في صدره  
من آمال وأطباع ، ومن نماذج ذلك قول مهيار الديلمي في صدر قصيدة يمدح بها  
الوزير زعيم الدين :

ليل السرى مثل نهار المقام ما خِفْتُ أن تُظلم أو أن تُضام (٧٠)  
ودون صدر البيت مُرْحَىً به عليك ستر الذلِّ صدر الحسام  
كم ترك الجُمَّة مُسْتَرُوياً بنظفة ليست تبلُّ الأوام ؟  
نمت ونام الحظ فافتح له جفئك وانهض فإذا قت قام  
زاحمٌ على باب العلا ضاغطا لا بد أن تدخل بين الزحام  
مَيِّزٌ من الناس على ظهرها نفسك لا مَيِّزة تحت احتشام

ومنه أيضاً قول ابن الخياط في مطلع مدحه للقاضي فخر الدين بن عمار :

لأسلكن صروف الهول مقتحما هولا يزهَّد في الأيام من رغبا (٧١)  
غضبان للمجد طلاباً بثأر علأ والليث أفتك مالاتي إذا غضبا  
لا يمنعتك من أمر مخافته ليس العلا لبئس يكره العطا

ولا ينبغي أن يفهم الدارس من قولنا فيما سبق أن هذه المقدمات أخذت تصوِّر ما  
يجيش في صدر شعراء ذلك العصر من طموح وآمال ، وما يعتلج فيها من عتاب على  
الحياة والأحياء - لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الصلة قد انقطعت فيها بين المقدمة  
والموضوع تماما ، أو أن جوا من الفتور والملل كان يجيِّم اثناء انشادها بين الشاعر

(٧٠) ديوانه ٣/ ٣١٨ والمعنى إذا عاش المرء في بيته يتوقع فيها الظلم والضميم فأولى به إذا كان كريما أن يرحل  
عنها ، ويسعى عند ذلك أن يستوى عنده همار الودع المستقر ، وليل المهاجر المقلب في مناكب الأرض ، حزنها  
وسهلها .

(٧١) مختارات ٣/ ٥٤ .



والممدوح دائما ، فإن الأول يعرف رغبات الثاني ، وظروفه العامة جيدا ، ولعله في تلك المقدمات كان يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، فيرضى شيطانه أولا ، وغرور الممدوح أو ما أشبه ذلك من نزعات ثانيا ، ألا ترى مثلا أن أبيات مهيار تناسب وزيرا طموحا حاول اغتصاب السلطة من منافسيه ، والاستئثار بالجاه والنفوذ دونهم ؟ وليس ببعيد أن يكون هذا هو موقف زعيم الدين الذي قيلت فيه .

### المقدمات في الرثاء :

عرف للقارئ مما كتبناه هنا ، وفي الباب الأول من هذا البحث أن مقدمات القصائد تهدف إلى رفع الروح المعنوية عند المنشد والمستمع ، وتعرض أهم ما يشغل بال الشاعر عند إنشادها . فهي غزل عن بعض الناس ، ومغامرات في عرض الصحراء عند آخرين ، وهي خمر وغلغان عند أبي نواس ، وطبيعة جميلة عند أبي تمام والأندلسيين ، وصراع ونضال عند أبي الطيب وتلاميذه . فأين مكان الرثاء من ذلك جميعه ؟ وهل دخل فيما دخلت فيه الأغراض الأخرى من مدح وفخر وهجاء ، ووشح صدره بما وشّحت به صدورها ، أم كان له شأن آخر؟ وجواب هذا السؤال يسيره ، وكان ينبغي ألا تشغل أنفسنا به ، لولا أن أخطأ ارتكبت في هذا الصدد كما سنعرف بعد قليل ، فوجب علينا لذلك التعرض له .

والذي يقضى به المنطق والذوق السليم ، بل والنظرية الأدبية التي بنينا مطالع القصائد أنه ينبغي للشاعر ألا يقدم للرثاء بمغامرات عاطفية ، أو نحوه وأولى به أن يمهد لشعره إن شاء بجولات حزينة في عبث الأيام بناء وغدر الليالي بآمالنا ، وهذا هو ما فعله أبو العلاء في قصيدته المشهورة :

غير مجد في مَلَّتِي واعتقادي نَوَّحَ بالكِ ولا ترنُّم شادي (٧٢)  
وشبيه صوت النعْمِيَّ إذا قِيدَ س بصوت البشير في كل ناد (٧٣)

(٧٢) شروح سقط الزبد القسم الثالث ٩٧١ .

(٧٣) النعْمى على ورن عنى والمراد به هنا الناعى فهو إذن فعيل بمعنى فاعل ، ويكون أيضا مصدرا ، ومعنى المعى ، وهو فى الأخير فعيل بمعنى مفعول .

وما فعله ابن منذر في رثائه لصديقه عبد الحميد الثقفي إذ يقول : -

كل حيٍّ لاقى الحمامَ فَمودى مالحىٍّ موملٌ من خلود<sup>(٧٤)</sup>  
يقده الدهر في شماريخ رضوى ومحط الصخور من هبود<sup>(٧٥)</sup>

وبالرغم من هذا المنطق السليم ، والنظرية المتكاملة فيما نرى - عثرتُ على قصيدتين من نتاج العصر العباسي الثاني مهّد الشعراء للرثاء فيها بالغزل ، وبالحدِيث المرح عن الطبيعة ، ومن يدرى لعل بجانب ذلك قصائد أخرى لم تصل إلينا . أما الأولى فقد انشدها عبد الله بن المعتز في رثاء الخليفة المعتضد ، ويبدأها بقوله :

صدت وأغرت طيفها بميم إن الفراق لمغم بالمغم<sup>(٧٦)</sup>  
وبدت فحسبك من وشاح ناطق كثرت وساوسه وحجل مُفحّم  
وكانّ فاها بعد آخر رقدة متسمّر بعقار دنّ مُعلم

وأما الثانية فقد رثى بها علي بن الجهم الخليفة المتوكل ، وقال في أولها :  
وساريةٍ ترتاد أرضاً تجودها شغلت بها عينا قليلا هجودها<sup>(٧٧)</sup>  
أتتنا بها الصّبا وكأنها فتاة تزجّجها عجز تقودها<sup>(٧٨)</sup>

وخروج ابن المعتز على التقاليد واضح لا يحتاج إلى تأمل ، وانحراف ابن الجهم ليس في حاجة إلى تأمل طويل ، فإن استهانتته بالمناسبة الخطيرة التي ألقبت فيها القصيدة ، ونعني مقتل الخليفة على يد جنوده لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية - لا يبدو فقط في البدء بالطبيعة وهي من الموضوعات المرحّة ، بل في تلك الصورة الخلية التي شبه فيها السحابة بفتاة مغرّ بها ، وتقودها إلى حضرته عجز ، خيرة في دروب الفتنة والأغراء .

(٧٤) طبقات ابن المعتز .

(٧٥) يقده يمته ، يقال قده المرض في الأسنان إذا تأكلت ، شماريخ جمع شمرح يضم فسكون ، أو شمراخ بكسر فسكون . والمراد به هنا قمة الجبل ، وهبود بفتح الهاء ، يليها باء موحدة مشددة اسم جبل .

(٧٦) ديوانه / ٤ / ١٦٧ .

(٧٧) ديوانه / ٥٦ ، سارية سحابة مطرة ليلا ، ترتاد . تتلمس وتحت .

(٧٨) تزججها . تدفعها وتسوقها .

فكيف نفسّر إذن صنيع الشاعرين ؟ لقد اقترح الأستاذ خليل مردم<sup>(٧٩)</sup> حلا لموقف ابن الجهم فزعم أنه كان يبكي أيام المتوكل السعيدة ، ويشبهها بسحابة ممطرة ، ملأت الأرض ثراء ورخاء ، وهذا رأى لا نتحسس له ، ولذا سوف نلتمس لموقف الشاعرين توجيهها آخر ، ملخصه أن كلا منهما كان يبدى شماتة ، وراحة نفسية لموت صاحبه ، ولما كان غير قادرين على إعلان تلك الشماتة بصراحة تامة ، وفي قصيدة أو مقطوعة مستقلة ، فقد سمحا لهذا القدر المتواضع بالظهور في مقدمة الرثاء ، إن صحَّ أن يسمّى ذلك رثاء ، والشماتة بموت الحاكم معروفة ، ومن ذلك مثلا الأبيات التي أنشدها أبو العتاهية عند موت المهدي ، والتي قال فيها مشيرا إلى نساء المهدي وجواريه :

رُحْنٌ فِي النُّوشِي وَأَصْبَحَ نَ عَالِيَيْنِ الْمَسُوحِ<sup>(٨٠)</sup>  
كُلَّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهْرِ لَهْ يَوْمِ نَطُوحِ

وقوله أيضاً في موت أحد الخلفاء ، ولعله المهدي

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنما أفطرت في رمضان<sup>(٨١)</sup>

ثم نعود إلى ابن المعتز وصاحبه فنقول : إن الأول كان ناقما على المعتضد لإلقائه إياه في السجن فترة طويلة من الزمان ، وقصة ابن الجهم مع المتوكل شبيهة بذلك<sup>(٨٢)</sup> .

على أن في قصيدة الأخير ما يدل على أنها لم تكن رثاء خالصا ، بل كان فيها إلى جانب ذلك نغمة على الخليفة وبطانته ، وحساب عسير له بعد مقتله ، وانتقاله إلى دار الحساب الحقيقي ، ترى ذلك في قوله :

(٧٩) ديوان ابن الجهم / ٥٦ .

(٨٠) الأغاني / ٣ / ١٧٨ الوشي . الثياب الحريرية المزركشة . المسوح . جمع مسح بكسر الميم وسكود السين المهملة ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان والثاكلون .

(٨١) اقرأ أسطورة الزهد للؤلؤف .

(٨٢) اقرأ تاريخ الشعر ٢ / ٢٤٨ ففيه مزيد من التفصيل حول ابن الجهم والمتوكل وحاشيته . وكريدها للشاعر ، وهجائه لها .

فياناصر الإسلام غرّك عصبه زنادقة قد كنت قبل أذودها  
فلما نأت دارى ومال بك الهوى إليها، ولم يسكن إليك رشيدها  
أشاع وزير السوء عنك عجائباً يتسيد بها في كل أرض مشيدها

وفي قصيدة ابن الجهم ما يثبت أن الحديث عن السحب والأمطار فيها لم يكن  
عن رغبة صادقة في تشبيه أيام المتوكل بها ، بل أن كل ما هناك هو استغلال الطبيعة  
في التقديم للغرض الأصلي من القصيدة<sup>(٨٣)</sup> على نحو ما ذكرنا من قبل .

ألا ترى انه انتقل من الحديث عن تلك السحابة السارية إلى التشهير بعذوه  
عبيد الله بن خاقان وزير المتوكل ، ويجنوده الذين لم يثبتوا في المعركة ، رابطاً  
بين هذا وذاك ربطاً محكماً فقال :

فهرّت تسوق الطرف سبقاً كأنها جنود عبيد الله ولتّ بنودها<sup>(٨٤)</sup>  
ونخلت أمير المؤمنين مجدلاً شهيداً ومن خير الملوك شهيداً

---

(٨٣) اقرأ ص ٨٨ من هذا البحث .

(٨٤) فاعل مرت صمير يعود على سارية المذكورة أول القصيدة .

## الفصل الثاني

### أغراض الشعر ومدى ما أصابها من تطور

أخذت أغراض الشعر نصيبها الوفير من تلك الثورة العامة التي أصابت الحياة والأدب في ذلك العصر. فظهرت أغراض لم يعرف عنها الشعر شيئاً من قبل ولم ينظم شيء منه فيها كالغزل بالمذكر وكذلك الشعر المسمى بشعر الزهد وتوسع الشعراء في أغراض لم يكونوا يخوضون فيها من قبل إلا قليلاً كالخمر والمجون والطبيعة. وتضاءلت بعض الأغراض، وتقلص ظلها كالغزل العذري لضعف دواعيه وإليك الآن عرض لكل من هذه الأغراض.

#### الغزل بالمذكر:

بدأ هذا النوع المنحرف من الغزل في شعر أبي نواس خلال النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة. ومنذ ذلك الحين والشعراء يخوضون فيه دون تخرج أو ميالة ولن نشغل أنفسنا - كما فعل بعض مؤرخي الأدب - بالبحث عن مصدر تلك العدوى الاجتماعية، وهل نزحت إلى العرب من الفرس أو غير الفرس لأن معظم هذه الآراء من باب الرجم بالغيب.

ومهما يكن من أمر فالناحية الجنسية لا نفيدنا في قليل ولا كثير، وكل ما يعيننا هو مجاهرة أبي نواس بها، وترديده لها في شعره، مع أنه كان في وسعه أن ينغمس في حاتمها ما شاء له شيطانه وانحلاله، وأن يستر بعد ذلك عيوبه كما هي العادة بين المبتلين بهذا الأمر من الناس.

وهذا الشذوذ المزدوج يمكن تفسيره بأحد الأمور التالية أو بها جميعاً.

الأول: أن أبا نواس كان مجتنباً عليه، اعتدى عليه في طفولته والبة بن الحباب<sup>(١)</sup> كما تروى بعض كتب الأدب أو غير والبة، فظل بعدها مكبوتاً شاعراً

(١) الأغاني - ج - ١٦ ص ١٤٣، ص ١٤٥ وأخبار أبي نواس لابن منظور ص ١٠ - ١٢

بالهوان والمذلة . ومثل هذا النوع من الشواذ يجد عزاء ولذة كبيرة في الظهور بمظهر الفحول الذين يستبيحون حمى غيرهم من الضعفاء والمهازيل ، وكثيراً ما يتظاهرون بأنهم أصحاب اليد العليا في هذه القضية الخاسرة من طرفها ، ويسرفون في تعداد أسماء ضحاياهم ومعشوقهم من الغلمان ، حتى يغيروا رأى الناس فيهم . وقد نجح أبو نواس من هذه الناحية نجاحاً كبيراً ، فقد نسى عنه كل شيء إلا أنه كان ماجناً خليعاً يهوى الغلمان ويطاردهم ويتغزل فيهم ، وأى شيء يتمناه غير ذلك ؟

**والثاني :** أنه كان يهوى الغلمان حقاً وينال منهم ، وبجاهرته إذن تكون مجرد تحدّ منه للمجتمع أو بعبارة أدق فرار من وخز الضمير . فالخارجون على المجتمع من الشواذ يشعرون بالآلام شديدة ، ويتوجسون خيفة من كل نظرة أو ملاحظة يوجهها الناس إليهم ، فإذا كان لدى بعضهم الجرأة أو التوقح الكافي آثر أن يجهر بما يرتكبه ويدافع عن مشروعيته ، ويتحدى الناس به وبذلك يصبح مهاجماً بعد أن كان مهاجماً ، ويتخلص نهائياً من الهواجس وآلام التخفى والتستر .

وأمر ثالث يمكن ضمه إلى ما سبق في تعليل تلك الظاهرة المنكرة ، ونعني به تملق أبي نواس للأمين وتجيبه إليه ، فقد كان الأمين متها ، وقصصه مع كوثر وغير كوثر من غلمان القصر معروفة<sup>(٢)</sup> ويقال إن والدته زبيدة حين رأت كلفه بهم زودت قصره بالجوارى وقد ألبستهن زيّ الغلمان ، عسى أن تصرفه عن هؤلاء إلى أولئك .

أليس من حقنا بعد هذا أن ندعى أن أبا نواس كان بغزله هذا يحاول أن يروج للمذهب الخليفة المنحرف ، وأن يهون عليه وعلى الناس من أمر ذلك الشذوذ ، معتذراً عنه بأن سحر هؤلاء الغلمان وقتنتهم أقوى من أن تقاوم . أليس هذا هو ما يمكن أن نفهمه من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

أما والله لا أشرا حلفت به ولا بطرا

(٢) الطبرى ج - ١٠ - ص ٢١٥ (المطبعة الحسينية) .

(٣) مثل هذا التوجيه لا يمكن قبوله إلا في ضوء ظاهرة تكاد تكون عامة وهى أن الشعر بجميع أقسامه تقريباً حتى ما يسمى منه بشعر الزهد كما ستعرف بعد قليل كان مسخرًا لخدمة الحكام ، أو بعبارة أخرى كان يباع ويشترى بالمال .

لو أن مرقشا حى تعلق قلبه ذكرا  
كأن ثيابه أطله ن من أزراره قرا

أما عناصر ذلك الغزل فتختلف بعض الشيء عن الغزل بالمؤنث من حيث إن معظمه يدور حول إعجاب الشاعر وافتتانه بالغلان مع وصف مواضع خاصة من أبدانهم وصفاً يتم عما وراءه من رغبات وضيعة . ويكاد الغزل بالمذكر يكون نهجاً وسطاً بين الغزلين الحسى والعذرى ، بمعنى أنه لا يعف عن ذكر الأوصاف الحسية ، ويدور حول العواطف دوران العذرى ، كما أنه لا يتورط في ذكر المغامرات مفصلاً فيها تفصيل الحسى الفاجر . وربما كان من الخير أن نذكر عدة نماذج تتحدث بنفسها عن خواص ذلك الغزل . قال فى غلام :

يا أيها الريم الذى صادنى بمقلة فى اللحظ حوراء (٤)  
وحاجب كالنون قد نمقت فوق حجاج العين زجاء (٥)  
ألا بريق منك معسولة تشفى مـرارتي وأدوائى  
إنى غدا من حبكم ميت كعمروة من حب عفراء

ويقول فى آخر :

قضيب حين يقبل فى اعتدال فإن ولى فسائره كثيب (٦)

وقال فى ثالث :

فديت من تم فيه الظرف والأدب  
ومن يثيه إذا ما مسّه الطرب (٧)  
وردفه فى قضيب فوقه قر  
من نور خديه ماء الحسن ينسكب

(٤) ديوانه ص ٤٠٣ .

(٥) الحجاج : بجاء مكسورة بعدها جيم جمع حجاج يفتح الحاء وهو العظم الذى ينت عليه الحجاج

(٦) ديوانه ص ٤٠٨ .

(٧) ديوانه ص ٤١٠ .

كم ساعة منك خطتها ملائكة  
أزهو على الناس بالذنب الذى كتبوا  
ويظهر أن أهم ما كان يفتنه من الغلمان اهتزاز أعوادهم ونضارتها كما هو ظاهر من  
الأمثلة السابقة ومن قوله أيضاً فى غلام :

تفرد بالجمال وقال هذا من الدنيا ولذتها نصيبى (٨)  
براه الله حين برى هلال وخفف عنه منقطع القضيب  
فيهتز الهلال على قضيب ويهتز القضيب على كتيب  
وإن دل مثل هذا على شيء فإنما يدل على تمكن الشر من نفسه واستيلاء  
الشیطان على معظمه .

#### شعر الزهد أو التزاهد :

كان أبو العلاء المعرى يقول كلما هم بإنشاد شيء لأبى العتاهية . « قال الداھية  
أبو العتاهية » ونحن لا يسعنا بعد الدراسة الطويلة لشعره إلا أن نسلم برأى أبى العلاء  
فيه فقد استطاع أن يضلل الباحثين والنقاد ما يقرب من اثني عشر قرناً . ولا يزال  
شعره فى مدارسنا الثانوية بل وجامعاتنا يدرس على أنه منبعث عن زهد أو ما يشبه  
الزهد مع أنه أبعد الأشياء عن ذلك . حقيقة يتحدث أبو العتاهية عن الموت وما  
يؤدى إليه من خراب القصور ، وتفرق الخدم والجنود ، ويتحدث عن تفاهة  
الدنيا ، ويدعو إلى الزهد فيها ، وفى ملذاتها وشهواتها ، وربما يتحدث عن الجنة  
والنار ، وعن القناعة والرضا بالقليل والجود والكرم ، وربما نهى عن الحرص  
والبخل والشره ، ولكنه رغم ذلك ليس من الزهاد فى قليل ولا كثير ، فحياته  
الخاصة وتشبثه الشديد بالمال إلى آخر لحظة من حياته تشككنا فى كل ما قاله ؛ فأى  
إنسان إذن كان هذا الداھية ، وفيم نظمت كل تلك الأشعار ؟

إن المتابع التى تفجر منها ذلك الشعر ، والدوافع التى أعانت عليه يمكن ردها إلى  
أصول ثلاثة :

(٨) ديوانه ص ٤١٢ .



اولها: حقد مركز على اولى الجاه والسلطان وجميع الطبقات الممتازة فى المجتمع لترفعها عليه بسبب اتضاعه الشديد عنها حيث كان لوالدين تافهين ومالموت فى نظره إلا الطريق الوحيد لإزالة ما بين الناس من فوارق وإلغاء ماللسادة من امتيازات وخير ما يمثل ذلك قوله:

نصيبك مما صرت تجمع دائبا فثوبان من قِبْطِيَّة وحنوط<sup>(٩)</sup>  
 كأنك قد جُهِزْتَ تُهدى إلى البلى لنفسك فى أيدى الرجال أطيظ  
 وصرت إلى دار هى الدار لا التى أقت بها حيا وأنت نشيط  
 محل به الأقدام ويحك تستوى وصيد كرام سادة ونبيط  
 وكأنك بتحقيق الدنيا ، والتهوين من شأنها ، وسرعة زوال نعيمها ، يريد أن  
 يلفت نظر المتغطرسين من ذوى الجاه إلى أن ما أو توا من متاع الدنيا ليس بذى  
 خطر عظيم ، ومع ذلك فهو سريع الزوال ، وشيك الفناء ، كما ترى فى قوله:  
 لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب<sup>(١٠)</sup>  
 لمن نسبى ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب  
 ألا ياموت لم أر منك بدا أتيت وماتحيف وماتحاي  
 ثانيها: اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مع زبيدة زوج  
 الرشيد من جهة أخرى<sup>(١١)</sup> وغاية هذه الاتفاقية أن يطلق العنان لعواطف السخبط  
 والكراهية التى يحملها بين جنبيه لذوى الجاه والسلطان ، ومن بينهم الرشيد  
 نفسه<sup>(١٢)</sup> وتلك النعمة التى تعتلج فى صدره على زينة الدنيا وملاهيها ، حتى يقيم  
 الدنيا ويقعدها ضد مجالس الأنس والطرب التى تجمع الرشيد بالجوارى منافسات

(٩) ديوانه ص ١٤١ .

(١٠) ديوانه ص ٢٣ .

(١١) يؤيد هذا أبيات أرسلها الشاعر إلى الفضل بن الربيع عد غضب الرشيد عليه وفيها يقول مذكرا

الفضل بتلك الاتفاقية:

أجفوتى فيس جفانى      وجعلت شأنك غير شأنى  
 ولطالما أمننتى      مما أرى كل الأمان  
 حتى إذا جار الزما      ن على صرت مع الزمان

الاغاني ج - ٣ - ص ١٣٦ .

(١٢) كان سبب ذلك تكؤ الرشيد فى إتمام ما وعد به من ترويح عتبة له .

زيدة في قلب الخليفة من جهة ، ويجعفر اليرمكي عدو الفضل بن الربيع ونديم هارون على الشراب من جهة أخرى ، وهذا هو سر ثورته على المتع والشهوات ومجالس الغناء واللهو ، تلك الثورة التي أوحى إليه بمثل قوله :

أيا من باطية ودنّ وعود في يدَي غاوٍ مغنٍّ<sup>(١٣)</sup>  
إذا لم تنه نفسك عن هواها وتحسن صَوْنَهَا فإليك عني  
فإن اللهو والملهى جنونٌ ولست من الجنون وليس مني  
وأى قبيح أقبح من لبيب يُرى متطرباً في مثل سني

وهذه الاتفاقية أيضاً هي سر القصائد والمقطوعات التي كانت تُلقَى للرشيد فتبكيه ، وتصدع قلبه . ومن أمثلة ذلك ما حكاها الأصمعي من أنه دخل على الرشيد فوجده يبكي وبين يديه قصيدة من شعر أبي العتاهية منها قوله :

هل أنت معتبر بمن خربتُ منه غداة قضى دساكره<sup>(١٤)</sup>  
وبمن خلت منه أسرته وبمن خلت منه منابره  
وبمن أذلّ الدهر مصرعه فترأت منه عشائره

لقد كانت زيدة تريد أن تجعل من الرشيد رجلاً عابداً ، زاهداً في كل شيء من الدنيا سواها ، وأبو العتاهية وشعره وسيلتها إلى ذلك ويظهر أن ما كانت زيدة تلتق به من مال إلى أبي العتاهية قد أغرى ابنه بأن ينسج على منواله ، فأرهبه لذلك بلبس الصوف والاعتكاف في بيته استعداداً للظهور على المسرح<sup>(١٥)</sup> ولكن والده الخبير بما تحتاج إليه تلك المهنة من مهارة ولباقة قد نصحه بالاستمرار في تجارته ، فقد كان بزازا .

ومن عجب أن مؤرخي الأدب يعتقدون أن أبا نواس قد قال ماقاله في الزهد

(١٣) ديوانه ص ٢٥٤ .

(١٤) ديوانه ١٢٣ .

(١٥) زهر الآداب ج - ٢ - ص ٢٢٥ وانظر إلى هذه المحاوره بين أبي العتاهية وولده كما يرويها الحمصري : دخل أبو عتاهية على ابنه وقد تصوف . فقال : ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ فقال وماعليك أن أتعود الخبز . فقال . يابني يحتاج المتصوف إلى رقة حال وحلاوة شمائل ولطاقة معنى ، وأنت ثقيل الظل ، مظلم الهواء ، راكد النسيم جامد العينين فأقبل على سوقك فأنها أعود عليك : وكان بزازا ه .

ونحن لانرى ضرورة إلى كل هذه الشمائل الحلوة لو كان التصوف حالصاً لوجه الله تعالى .

مخلصاً وعللوا ذلك بأن النفوس مهما كانت شريرة يعترها أحياناً ميل نحو التوبة ،  
وندم على المعصية . والحق أن أبا نواس لم يؤمن بشيء من ذلك ولم يفكر فيه  
وأكبر الظن أنه أراد أن يشارك أبا العتاهية في مال زبيدة كما تدل عليه القصة  
التالية<sup>(١٦)</sup> التي يرويها ابن منظور عن أبي مخلد الطائي وفيها يقول «قال لي أبو  
العتاهية إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئاً ،  
فإني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق ، ومافيه الشعراء ، وللزهد  
شوقى . فبعثت إلى أبي نواس ، فجاء إلى وأخذنا في شأننا ، ثم قلت له : إن أبا  
اسحق من قد عرفت في جلاله وتقدمه . وقد أحب ألا تقول في الزهد شيئاً .  
فوجم عند ذلك وقال : يا أبا مخلد قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا .  
ولأخالف أبا إسحق فيما رغب إليه» .

وعبارة الراوى واضحة في أن هناك نوعاً من الاحتكار فرضه أبو العتاهية على  
شعر الزهد ولا بد أن يكون وراء هذا الاحتكار مصالح مادية فلو كان خالصاً لله  
واليوم الآخر ، لما ضاره أن يشركه فيه أهل السموات والأرض لأن خزائن الله  
تعالى لا تنفذ ، وفي المدح بعد ذلك مرتزق واسع لأبي نواس يغنيه عن هذا  
الباب الذى افتتحه أبو العتاهية ، والطريق الذى مهده لنفسه .

وثالثها : شعور سكن إليه الشاعر ، وفكرة استراح إليها . رتل أن ينصب من  
نفسه واعظاً ، ينطق باسم الدين ، ويتحدث بلسان الرسول ، فيقابل بتصفيق  
العامة واحترامهم ، ومثل ذلك ينسبه أو يقلل على الأقل مما يعانیه من آلام  
الشعور بالضعفة والتفاهة وإلى هذا الدافع يمكن أن يرد كثير من شعره الذى يدور  
حول الجنة والنار والزهد في الدنيا وفي المال حين يلتقى في عبارة هادئة شبيهة بعبارة  
الوعاظ والمرشدين ومن ذلك قوله :

من سالم الناس سلم	من شاتم الناس شتم <sup>(١٧)</sup>
من ظلم الناس أسى	من رجم الناس رجم
من طلب الفضل إلى	غير ذوى الفضل حرم

(١٧) ديوان ص ٢٤٢ .

(١٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٧ .

وقوله:

ياعجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا<sup>(١٨)</sup>  
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر  
الخير ماليس يخفى هو م المعروف والشر هو المنكر  
لا فخر إلا فخر أهل التقي غداً إذا ضمهم المحشر

وقبل أن نختم حديثنا عن أبي العتاهية هنا نحب أن نلفت النظر إلى أنه كان من أشد الناس تأثراً بالقرآن ومحاكاة له ، ولاغرابة في هذا مادامت أهدافه الظاهرية على الأقل تتفق مع أهداف القرآن . بل حاول أيضاً أن يكون أسلوبه وعباراته شبيهين بأسلوب القرآن ما وجد إلى ذلك سبيلاً فقد روى أنه قال يوماً «قرأت أمس سورة النبأ ، ثم قلت قصيدة خيراً منها<sup>(١٩)</sup> ولايزعجنا ما في مثل هذه العبارة من صفاقة ، وكل الذي يشغل أذهاننا الآن هو أنها تدل على أنه كان يحاكي القرآن عن قصد . ولعله كان يشير إذ ذاك إلى قصيدته التي يقول في أولها :

أذلّ الحرص والطمع الرقابا وقد يعفو الكريم إذا استرابا  
وإنما ذهبنا إلى ذلك لأن رويها يذكرنا بسورة النبأ .

ومناظن إلا أنه كان يحاول أن يحاكي سورة الناس حين قال :

خذ الناس أو دع إنما الناس بالناس ولا بد في الدنيا من الناس للناس  
وكأنه بذلك يحاول أن يثبت قدرته على تكرار كلمة الناس خمس مرات في بيت واحد ، كما كررت مثل هذا العدد في سورة قصيرة . هذا عدا اقتباسه الكثير من القرآن .

ولعل جرأة أبي العتاهية على قوله السابق تعود إلى ما كان من شيوع روح التمرد الديني بين أمثاله من الأدباء ، مع زوال تلك الرهبة التي كانت تحيط

(١٨) ديوان ص ١٠١

(١٩) الأغاني ح - ٣ - ص ١٣٧ .

بالقرآن على أثر المباحث التي أثارها علماء الكلام حوله ؛ حين بحثوه من ناحية الحدوث والقدم وتساءلوا عن إعجازه ، وعما إذا كان يرجع إلى أسلوبيه ، أم إلى صرف الله الناس عن أن يأتوا بمثله .

### الخمير والمجون :

يظهر أن أبا نواس كان يعاني آلاما مرة تنطق بها الأبيات التالية: -

وما يعرف الليل الطويل وغمه من الناس إلا من تنجم أو أنا (٢٠)  
خليون من أوجاعنا يعذلوننا يقولون: لم تهون؟ قلنا: لذنبنا  
يقومون في الأقسام يحكمون فعلنا سفاهة أحلام وسخرية بنا  
فلو شاء ربى لابتلاهم بما به اب تلتانا فكانوا لاعلينا ولالنا

فإن فيها شكوى صارخة مكبوتة غلبت أبا نواس الماجن ، المغالط لنفسه وللناس حين يخدعها ويخدعهم عن حقيقة أمرها ؛ فظهرت هنا في مطلع إحدى مدائحه بالغزل . وهذه الآلام والعواطف المكبوتة الشعورية منها واللاشعورية ، هي التي كانت تدفع بالشاعر إلى الخمر يعب منها ويغرق في لجة أوصابه وأسقامه ، أما منشأ هذه الآلام فربما كان من الصعب التعرف عليه ، سوى إن شدوده الجنسي لا بد وأن يكون له صلة بتلك الآلام .

والقارئ لأشعار أبي نواس في الخمير يوقن بأن تعاطيا كان يهين الجو الملامم لظروفه الشخصية تمام الملاءمة ، فإنه فضلا عن السلوى والنسيان والنشوة التي يشعر بها شاربها ، تجمعها بسقاتها من الغلمان ، وهناك يتقلب في أعطاف الرذيلة ما توسع له الوقت والمال والأبيات التالية تمثل بعض أهدافه من الذهاب إلى الحانات :

وأحور ذمى طرقت فناءه بفتيان صدق ماترى منهم نكرا (٢١)  
فأطلق عن أبوابه غير هائب وأطلع من أزراره قرا بدرا

(٢٠) ديوان ص ٧٥ .

(٢١) ديوان ص ٢٨٦ .

ومر أمام القوم يسحب ذيله  
فقلت له ما الاسم حُيِّتَ قال لي:  
فكدنا جميعا من حلاوة لفظه  
وجاء بها والليل ملق سدوَّه  
فما زال يسقينا ويشرب دائبا  
فياحسنه لحنا بدا من لسانه  
فقمنا إليه حين نام وأرعدت  
فلما رأى أن ليس عن ذلك مخلص  
يجاذب منه الردف في مشيه الخصر  
دعاني أبي سابا ولقيني شمرا  
نُجن ولم نسطع لمنطقه صبيرا  
مدلاً بأن وافى محيطا بها خبرا  
إلى أن تغنى حين مالت به سkra  
وياحسنه لحظا وياحسنه ثغرا  
فرائصه تجرى ببيدانه ضمرا  
ووافقه لين أجاد لنا العصرا

ويظهر أن أبا نواس كان من أنصار المتعة الحسية فإننا نراه حتى في مدحه يعلن  
عن تلك الظاهرة عنده دون أن يشعر؛ كما في قوله يمدح الرشيد .

ملك تطيب طباعه ومزاجه عذب المذاق على فم المتذوق

وقد عرفنا فيما سبق أن الخمر احتلت عند أبي نواس كثيراً من مطالع مدائمه  
ومع ذلك فقد وقف عليها قصائد ومقطوعات رائعة من شعره . ولا نجد تعليلا  
لمثل ذلك الهديان سوى ما أشار إليه حين قال :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر (٢٢)

ونعني بذلك أن شدة تعلقه بها تجعله حريصا على أن يعيش معها دائماً إن لم  
يكن شاربا كارعا فلاهجا بذكرها مسبحاً بحمدها .

والخمر كل شيء في حياة أبي نواس ولا يزحمها في ذلك سوى الغلمان فإذا حج  
فليس إلى كعبة المسلمين حجه ولا حولها طوافه ولكن إلى حانتها يسعى ، وأمام  
معبدتها يصلي .

حَجٌّ مِثْلِي زِيَارَةَ الْحَارِ وَأَقْتِنَائِي الْعَقَارَ شَرِبَ الْعُقَادَ (٢٣)

والقارئ لأشعاره فيها يعجب لكثرة ما أورده فيها من معان وما ألحقه بها من  
أوصاف فقد أسرف في وصف سقاتها وأدواتها ولونها وما يعلوها من حباب وأثرها

(٢٢) ديوان ص ٢٧٣ .

(٢٣) ديوان ص ٣٥٥ .

في الشارب إلى غير ذلك من أمور لا يصعب الوقوف عليها ، ولذا نرى ألا نضيع الوقت في الحديث عنها بالتفصيل ، ولكن شيئاً واحداً يجب أن نلفت الأنظار إليه وذلك عرضه لها في صورة العروس في كثير من الأحيان وجعل ذهابه لشرها كذهاب الخطيب إلى خطيبته وذلك حين يقول :

لما أتيت الدهقان أخطبها من بين أصهارها وأحباها<sup>(٢٤)</sup>  
قال من الخطبون قلت له فتبان صدق فقال أكفاها  
حتى إذا حطها وأنزلها وفك عنها الختام فدأها  
أيمكن أن يقال في تفسير ذلك أنه حرم الزواج الرسمي بتقاليده وأفراحه  
المعروفة ، ولذا يجد في الحديث عن الخطبة وفض الختام تعويضا عما فاتة؟ إن  
دراسة حياته بالتفصيل قد تجيب على هذا السؤال .

وإذا كان أبو نواس إماماً في الخمر والغزل بالمذكر إمامة تجعل الحديث عنه حديثاً عنها ، فإنه قد تخلف في المجون تخلفاً شديداً ، رغم ادعائه أو طموحه إلى السبق فيه . ولعل السبب في ذلك أنه كان يمزج مجونه بالغزل المنحرف ، وذلك وإن خف على أسماع بعض الناس ، فإنه ثقيل بغيض إلى الطبايع السليمة . وإن شئت فاسمع إليه يتماجن متحدثاً عن غلام .

وغزال زان بالسقا مة ردفا بربريا<sup>(٢٥)</sup>  
قاده إبليس طوعا بعد ماكان عصيا  
فسقيناها على الور د شراباً ذهبياً  
فكشفنا على بياض الرد ف ثوبا قصبيا  
فوجدنا خلفه دِعصا من الثلج نقيا  
فركبناها بلا سر ج ركوبا مرزويا  
وحنمنا السير لما أن وجدناه وطيا

هل رأيت كلاماً أسمع من هذا؟ إن كل ما يمكن أن يعتذر به عن مثل هذا

(٢٤) ص ٢٤١ .

(٢٥) ص ٣٥٤ .

المجون أنه لم يقل للجمهور ولكن لطائفة خاصة ، هي طائفة الرقعاء من أمثال أبي نواس .

أما المجون الذى يضحك ولا يؤذى فيمكن أن نلتسمه عند شعراء الأجيال اللاحقة من أمثال أبي الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي ، وأبي عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج بالعراق وأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي بالشام . وأبي عبد الله محمد بن مسعود بالأندلس<sup>(٢٦)</sup> وترجع خفته على القلوب والأسماع إلى بعده عن الموضوعات المخجلة التي ظهرت عند أبي نواس ، ويهدف أصحابه إلى إضحاك أنفسهم والناس حتى لو كان ذلك على حساب وقارهم وسمعتهم .

والأطعمة والأشربة من أهم الموضوعات التي خاض فيها أهل المجون<sup>(٢٧)</sup> ولا نجد تعليلاً لذلك إلا مانعته من أن المجون نوع من الشذوذ ، يلجأ إليه مرضى الأعصاب وأشباههم من كل منغص في حياته للتنفيس عن أعصابهم المتعبة ونفوسهم المحزونة . ولما كان الطعام عند بعض الناس وسيلة سهلة وقرينة لتخدير الأعصاب وتهذبة النفس ، فقد أكثروا من الخوض فيه .

أما السبب في كثرة أهله وارتفاع أصواتهم إذ ذاك فيرجع إلى عوامل شخصية كتلك التي أشرنا إليها ، وعوامل اجتماعية وسياسية ؛ أهمها ميل المجتمع العربي المغلوب على أمره إلى اللهو والمرح شأن المجتمعات المتحضرة المنحلة ، الجادة في البحث عن سعادتها أو راحتها النفسية والروحية بأى ثمن وبأية وسيلة .

وإذا كان هذا الميل إلى اللهو والمرح قد ترك صداه عند الرومان في المصارعة ونحوها من ألوان العبث ووجد اليوم متنفساً فيما شاع بيننا من تمثيل هزلي ، فإنه أثناء تلك العصور قد وجد في الشعر العربي أيسر أداة لتحقيق أهدافه . وأكبر الظن أن كثيراً من أشعار المجنون كانت تنظم وتنشد بقصد إضحاك الرؤساء

(٢٦) اقرأ للعلالي في بتيمة الدهر للثلاثة الأول ، لابن بسام في الذخيرة للرابح .

(٢٧) ويلها الحديث عن الصنع والضرط ونحوه من الأمور المضحكة . فإذا ما تعرضوا للذكر الفواحش بدأ من حديثهم قصد الدعاية الذي يخف من سماحتها كما ترى في هجاء الواساني لابن أبي أسامة . وقد ذكرناه في لفصل الخاص بالهجاء .



والأفراد ونيل جوائزهم<sup>(٢٨)</sup> وقد روى لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشعراء لتسليتهم وأحاديث أبي دلالة مع خلفاء بني العباس مشهورة ، ولهم مع أمثاله أمثالها ، فليرجع إليها من شاء في كتب الأدب والتاريخ . وفي مروج الذهب طرف صالح منها .

وربما انتهز بعض السادة مع الوزراء وأشباههم إحدى الفرص المواتية ليجعلوا من الشعر مادة فكاهة وتسلية . ومن ذلك ما أخبرنا به الثعالبي<sup>(٢٩)</sup> من أن صاحب بن عباد أوعز إلى الندماء المقيمين في حضرته أن يعزوا أبا عيسى بن المنجم حين نفق برذون له كان الصاحب قد حملة عليه . وقد لبي هذه الدعوة الكريمة عدد غير قليل من الشعراء . وإليك عدة أبيات مما جادت به قريحة أبي القاسم بن أبي العلاء في تلك المناسبة ، والتهكم والمجون فيه غير خفي وفيه يقول :

بكته جلال<sup>(٣٠)</sup> الخزو وانتحبت له      مخالى حرير رُحْنٍ منه عطولا  
أقام عليه آل أعوج<sup>(٣١)</sup>      وأعلى له آل الوجيه عويلا  
ففي كل اصطبل أنين وزفرة      تردد في بكرة وأصيلا  
ولو وقت الجرد الجياد حقوقه      لما رجعت حتى المات صهيلا  
ولو أنصفته الخيل ما ذقن بعده      شعيراً ولا تبناً ومتن غليلا

وما زال هذا الفن يستشرى ويستفحل ويزداد إعجاب الناس به ورضا الرؤساء عنه بل وإثابتهم عليه حتى رأيناه يحتل مطالع القصائد عند المداحين من أهل المجون وقد ذكرنا نموذجاً لذلك عند الحديث عن بناء القصيدة . وينبغي ألا ننسى أن اضطراب الدولة ، واستبداد الأجانب من ترك وفرس وأشباههم بثنونها ، مع تطامن الحق وانكماشه ، واستعلاء الباطل واختياله قد

(٢٨) يؤيد ذلك ما رواه الثعالبي من أن ابن حجاج إمام أهل المجون في عصره كان مكرماً من أهل الجاه والسلطان وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر يتحكم الصبي على أهله بيتمة الدهرج -

٣ - ص ٢٦ .

(٢٩) بيتة الدهرج - ج - ٣ - ص ١٩٤

(٣٠) الجلال . أكسية الدواب .

(٣١) أعوج فرس لبني هلال ينسب إليه جباد الخيل والوجيه من الخيل . الذي يخرج يده سد التاج معاً

ملاً صدور بعض الناس أسي ، ودفع آخرين إلى السخرية من أنفسهم ومن  
الزمن بتلك الحيلة البريئة المأمونة العواقب . وإليك بعض أمثلة لما قيل في تلك  
الفترة من مجون ونبدأ بأبيات قالها ابن حجاج وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار  
تطمع لحوم الجداء :

رأيت كلاب مولانا وقوفاً ورابضة على ظهر الطريق  
فن ورد له ذنب طويل يعقّفه ومهلوب مخلوق<sup>(٣٢)</sup>  
تغذّي بالجداء فوددت أني وحق الله خركوش سلوق  
نيا مولاي رافقي بكلب لآكل كل يوم مع رفيقي  
أرى القصاب قد أضحى عدوى لشؤم البخت والملح صديقي  
جفاني اللحم وهو شقيق روحي فن يعدى على ذاك الشقيق

أما أبو الرقق فيقول قصيدة يعجب فيها بنفسه وبأنه كان قواداً حاذقاً :  
فأطيب العيش ما كان عندي أيام كلفسق قلّودني<sup>(٣٣)</sup>  
وكنت طباً به بصيرا وأقود الناس في سكون  
والناس يسعون نحو داري من كل أرض ويقصدوني

ومن أشعار ابن مسعود في هذا الباب :

جنبونا سجية العشاق ودعونا من الهوى والتلاق<sup>(٣٤)</sup>  
وأقلوا من البكاء على الرسم م ولا تأسفوا غداة الفراق  
ما بشخص الحبيب يفرح ذو العقل م ولا بالحدود والأحساد  
إنما الملك ثردة من بقايا من دجاج مسمّات عتاق  
وإذا قيل لي بمن أنت صب وعلام انسكاب دمع المآقي  
قلت: بالسكباج والجمليا تورخص الشواء معا بالرقاق  
وجشيش السميد أعذب عندي من رضاب الحبيب عند العناق

(٣٢) ورد: يميل إلى الحمرة ، يقصفه: يطويه على هيئة دائرة ، مهلوب: مقطوع الذنب: مخلوق بفتح أوله  
يميل لونه إلى الصفرة .

(٣٣) يتيمة الدهر للتعاليبي ج - ٣ - ص ٥٠ .

(٣٤) نفسه ح - ١ - ص ٢٨٦ .

درس هذا الموضوع بأسهاب في الجزء الثالث من تاريخ الشعر .

## الطبيعة :

عرف الجاهليون الطبيعة وأحبوها وأكثرها من القول فيها فوصفوا القفار والجبال ، كما وصفوا السيول والأمطار وما ينبت عليها من أعشاب ونحوها وكان أكثرهم وصفاً لها امرؤ القيس الذي وهب نفسه ووقف ملكته على متع الشباب المختلفة من غزل وخمر وصيد وخيل وتجوال بين أعطاف الطبيعة وتغنّى بكل ذلك في شعره ، ولم يحطم قيثارته إلا الموت ، وإن تغيرت نغماتها بعد مقتل أبيه فصار فيها حزن مختلط بالجد . ولا تكاد تخلو قصائده الكبرى من ذكر الصيد والخيل والطبيعة ، وأبياتها في ختام معلقته من أجمل ما عرف في الشعر الجاهلي خاصاً بوصف الطبيعة وقد اقتدى به أئمة مدرسة الصنعة في العصر الجاهلي من أمثال زهير وأوس بن حجر . ولكن الطبيعة أخذت تتطور في العصر العباسي في نفس الاتجاه الذي تطورت إليه الحياة العامة والآداب .

فارتدت ثيابا إنسانية لم يكن لها بها عهد في العهدين الأموي والجاهلي وقد رأينا صورة من ذلك في شعر أبي تمام وابن شهيد حيث شبهوها بالنساء ثيبات وأبكارا . ولكن أهل الأندلس كانوا أكثر نجاحا وتوفيقاً في ذلك من شعراء الشرق . ومأثور أشعارهم في ذلك الباب أرق وأبرع ، ويظهر أن شعورهم بالطبيعة وامتراجهم بها كان أقوى وأعمق . وإليك أبياتا يتحدث فيها جعفر المصحفي حديثاً لا تدرى أهو عن سفر جلة كما يجربنا هو ، أم امرأة كما تحدثنا الأبيات نفسها وطريقة نسجها .

ومصفرة تخال في ثوب نرجس  
ها ريح محبوب وقسوة قلبه  
فصفرتها من صفرتي مستعارة  
فلما استتمت في القضيبي شبابها  
مددت يدي باللطف أبغى اقتطافها  
وكان لها ثوب من الزغب أغبر  
وتعبق عن مسك زكيّ التنفس<sup>(٣٥)</sup>  
ولون محب حلة السقم مكتسى  
وأنفاسها من طيب أنفاس مؤنسى  
وحاكت لها الأنواء أبرد سندس  
لأجعلها ريجاتي وسط مجلسي  
يرفّ على جسم من التبر أملس

(٣٥) الشعر الأندلسي (غرسبه عوس) ص ٩٠ الحلة ص ١٤٤ .

فلما تعرّت في يدي من لباسها ولم تبق إلا في غلاله نرجس  
 ذكرت بها من لأبوح بذكره فأذبلها في الكفّ حرّ تنفسي  
 وإليك أبياتاً أخرى للتطبيق الروائي تبين مدى ما كان من امتزاج بين أنفسهم  
 وبين الطبيعة من جهة ، وتشابه بينها وبين المرأة من جهة أخرى<sup>(٣٦)</sup> .  
 ودّعت من أهوى أصيلاً ليني  
 ذقت الحمام ولا أذوق نواه  
 فوجدت حتى الشمس تشكو وجده  
 والورق تنسب شجوها بهواه  
 وعلى الأصائل رقّة من بعده  
 فكأنها تلقى الذي ألقاه  
 وغدا النسيم مبلغاً ما بيننا  
 فلذلك رقّ هو وطاب شذاه  
 ما الروض قد مزجت به أنداءه  
 سحراً بأطيب من شذى ذكراه  
 الزهر مبسمه ونكهته الصبا  
 والورد أخضله الندى خداه  
 فلذلك أولع بالرياض لأنها  
 أبداً تذكرني بمن أهواه

وهذا الشبه الذي تصوّروه بين الطبيعة والمرأة وتلك العواطف المتبادلة بينهم وبين  
 الطبيعة هو الذي مهد لظهور الطبيعة في المطالع كما ذكرنا في غير هذا المكان .  
 وليس هنا من تعليل لاختلاف مذهب القدامى عن المحدثين من حيث وقوف  
 الأوائل عند حدود الصورة الظاهرية للطبيعة ، والربط بينها وبين العواطف  
 الإنسانية عند الأواخر سوى ما قدمناه من ميل الجاهليين إلى التصوير<sup>(٣٧)</sup> :

(٣٦) نيكل ص ٣٧ .

(٣٧) كان القدامى يعيشون على هامش الحياة . ولا يكادون يتغلغلون بصائرهم وراء ماتع عليه أبصارهم  
 من تلك القشرة السطحية للعالم الذي يعيشون فيه .

ونضيف إليه اليوم خضوع الطبيعة في بوتقة العقلية الحديثة لما خضعت له معظم مظاهر الحياة نتيجة للعلم والحضارة ، الذى يميل إلى تعمق الأشياء ، والربط بين بعضها وبعض ، وتعليل ما لم يكن يحتاج منها إلى تعليل عند القدامى إلى غير ذلك من آثار تقدم العلوم والفنون . فقد رأى الأوائل ثمار الفواكه التى كانوا يعيشون عليها تسقط دائماً إلى الأرض وحدها ، ولكن أحداً منهم لم يفكر يوماً من الأيام فى سبب سقوطها نحو الأرض ، حتى وقف منها أحد أقطاب العلم الحديث موقف الناقد البصير ، وربط بينها وبين جاذبية الأرض . ومثل ذلك يمكن أن يقال فى الأدب والشعر فقد مر شعراء العصرين الجاهلى والأموى آلاف المرات على الأزهار مصفرها ومحمرها دون أن يلاحظوا فى ذلك شيئاً سوى جمال منظرها وتضوع شداها ، حتى إذا جاء العصر العباسى بعلمه وثقافته وفلسفته . نضج العقل الإنسانى ، وأصبح يربط بين مظاهر الطبيعة المختلفة ، فىرى شها بين صفرة الوجه من أثر الشوق ، والصفرة الطبيعية فى الورود والأزهار ، ويحس فى النسيم رقة واعتلال فيحئيل إليه ، أو بعبارة أدق يحئيل إلى الناس أنه يعانى من الشوق إلى الحبيب مثل ما يعانى ، فأصيب بما أصيب به الشاعر من رفته وضعف كما رأينا عند الطليق المروانى ، أو يتوجع للشاعر فلقى من البلاء ما لقيه كما ترى فى قول ابن زيدون :

إنى ذكرك بالزهراء مشتاقا والجو طلق ووجه الأرض قدراقا (٣٨)  
وللسنيم اعتلال فى أصائله كأنما رقى لى فاعتل إشفاقا

هذا وينبغى أن نشير إلى ما كان من اتساع هذا الفن اتساعاً كبيراً لم يقف عندما أشرنا إليه من احتلال صدور القصائد ، بل قوى سلطانه على النفوس حتى غلب على بعض الشعراء كابن خفاجة بالأندلس والسنوبرى بالشام . أما الأول فلا يكاد يرى له شعر فى غير الطبيعة ولسنا ندرى من ظروفه الآن ما يعين على معرفة الأسباب التى انتهت به إلى ذلك سوى أمرين اثنين أما أولهما . فنشأته فى جزيرة شقر على الساحل الشرقى للأندلس وهى تتمتع بما يتمتع به حوض البحر الأبيض المتوسط من سماء مشرقة ، وجو دفىء . هذا إلى إحاطة البحر بها ، وكثرة رياضها وزرعها .

(٣٨) ديوان شرح كيلانى ص ٢٥٧ .

أما السبب الثاني فاضطراب الحال السياسية ، وتزعزع ملك المسلمين بالأندلس ، واضطراب الدولة كاضطراب حال الأسرة تدفع أفرادها للبحث عن هوية من الهويات يشغلون بها أنفسهم . وينسون بها الآمهم فيتجه بعضهم إلى الرياضة البدنية ، وينصرف بعض آخر إلى المقاهى ، أو دور الخيالة أو الخمر أو ما إلى ذلك ، وهذا هو السبب فيما تدّعيه من أن الحال السياسية المضطربة كثيرا ما تكون مسئولة عن الاتجاهات الأدبية المختلفة من مجون وخمريات حيناً ، ووصف للطبيعة أحياناً لأن في كل منها انصرافاً عن الحياة العامة وهرباً من التفكير فيها أو الاتصال بها .

شعر الخصومات : لعل هذه أقرب تسمية إلى ذلك النوع من الشعر الذى ظهر أول ما ظهر أثناء العصر الجاهلى فى معلقة الحرث بن حِلْزَة ؛ فهو ليس فخرًا لأن الفخر لا يهتم إلا بمواقف المفاخر وأمجاد قبيلته . أما معلقة ابن حلزة فقها شئ كثير من المنطق والجدل وإقامة الحججة على سلامة موقف أحد الخصمين ، وعدوان الطرف الآخر كما ذكرنا سابقا . وكان هذا النوع من الخصومات فى العصر الجاهلى بين بعض القبائل وبعض فلما جاء الإسلام اتسع هذا النوع من الشعر ، واصطبغ بصبغة سياسية دينية ، حيث صار بين الرسول وصحبه من جهة ، وقريش ومن معها من جهة أخرى . وخمدت فى الوقت نفسه الخصومات بين القبائل ولو إلى حين . حتى إذا جاء العصر الأموى عادت الخصومات بين القبائل إلى أشد مما كانت عليه ، كما ترى فى شعر جرير وخصومه ، ونهض إلى جانبها نوع من الخصومات يمكن أن نسميها الخصومات السياسية أو الحزبية فظهر الحزب الزبيرى والأموى والمهاشمى . وكان لكل منها شعراؤه دعائه ولم يعمر الأول طويلا فاضطر شاعره الرسمى عبيد الله بن قيس الرقيات أن يدخل فيما دخل فيه الناس وأن يهادن بنى أمية رضى أم سخط .

وفى عهد بنى العباسى اتسعت الخصومة القبلية فبعد أن كانت تنشب بين القبيلة وجارتها أو منافستها كما حدث فى العهد الأموى ، صارت تشمل عرب الشمال جميعا ، وعرب الجنوب ، حيث وقف هؤلاء ضد أولئك فى خصومة

كلامية حمل أبو نواس لواءها ، وما أكثر ما حمل من ألوية في ذلك العصر  
ومن أمثلة ذلك قصيدته المشهورة التي يقول فيها مفتخراً بعرب الجنوب :  
فافخر بقحطان غير مكثب فحاتم الجود من مناقبها (٣٩)  
ولا ترى فارسا كفارسها إذا زالت الهام عن ماكبها  
عمرو وقيس والأشتران وزيد الخيل أسد لدى ملاعها  
بل مل إلى الصّيد من أشاعها والسادة الغر من مهالها  
هل يغسلن عن نسائهم ما أفرغ الأزدي في كعائبها؟

ويأخذ بعد ذلك في هجاء القبائل العدنانية واحدة بعد الأخرى ، متعرضاً  
لتميم وقيس عيلان وأسد وبكر وتغلب والنمر وقاسط ، متفضلاً على كل منها بمذمة  
أو منقصة ؛ ليكون ذلك بإزاء مانسبه إلى قحطان من مفاخر وأجناد ، وليس  
بعجيب أن يطيل الرشيد حبسه فيها ، حيث ينتسب الخليفة نفسه إلى قبائل  
الشمال .

ولسنا نعتقد أن مجرد ولائه لليمن ، أو إغداق اليمنيين عليه ، كان كافياً لهذه  
الثورة العارمة ، وأقرب من هذا الحقائق الأشياء أن يقال : إن الرجل كان حانقاً  
على الجنس العربي ، لكونه مجهول النسب ، تافه الحسب فيهم ، وهم قوم  
يسرفون في تقدير أنفسهم ، ويتطاولون على الناس بأحسابهم وأنسابهم . وهذا هو  
سر ما كان منه من ميل إلى الفرس وهجرم على العرب كما يبدو من قوله :  
ولفارس الأحرار أنفس أنفس

وفخارهم في عشرة معدوم (٤٠)

نادمتهم أرتاض في آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسوم  
وإذا أنادم عصبية عربية بدرت إلى ذكر الفخار تميم  
وعدلت إلى قيس وعدت قوسها سبيت تميم وجمعهم مهزوم  
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرا فنطق شربهم مذموم (٤١)

(٣٩) ديوانه ص ١٥٦ .

(٤٠) ديوانه ص ٣٣٢ .

(٤١) يعني أنهم لا يحمدون الثرة على الشراب .

لايبدخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العرب اعتدت تسليم (٤٢)  
وأبيات أبي نواس هذه تذكرنا بنوع آخر من الخصومات ونعنى به ذلك  
الذى نشب بين العرب والموالى الداخلين فى الإسلام من فرس وغيرهم وسمى  
بالشعبوية ، فقد أنف هؤلاء الموالى من تعالى العرب عليهم . وبدأ شعراؤهم فى  
العصر الأموى يردون على ذلك التعالى ، مفتخرين بأحسابهم وما كان لدولهم من  
ماض مجيد . ومن هؤلاء فى عهد بنى أمية إسماعيل بن يسار ويزيد بن ضبة ، وقد  
كان من تعصب الأول للفرس أن مدحهم فأسرف فى المدح أمام هشام بن عبد  
الملك فى قصيدة لم يذكر فيها شيئاً لهشام ، مما أغضب الأخير ؛ حتى أمر بأن يُغَطَّ  
فى الماء ، ففعل به ذلك حتى كادت تخرج روحه ، ومما قاله فى ذلك اليوم  
المشثوم :

إني وجدك ماعودى بدى خور عند الحفاظ ولاحوضى بمهدوم (٤٣)  
أصلى كريم ومجدى لايقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم  
من مثل كسرى وسابور الجنود معا والهزمزان لفخر أو لتعظيم  
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم

وأما فى العصر العباسى فقد قويت شوكة الفرس وشعرائهم ؛ لمكانتهم الرفيعة  
فى الدولة ، واشتراكهم فى السياسة العليا لها . وكان من آثار ذلك أن جهر  
شعراؤهم بمهاجمة العرب والتهمك بهم ، وكانوا قديما لايطمعون فى أكثر من  
الإشارة إلى مجدهم السابق ، ويلقون على ذلك نكالا شديداً . وكان من أشد  
الشعراء تعصباً للفرس بشار بن برد ، والمتوكلى من قدماء المتوكل العباسى ، ومما  
قاله الأول فى هذا الصدد لبعض الأعراب ، وقد فخر عليه :

أحين كُسيّت بعد العرى خزاً ونادمت الكرام على العقار (٤٤)  
تفاخر يابن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار  
وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب فى ولغ الإطار

(٤٢) بلح كفرح . تكبر .

(٤٣) الأعلى - ح - ٤ - ص ١٢٤ .

(٤٤) نفسه - ح - ٣ - ص ٣٣ .



ومما قال الأخير:

فقل لبني هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم (٤٥)  
ملكناكم عنوة بالرما ح طعنا ، وضربا بسيف حذم  
وأولاكم الملك آباؤنا فما إن وفيتم بشكر النعم  
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعى الغنم  
فأنى سأعلوا سرير الملوك بجد الحسام وحرف القلم

ولعل القارئ لهذه الأبيات ، يرى البون الشاسع بينها وبين ما كان يقال في العصر الأموي من أشعار في هذا الصدد .

أما الشعر السياسي أو الحزبي ، فقد ظل قويا وإن اختلف عن سلفه في العصر الأموي من عدة وجوه

أولا: ضعفت فيه نزعة التحمس والتطرف التي كنا نراها عند الكميت وابن قيس الرقيات .

ثانيا: قل عدد الأطراف المعنية بتلك الخصومات في هذا العصر ، حيث انتهى الحزب الأموي بانتهاء دولته ، كما حدث للحزب الزبيرى من قبل . ولم يبق في الميدان إلا العباسيون ومعارضوهم من العلويين وكان لكل حزب دعاته من الشعراء . وعبد الله بن المعتز العباسى كان من أكثر الناس دفاعا عن أسرته وهجوما على العلويين ، ولا يضعف من قدر ذلك الشعر إلا ما كان من اختلاطه بالشكوى والفخر . الأمر الذى جعله يبدو وكأنه أثر من آثار النزاع الشخصى بينه وبين أبناء عمومته ومع أن أنصار بنى العباس من الشعراء فيما عداه كانوا طلاب أموال فإن بعضهم ربما احتج لسادته فأحسن الاحتجاج وبلغ من ذلك ما يريدون كما ترى في مثل قول مروان بن أبى حفصة يخاطب العلويين:

خَلَّوْا الطَّرِيقَ لِمَعْشَرِ عَادَاتِهِمْ حَطَّمِ الْمَنَاكِبِ يَوْمَ كُلِّ زَحَامٍ (٤٦)  
وَارْضَوْا بِمَا قَسَمَ إِلَيْهِ لَكُمْ بِهِ وَدَعُوا وَرَائَهُ كُلَّ أَصِيدٍ حَامِيٍّ

(٤٥) الولغ بفتح فسكون أن يتناول الكلب الماء بلسانه ، والإطار: خشبة المنحل وغيرها مما يحيط بسواه فلعله يشير إلى جدران الأواني حين يلحقها الكلب تاريخ الشعر السياسى ١٩٦ .

(٤٦) ضحى الإسلام - ج - ٣ - ص ٣١٢ .

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني السبنات وراثه الأعمام  
وإذا كانت هذه الأبيات تمثل الواقع المرير الذى وجد العلويون أنفسهم  
أمامه ، وتذكرهم بثوراتهم الفاشلة ضد الأمويين والعباسيين . وأخيراً تكاد  
تفحمهم بما تشير إليه من قوانين الميراث ؛ فإن الأبيات التالية للسيد الحميرى  
تمثل العواطف التى كانت تجيش فى صدور العامة لحفدة الرسول من أبناء على  
وفاطمة . وهى عواطف لها تأثيرها العميق على النفوس .

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد  
ولا عهده يوم الغدير المؤكدا<sup>(٤٧)</sup>  
فأنى كمن يشرى الضلالة بالهدى  
تنصّر من بعد الهوى وتهودا  
ومالى وتّيم أو عديّ وإنما  
أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا  
تم صلاتى بالصلاة عليهم  
وليست صلاتى بعد أن أتشهدا  
بكاملة إن لم أصل عليهمو  
وأدع لهم ربّا كريما ممجدا  
بذلت لهم ودى ونصحى ونصرتى  
مدى الدهر ما سميت يا صاح أحمدا  
وإن امرأ يلحى على صون ودهم  
أحق وأولى منهم أن يفسندا  
فإن شئت فاخترعا جل الغم ظلة  
وإلا فأمسك كى تصان وتحمدا

ولعل القارئ يلاحظ أن الشاعر يكاد يشمل العباسيين أيضا بمدحه وولائه  
حيث إنهم من أسرة الرسول التى يتغنى بجمها ومحامدها . وفى الحقيقة إن حملة السيد

(٤٧) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ص ٣٥١ .

الحميرى لم تكن موجهة ضد العباسيين بقدر ما كانت موجهة ضد الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين لعلى ؛ لحيلولتهم دون توليه الخلافة .

ولكن الشاعر الذى يشبه الكميث تماما من حيث الحملة على الأسرة الحاكمة هو دعبل الخزاعى الذى هاجم خلفاء بنى العباس بقدر ما أشاد بذكر بنى على وتوجع لهم ، ومن ذلك قوله فى المأمون :

أيسومنى المأمون خطة عاجز أو مارأى بالأمس رأس محمد (٤٨)  
إن من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد (٤٩)  
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنفذوك من الحضيض الأوهده  
وترى له إلى جانب ذلك شعراً عاطفياً رقيقاً فى بنى على مثل قوله :

قفا نسأل الدار التى خَفَّ أهلها  
متى عهدها بالصوم والصلوات (٥٠)  
وأين الألى شَطَّت بهم غربة النوى  
أفانينَ فى الآفاق مفترقات  
همُ أهل ميراث النبى إذا اعتزوا  
وهم خير قادات وخير حِماة  
وما الناس إلا حاسد ومكئذب  
ومضطغن ذو أجنة وترات  
ملاَمَكَ فى أهل النسبى فلإنهم  
أحبَّأى ما عاشوا وأهل ثقاتى  
فيارب زدنى من يقينى بصيرةً  
وزد حبهم يارب فى حسناتى

(٤٨) معجم الأدباء - ح - ١١ - ص ١٠٠ .

(٤٩) كان رزيق الجند الأكبر لظاهر بن الحسين من موالى خزاعة التى يتنسب إليها دعبل ، وظاهر كما هو معروف هو الذى تولى قتل الأمين ووضع المأمون مكانه على عرش بغداد .

(٥٠) نفسه ص ١٠٣ .

ألم ترأى من ثلاثين حجة  
أروح وأغـدو دائم الحسرات  
أرى فيهم في غيرهم متقسّما  
وأيديهم من فيهم صفرات  
فآل رسول الله نُحِفُ جسومهم  
وآل زياد حُفَل القصرات<sup>(٥١)</sup>  
بنات زياد في القصور مصنونة  
وآل رسول في الففلوات

وينبغي أن تذكر وأنت تتحدث عن شعر الخصومات نوعاً جديداً كل الجدة ،  
لعله أشد تصويراً لما أصاب الحياة السياسية والاجتماعية من تطور خلال العهد  
العباسي من أي شيء آخر. ونعني به تلك الحرب الخفية التي كانت تدور بين أبي  
العتاهية وأبان بن عبد الحميد في ميدان الشعر ، والتي كانت امتداداً طبيعياً للنضال  
السياسي المستتر المكشوف الذي يدور بين الفضل بن الربيع والبرامكة . ولم تتحول  
إلى صدام بين الشاعرين لأن كلا منهما كان مأجوراً لا يهتم إلا بالناحية المادية لتلك  
الحرب ، ولأن سادته كانوا حريصين على أن يظل ذلك النضال الأدبي محصوراً في  
دائرة ضيقة ، وتفصيل هذا أن الحياة السياسية في العصر العباسي قد تطورت تطوراً  
خطيراً حين اتخذ خلفاء بني العباس الوزراء والحجاب ، على غير ما كان يفعل  
الأمويون الذين يعتمدون على أنفسهم في إدارة شؤون الدولة . وقد دعا ذلك في  
العهد العباسي إلى التنافس بين الرؤوس الكبيرة التي حول الخليفة . وكيد بعضها  
لبعض على نحو ما نرى من الأحزاب السياسية في العصر الحديث . وكان أول مظهر  
من مظاهر ذلك الاحتكاك ما ثار بين الربيع بن يونس وأبي عبيد الله معاوية بن يسار  
وزير المهدي من خلاف استغل فيه الربيع موهبته النادرة في الدس والإيقاع حتى  
تمكن من طرد ابن يسار نهائياً من دولة المهدي ، بعد أن أقنع الخليفة بأن ولده

(٥١) القصرات: جمع قصرة بفتحين وهي أصل العتق وقصرة حافلة أي غليظة .

زنديق يستحق أن يلحق بالزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس وبيشار بن برد (٥٢).

ولكن الربيع لم يمت حتى أورث ابنه الفضل هذه الخبرة الواسعة في الدس والكيد . وما كاد الرشيد يتولى مقاليد الحكم رسمياً ، ويضعها في يد يحيى البرمكي وأولاده عملياً ، حتى غلت مراحل الحقد في صدر ابن الربيع ، ألم يكن والده أكبر رأس في دولة المهدي بعد المهدي ، فكيف يرضى هو بالتأخر والانزواء ، لقد أخذ يرسم الخطط ويعدّ العدة للإيقاع بالبرامكة فأنشأ حزباً عربياً أعضاءه من بين كبار العباسيين ، ترعاه زبيدة ، ويديره هو دفته ، هدفه مقاومة ذلك النفوذ الفارسي الذي رفع البرامكة لواءه ، ونصب عليهم الجواسيس في دورهم ، وشدد الرقابة عليهم في كل مكان (٥٣) .

والذي يهمننا من كل ذلك أن ابن الربيع أخذ يحارب مجالس اللهو التي تجمع الرشيد دائماً بجعفر البرمكي فتحدث بينهما نوعاً من الانسجام يصعب معه على ابن الربيع التفرقة بينهما كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وهنا يأتي دور أبي العتاهية الذي كان عليه بعد أن امتنع عن إمداد المغنين والمغنيات بشعر الحب كي يصوغوه ألحانا وأغاريد يحيون بها مجالس الرشيد مع نديمه جعفر ، كان عليه بعد ذلك أن يطره بوابل من شعر الزهد يجرى دمه على لحيته مدراراً ، وينغص عليه ملذات الحياة . ولم يستطع البرامكة أن يكتموا غيظهم فقد روى أن الرشيد قال يوماً لأبي العتاهية صف مجلسنا هذا وما فيه من نعيم فأنشأ يقول والفضل بن يحيى جالس :

عش ما بدالك آمنا في ظل شاهقة القصور (٥٤)  
يُسى عليك بما اشتهيت م لدى الرواح أو البكور  
فإذا النفوس تقعقت في ظل حشرجة الصدور

(٥٢) الجهشباري (الوزراء والكتاب) ص ١٥٢ وما بعدها .

(٥٣) إن السبب المباشر في قتل جعفر البرمكي وهو إطلاق سراح الثائر العلوي يحيى بن عبد الله ما كان ليطلع عليه الرشيد لولا أن أحد الخدم الذي يعملون في بيت البرامكة لحساب الفضل بن الربيع قد أنهى الخبر إليه .

(٥٤) ديوانه (بيروت) ص ٩٢

فهنالك تعلم موقناً ما كنت إلا في غرور

وما كاد يفرغ من إنشاده حتى أخذ الرشيد في البكاء . وقد انتهز الفضل هذه الفرصة السانحة ليشفي صدره مما به من غل فقال للشاعر :

«بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فخرنته» فقال الرشيد : «دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه»

وأخيراً لم يجد البرامكة بدءاً من محاربة الفضل بن الربيع وشاعره بنفس السلاح الذي شهراه في وجوههم . وحمل أبان بن عبد الحميد تلك الأمانة وكان من آثار ذلك نظمه لكتاب كليله ودمنة . فقد ذكر الرواة أن يحيى بن خالد كلف أبانا نظمه وتعجّله في ذلك تعجلاً - حتى إذا ما فرغ منه أعطاه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة «ولا يدري إلا الله تعالى كم أعطاه جعفر - وأقبلوا جميعاً على الكتاب يحفظونه منظوماً<sup>(٥٥)</sup> .

ولم يذكر لنا الرواة سر تلك العجلة ، ولا اهتمام البرامكة بحفظه . ومعرفة موضوع الكتاب تهدينا إلى السرفى استغلال البرامكة له ، إن أهم أغراض هذا الكتاب قد تركّز في القصة الأولى من قصصه التي ترمى إلى تحذير الأصدقاء من دس الدساسين وكيد المفسدين . ثم تدور باقي قصصه حول سياسة الملك بأسلوب رمزي يجرى على ألسنة الحيوان . وأكبر الظن أنه ألف أول ما ألف ليكون نصائح مهذبة وغير مكشوفة قدمها أحد المقربين من ملوك الهند إليه حينما توجّس خيفة من كائد أو حاسد ، ولذا بدئ الكتاب بالغرض المباشر من تأليفه ثم زيد فيه بعض النصائح والوصايا الضرورية لكل من يتصدى لولاية أمور الناس . وإليك بعنوان «الأسد والثور» وتبدأ هكذا<sup>(٥٦)</sup> قال دبشليم الملك ليديا الفليسوف :  
أضرب لى مثلاً للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء . والقصة الثانية بعنوان «الحمامة المطوقة» وتتحدث عن الصداقة<sup>(٥٧)</sup>

(٥٥) الأوراق للصوى ص ٢ .

(٥٦) ص ٥١ من كتاب كليله ودمنة المطبعة الأميرية سنة ١٩٠٣

(٥٧) ص ٩٥ .

والثالثة بعنوان «اليوم والغربان» وتتحدث عن الأعداء ووجوب الحذر منهم (٥٨) والخامسة بعنوان «الناسك وابن عرس» وتنتهى عن العجلة وتأمر بالرؤية (٥٩) والسادسة بعنوان «الجرذ والسنور» وتتحدث عن رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب .

ولعل البرامكة وقد أعجبوا بموضوع الكتاب ، أحبوا أن يسلكوا مع الرشيد ماسلكه الهنود مع ملكهم من قبل ، وينبهوه إلى الأخطار التي يمكن أن يجر إليها إيقاع الفضل بن الربيع بينه وبينهم ، راجين بمثل ذلك أن يمتنع الرشيد عن الاستماع إلى وشائته وإفساده . وهذا هو السبب في حفظهم لذلك الكتاب منظوماً ، فالنظم أيسر على القارئ والسمع ، وأخف على الآذان ، وأسرع إلى القلوب .

ومن يدرى لعل كتب الأدب لم تتسع إلا القليل من أخبار تلك المناورات السياسية . ولعل الأمر لم يقتصر على إنشاد البرامكة بعض تلك الأبيات بحضرة الرشيد ، بل إن كان العتاهية لم يكن هو الوحيد الذي يرتل آيات الزهد «وأناشيد» الموت بين يدي هارون ، بل كان بجانبه آخرون (٦٠) .

وإليك فقرة من نظم أبان في قصة الأسد والثور نستعين بها على إيضاح فكرتنا وفيها يقول :

قال له السبع لقد سمعت      وكل ماتقوله فهمت (٦١)  
لكننى لست أظن ماتظن      بالثور من غش بلى ظنى حسن  
قال له دمنة : من ثم أتى      وهذه من حاله هى التى  
رفعته حتى تعدى طوره      وكان هذا لك منه شكره

(٥٨) ص ١٠٧ .

(٥٩) ص ١٣٧ ولعل البرامكة كانوا يودون أن يتروى الرشيد في النكال بهم .

(٦٠) لم يهتم المؤرخون بتلك التيارات الخفية التي كلنت تجرى وراء الأستار ، فلم يروا فيما قامت به ربيدة من حشد نحو مائتين من حواربها في قصر الخلافة بقصد تلاوة القرآن - ردًا على ما صنعه الرشيد حين استكثر من الجوارى المغنيات في القصر .

(٦١) الأوراق للصولى ص ٤٩ .

وتلك أخلاق اللثم الفاجر الكافر المعرور غير الشاكر  
ما إن يزال ناصحا نفاعا حتى يرى من حاله ارتفاعا (٦٢)  
فعندها يسمو إلى مافوقها إلى التي لا يستطيع أوقها

وأظن أن نواحي الجدة في هذا النوع من الشعر السياسي بيّنة فالشعراء هنا  
لا تعنيم القضايا التي يخدمونها كثيراً ، ولا يعرضون أنفسهم لغضب الحكام من  
أجلها كما يفعل ابن قيس الرقيات حين يدافع عن آل الزبير ، أو الكميت وهو  
يناضل عن بني علي ، بل يخدمون الأحزاب السياسية على نحو ما يفعل الصحفيون  
اليوم . وكل ما هنالك من فرق هو أن سلطان الخليفة الاستبدادي في ذلك العهد  
الغابر لم يكن يسمح بقيام أحزاب رسمية ، أو مهاترات سياسية مكشوفة ،  
فنشطت تلك الأحزاب نشاطاً خفياً ملتويّاً على أسلوب ذلك العصر في كل  
ما يتصل بالسياسة أو حرية الرأي .

والممتع لشعر ذلك العصر يستطيع أن يرى فيه لونا آخر يتصل بالسياسة من  
قرب ، ويتولى فيه الشعراء الدفاع عن حقوق الشعب دفاعاً متزناً ، فلا يأخذ  
صورة الثورة أو الهجوم المكشوف الذي تراه عند شعراء الشيعة ، بل يبدو في  
صورة التوجيه والرجاء الخالص لوجه الله والشعب . ونرى نموذجاً لذلك في قول  
أبي العتاهية :-

من مبلغ عنى الإمام م نصائحاً متواليّة (٦٣)  
إنى أرى الأسعار أسه ار الرعية غالية  
وأرى المكاسب مزرّة وأرى الضرورة غاشية  
وأرى غموم الدهر را نحة تمر وغدايية

(٦٢) الأرق: الثقل والشؤم .

( نصح للقارئ بالرجوع إلى الجزء الثالث من تاريخ الشعر فقد بحثت فيه هذه القضية بإسهاب .  
(٦٣) ديوانه ص ٣٠٤ ( بيروت ) ليس عجيباً أن نرى هذا النوع من الشعر لأبي العتاهية فقد كان يلذ له أن  
يرى حامى الدماء ضد الخاصة والحكام إرضاء لحاجات في نفسه أهمها مركب النقص والحقد الذى أشرنا إليه في  
غير هذا المكان . وهذا القدر المختار جزء من قصيدة فيها يسمى بالزهد تبدأ بقوله :

أين القرون الماضية تركوا المنازل خالية



وأرى السيتامى والأرا  
من بين راج لم يسزل  
يشكون مجهدة بأص  
يرجون رفسك كى يروا  
من يُرتجى للناس غير  
من للبطون الجائعا  
يبابن الخلائف لأفقد  
إن الأصول السطيا  
ألقيت أخباراً إلي

مل فى البيوت الخالية  
يسمو إليك وراجية  
وات ضعاف عالية  
مما لسقوة العافية  
ك للعيون الباكية  
ت وللجسوم العارية  
ت ولأعدمت العافية  
ت لها فروع زاكية  
ك السرعية شافية

وربما رمى هذا القفاز الناعم جانبا وهاجم الطبقات العليا هجوماً عنيفاً ثقيلاً على نحو مانرى اليوم بين أنصار الاشتراكية والشيوعية فيقول فى ثنايا شعره المسمى بشعر الزهد:

وياجامع الدنيا لغير بلاغه  
فلو أن ذوى الأبصار يرعون كلما  
فما يعرف العطشان من طال ربه  
وصارت بطون المرمات خميصة  
وإن بطون المكثرات كأنما  
ومع أن حقد أبى العتاهية على السادة والحكام بل والخلفاء كان مستورا<sup>(٦٥)</sup>  
أو كالمستور فإنه لم يسلم من التصريح به أحيانا كما فى قوله .

ستركها فانظر لمن أنت جامع<sup>(٦٤)</sup>  
يرون لما جفت لعين مدامع  
وما يعرف الشبعان من هو جائع  
وأيتامهم منهم طريد وجائع  
تنقنق فى أجوافهن الضفادع  
(٦٥)

إن الملوك بلاء حيثما حلوا  
ماذا ترجى بقوم إن هم غضبوا  
وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم  
فلا يكن فى أكنافهم ظل<sup>(٦٦)</sup>  
جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا  
واستثقلوك كما يستثقل الظل

(٦٤) ديوانه (بيروت) ص ١٥٠

(٦٥) لقد ظلت أعراض أبى العتاهية من شعره المسمى بشعر الزهد خافية حتى كشف عنها جهد متواضع لكاتب هذه السطور فى رسالة الدكتوراة جامعة لندن :

(٦٦) أبى العتاهية للأستاذ أحمد براق (لجنة البيان العربى) ص ١٧٤ .

فاستغن بالله عن أبوابهم كرمًا إن الوقوف على أبوابهم ذل  
أو قوله :

ما اختلف الليل والنهار ولا  
دارت نجوم السماء في الفلك<sup>(٦٧)</sup>  
إلا لنقل السلطان عن ملك  
قد انقضى ملكه إلى ملك

ويظهر أن ملك الروم الذي كان معجباً بهذين البيتين أو بخطه الشاعر العامة . قد  
أحب أن يستدعيه إلى بلاده ويستعين به على الدعاية ضد الرشيد ، على نحو ما  
يحدث اليوم أثناء الحروب ولكن الشاعر أججم .

ولم يكن أبو العتاهية وحده في الميدان بل كان بجانبه كثير من الوعاظ الذين  
لا يتورعون عن التدخل في السياسة بطريق مباشر أو غير مباشر كابن السماك  
وفضيل بن عياض<sup>(٦٨)</sup> وربما كان عبد الله بن عبد العزيز العمري أعظم جرأة من  
هذين فقد قال للرشيد يوما : « إن المرء يبذر في ماله الخاص فيحجر عليه . فما بالك  
بمن يبذر في أموال المسلمين ! »<sup>(٦٩)</sup> وعندما سمع هارون يوما أن عبد الله في طريقه  
من الحجاز إلى بغداد جمع من لديه من رجال أسرته وطلب إليهم أن يصدوه عن  
بغداد ويحولوا بينه وبين الرشيد وكان فيما قاله لهم : « لقد احتملته أثناء الحج ، أريد  
اليوم أن يحضر إلى بغداد وفيها جندي وأوليائي فيفسدهم على » .

والغزل بنوعيه قد تأثر أيضاً بما شمل الحياة الاجتماعية من تطور يكاد يكون  
فوضى وفساداً في بعض نواحيه ، فظهر في الحسي منه دعاة وتهتك أنستنا خلاعة  
أمرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة . وإليك نموذجاً من شعر بشار بن برد :

حسبي وحسب الذي كلفت به متى ومنه الحديث والنظر<sup>(٧٠)</sup>

(٦٧) مرآة الجنان - ح - ١ - ص ٤١٥ .

(٦٨) المرجع السابق ص ٣٦٧ .

(٦٩) الطبرى ح - ١٠ - ص ١٢٠ .

(٧٠) حديث الأربعاء - ح - ٢ - ص ٢٠٥ .

أو قبلة في خلال ذاك وما بأس إذا . . . . .  
أو عضّة في ذراعها ولها فوق ذراعى من عضها أثر  
أو لمسة دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه الستر  
والساق براقّة مخلخلها أو مص ريق وقد علا البهر

ولا عجب والحال هذه أن يَخْتَنق الغزل العفيف أو غزل الحرمان كما سميناه . فإذا  
استعصت الحرائر فالجوارى في كل مكان يزاحمن الرجال بالمناكب وهن على جمال  
يتضائل في جانبه جمال الحرائر من العرب . ولذا لا نكاد نرى له ممثلاً في هذا العصر  
سوى العباس بن الأحنف .

وهكذا لم يبق أمامنا من أغراض الشعر القديمة سوى الهجاء والمدح والفخر .  
وليس بعجيب أن نجمع بينها ؛ فالثاني نقيض الأول ولا يختلف عن الثالث إلا في  
الموضوع ، وقد تغيرت هذه الأغراض أيضاً تبعاً لتغير العصر ، فظهر في الهجاء عنصر  
التهكم وقد يمتد إلى الشعر الميميلون إلى الجد في هجائهم فيعمدون إلى انتقاص المهجو  
بيان تخلفه في ميادين الشجاعة والكرم في عبارة رصينة فإن عَلَّوْا في هجائهم  
خرجوا إلى السباب المحض كما ترى في قول الأعشى يهجو جهنم أحد بني عيدان :  
أتانى ما يقول لى ابن بظرى أقيس يابن ثعلبة الصباح (٧١)  
لعبدان ابن عاهرة وخلط رجوف الأصل مدخول النواحي

أو في قول زهير بن أبى سلمى يهجو الحرث بن ورقاء وقومه من بني أسد حين  
أسروا يساراً وحبسوه عندهم .

تَعَلَّمْ أن شر الناس حى ينادى فى شعارهم يسار (٧٢)  
ولولا عسيه لرددتموه وشر منيحة عسب معار (٧٣)  
إذا جمحت نساؤكم إليه أشط كأنه مسدُّ مغار

(٧١) في الجزء الثاني من تاريخ الشعر إيضاح لهذه القصيدة .

(٧٢) ديوان ص ٤٨ .

(٧٣) عسيه : ضرابه .

وربما رأينا عند بعضهم شيئاً من التهكم ولكن روح البداوة وصبغتها العامة عليه  
كما ترى في قول طرفة بن العبد يهجو عمرو بن هند :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثة حول قبتنا تخور<sup>(٧٤)</sup>  
من الزمرات أسبل قدامها وضرتها مركنة درور<sup>(٧٥)</sup>  
يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور<sup>(٧٧)</sup>

وقد ظل الشعراء في العهد الأموي ينسجون على منوال أهل الجاهلية كما ترى في  
نقائض جرير مع الفرزدق فقد استغل الأول سوء حظ جعثن أخت الفرزدق واعتداء  
بني منقر عليها فأخذ يكرر ذلك في نقائضه تكراراً سمحاً ونأسف لعدم استطاعتنا  
تسجيل شيء منه هنا ، ولكن القارئ يستطيع أن يرى صورة في قصيدته المشهورة  
التي يقول في أولها :

أقلسى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا<sup>(٧٧)</sup>

والحق أن نقائضه جميعاً لا تخلو من هذه النعمة البغيضة<sup>(٧٨)</sup> أما الفرزدق فقد  
ترفع عن ذكر العورات ، وإن أكثر من مخاطبة جرير بمثل قوله :

أنا البدر يعشى طرف عينيك فالتمس  
بكفيك يا ابن الكلب هل أنت نائله<sup>(٧٩)</sup>

استهانة به وبأبيه . وما من شك في أن الذوق العام كان يمقت هذا النوع من  
البذاء ويميل إلى التعفف عن نهش الأعراض وتتبع العورات ويرى أن التلويح خير  
من التصريح والمزاح أعذب من الجلد إن كان لابد من الكر والفر . ودليل ذلك أن

---

(٧٤) ديوانه ص ٦ الرغوثة الشاه المرضع - تخور: تصوت . وأصل الحوار للبقر .

(٧٥) الزمرات: قليات الصوف وخصها لأنها أغزر ألبانا - أسبل: طال . قدامها: ثديها - مركنة

ضخمة - درور: كثيرة اللبن .

(٧٦) الرخل على وزن ذئب ونمر الأثني من ولد الضأن ، تور . بناء فنون: تنفر .

(٧٧) ديوانه ص ٦٩ .

(٧٨) جرير ونقائضه للمؤلف .

(٧٩) نقائض جرير الفرزدق - ح - ٢ - ص ٦٠٦ .

النقاد وقد تعصبوا لجرير لم يجدوا له في الهجاء خيراً من قوله للراعي<sup>(٨٠)</sup>  
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا  
وقد ترجم الجرجاني الذوق العام بقوله : « فأما الهجو فأبلغه ما جرى بجرى الهزل  
والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض . وما قربت معانيه وسهل حفظه ،  
وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس فأما القذف والإفحاش فسباب محض ،  
وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم »<sup>(٨١)</sup> .

والآن وقد أشرنا إلى ما كان من شأن الهجاء في الماضي ورأى المحدثين من النقاد  
فيه ومحاولتهم تنظيمه وتهذيبه نعود إلى ما كان من أمره عند المحدثين فنذكر أنه قد جدَّ  
فيه أشياء واختلفت أخرى . ظهر التهكم ممتزجا بالهجاء ، واختلفت الحديث عن  
الأحساب والأنساب ومواقف الشجاعة والكرم ونحوها<sup>(٨٢)</sup> .

فقد عدنا لا نرى في هجاء هذا العصر مثل قول الحطيئة في الزبيرقان :

دع المكارم لا ترحل لبُعَيْتِها واقعد فأنتك أنت الطاعم الكاسي  
وإنما رأينا الشعراء يسلكون مسلكا قريبا من ذلك الذي روينا عن الجرجاني  
منذ قليل . حيث يعمد بعضهم إلى التهكم من بعض سالكين أيسر الطرق وأعظمها  
غناء في خدمة أغراضهم ، وأعونها على النيل من أعدائهم ، غير متورعين عن قذف  
المهجو بأشنع التهم<sup>(٨٣)</sup> وإن خففا من حدة ذلك بعرضه في قالب المزاح الذي  
يختلط فيه الجدل بالهزل ومن أمثلة ذلك قول أبي نواس لأبان بن الحميد اللاحق ناقضا  
ثناءه على نفسه :

لم يكن فيك من صفاتك شئ غير خَلْقٍ مُجَحِّدَرٍ دَحْدَاحٍ<sup>(٨٤)</sup>

(٨٠) طبقات الشعراء ص ١٣١ .

(٨١) الوساطة ص ٢٣ .

(٨٢) ذكرنا في موقف آخر أن الحديث عن الأسر والقبائل مدحا وهجواً قل بسبب ضعف الروابط التي من  
هذا النوع ، نتيجة لشيوع الحضارة ، ونمو الشخصية الفردية .

(٨٣) طهر في هذا العصر وفي ثانيا الهجاء اتهام بعض الناس لبعض بالتخث أو ما هو شر منه ، نظراً لانتشار

هذه المفاسد الخلقية إذ ذاك

(٨٤) ديوان أبي نواس ص ١٧ - والأوراق للصولي .

لحية نَطَّة ووجه قبيح وانثناء عن النهى والصلاح  
 فيك ما يحمل الملوك على الحرِّم ق ويُرِّي بالسيد الجحَّاح  
 فيك تيه وفيك نعجب شديد وطاح يفوق كل طاح  
 بارد الطرف مظلم الكذب ذو خَرِّ ق معيد الحديث تَزَّر المزاح  
 وقول أبي نواس لأبان أيسر حملا حين يقاس بقول أبي العتاهية لعبد الله بن  
 معن بن زائدة :

ألا قل لابن معن ا م لذي في الود قد حالا (٨٥)  
 لقد بُلِّغْتُ ما قالا فما باليت ما قالا  
 ولو كان من الأسد لما صال ولا هالا  
 فصع ما كنت حلَّيت به سيفك خَلْخالا  
 وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا  
 ولو مد إلى أذني ه كفيه لما نالا  
 وقد جلده عبد الله انتقاما منه على تطاوله عليه وإساءته إليه فقال فيه قصيدة  
 أخرى أشد صراحة وأعظم إيلا ما وفيها يقول :

قال ابن معن وجلا نفسه على من الجلوة يسأهلي (٨٦)  
 أنا فتاة الحى من وائل فى الشرف الشامخ والنبيل  
 ويلى ويسأهلى على أمرد يلصق مئى القرط بالحجل  
 صافحته يوما على خلوة فقال دع كفى وخذ رجلى  
 اخت بنى شيبان مرت بنا ممشوطة كورا على بغل  
 قد نَقَّطت فى وجهها نقطة مخافة العين من الكحل  
 أتجلد الناس وأنت أمرؤ تجلد فى الدبر وفى القبل  
 . ووالبة بن الحباب كان فريسة أخرى لأبى العتاهية . وقد تعجب حين تعرف  
 أن والبة هذا على تحلله من الأخلاق ، وخروجه على التقاليد قد اضطر تحت

(٨٥) الأغاني ج - ٣ - ص ١٣٢ .

(٨٦) نفسه ص ١٣١ .

ضربات أبي العتاهية المتوالية أن يفر من وجهه ، ويترك له بغداد على سعتها<sup>(٨٧)</sup> وكان مما قاله فيه :

صَرَّحَ بما قد قسلته واجهر لابن الحباب وقل ولا تنحصر<sup>(٨٨)</sup>  
مالي رأيت أباك أسود غر بيت القذال كأنه زرز  
وكان وجهك حمرة رثة وكان رأسك طائر أصفر  
وابن الحباب صليبة زعموا ومن المحال صليبة أشقر  
مابال من آباؤه عرب الأ لوان يُحسب من بني قيصر  
أترؤن أهل البدو قد مسخوا شُقرا أما هذا من المنكر

وهكذا استغل أبو العتاهية التباين الشديد بين لون والبة وأبيه الحباب واتخذ دليلا على أنه ليس منه ، بل من سفاح .

ولعل موقف أبي العتاهية من والبة يفسر لنا طرفا من أسرار تطور الهجاء في ذلك العصر . ألا ترى الأول لو قال في الأخير ماقاله الحطيثة في الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لاترحل لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أو مثل قول الآخر وقد عدّه قدامة من خبيث الهجاء<sup>(٨٩)</sup>

إن يغدورا أو يفجروا أو يبخلوا لا يبخلوا  
يغدوا عليك مرجلي م ن كأنهم لم يفعلوا

مانال منه شيئا ، وهل ينكر والبة لايجرى وراء شيء في الحياة سوى شهوة الفرج والبطن . وهل ينكر هو والمتحررون من أمثاله أنهم ساخرون من العرف خارجون على التقاليد ، لا يبخلون بأحد ولا يستحيون أحدا . إن والبة وأضرابه لا يفهمون إلا تلك اللغة التي خاطبهم بها أبو العتاهية فأذاهم ، ولا يفرقون إلا من تلك السياط التي سلقهم بها فأوجعهم . ومامن شك في أن هذا الاتجاه كان أثرا

(٨٧) الأعاني - ح - ١٦ - ص ١٤٤ .

(٨٨) نفسه .

(٨٩) نقد الشعر ص ٣٠ .

من آثار الترف الذى شمل الحياة العامة ، وميل الجمهور إلى اللهو والمرح على نحو ما ذكرنا سابقا في الفصل الخاص بالمجون .

وقد استغل الشعراء هذه النزعة العامة لإضحاك الناس من خصومهم ، وقد بلغوا من ذلك ما أرادوا ، فقد كان عبد الله بن معن يقول ، ما لبست سيني قط فرأيت إنسانا يلمحني إلا ظننت أنه يحفظ قول أبي العتاهية فيّ فلذلك يتأملني فأحجل<sup>(٩٠)</sup> يعنى قوله :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً  
وماتصنع بالسيف إذا لم تك قـتـالاً

وكان هارون الرشيد كلما رأى عبد الله بن معن تمثل قول أبي العتاهية :  
أخت بني سيبان مررت بنا ممشوطة كورا على بغل<sup>(٩١)</sup>

ولكن ليس معنى هذا أن السباب المقذع المكشوف قد اختفى من الشعر تماما إذا مازال هناك بقية منه نراها في مثل قول أبي الطيب المتنبي يهجو ابن كيبلغ :

يحمى ابن كيبلغ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الأعظم<sup>(٩٢)</sup>  
يمشى بأربعة على أعقابه تحت العلوج ومن وراء يلجم  
وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم  
يقلى مفارقة الأكف قذاله حتى يكاد على يد يتعمم

وأشد منه صراحة وإقذاعا ، وأعظم منه هجوما على الذوق وتحديا له هجاء يشار بن برد لضحاياه وإن شئت نموذجاً لذلك فاقرأ قصيدته في هجاء يحيى بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس والتي يقول في أولها :

لاتبغ شر امرئ شرا من الداء واقدح بجلم ولا تقدح بشحناء<sup>(٩٣)</sup>

واليك يتبين آخريين للشاعر نفسه في هجاء المهدي أمير المؤمنين وزوجته

(٩٠) الأغاني - ج ٣ - ص ١٣٤ .

(٩١) نفسه ص ١٣١ .

(٩٢) ديوانه شرح العكرى ح - ٤ - ص ١٢٦ .

(٩٣) ديوانه ص ١٢٢ .



الخيزران وولى عهده الهادى . فلإنها على سخفها أقل هجته من شعره فى يحى صالح . وفيها يقول :

خليفة يزنى بعائه يلعب بالدبوق والصولجان (٩٤)  
أبدلنا الله به غيره ودس موسى فى حر الخيزران

وينبغى أن نلاحظ أن شخصية الشاعر ذات أثر قوى فى الصبغة الغالبة على هجائه ؛ فهجاء الأشراف خلاف هجاء السوقة . وأهل الدعارة والفجور غير أصحاب الدين أو العفة . ويحاول بعض الشعراء أن يتكلم من خصمه قبيل من ذلك ما يريد ، بينما يتعثر الآخرون دون تلك الغاية ؛ ألا ترى أن أبا العتاهية قد نجح فيما أخفق فيه أبو الطيب المتننى وذلك لغلبة الجدة على الأخير واختلاط الأول بالمتنن من أهل بغداد وتعلمه كياهم ودهابهم .

وإذا أردت أن تعرف فرق ما بين السوقة والخاصة فاقرأ هجاء امرئ القيس لسبيع بن عوف أحد بنى طهبة :

أبلغ سبيعا إن عرضت رسالة إني كهملك إن عشوت أحام (٩٥)  
فاقصر إليك من الوعيد فأننى مما ألقى لأشدد حزامى  
ثم يستمر فى هجائه مثلاً هادئاً حتى يختمه بقوله .

خالى ابن كبشة قد علمت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمامى  
وإذا أذيت ببلدة ودعتها ولا أقم بغير دار مقام (٩٦)

وحيثما نضع بجانبه هجاء بشار أو أبى العتاهية يتضح ما أشرنا إليه من اختلاف الهجاء باختلاف الشخصيات : والسبب فى ذلك أن كل إناء بما فيه ينضح . وأن أهل المروءة يتقون العبث بأعراض الناس محافظة على أعراضهم . ومن ذلك ما يرويه ابن قتيبة (٩٧) من أن قائلاً قال للعجاج :

(٩٤) وفيات الأعيان - ح - ١ - ص ٨٩ .

(٩٥) ديوانه شرح السندوبى ص ١٧٨

(٩٦) أذى على وزن بى ، والمصدر أذى : معناه تأذى . ولا يصح أن يكون مبنياً للمجهول ، إذا كان يجب

أن يقال فيه أوذيت .

(٩٧) الشعر والشعراء ص ٢٦ .

إنك لا تحسن الهجاء . فقال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم .

أما أهل السفه فليس لهم من الأحساب والأنساب ما يغارون عليه أو يعملون على صيانته . فلا يضيرهم بعد ذلك أن يهاجموا الناس أو يتعرضوا لهجومهم . وقد استغل المُجَّان من شعراء القرنين الرابع والخامس الهجري المجون في الهجاء أوسع استغلال وأسوأ والقارئ في يتيمة الدهر للثعالبي يرى من ذلك ما يندى الجبين ومنه هجاء أبي القاسم الحسين بن الحسين الواساني لابن أبي أسامة ، وفيه يقول :

يا سا كنى حلب العوا صم جادها صوب الغمامة<sup>(٩٨)</sup>  
أنا في مدينتكم غربى ب لست من أهل الإقامة  
ثم يقول بعد قليل .  
وإذا بأسو د كالقنم ق يقل شيئا كالدعامة  
وإذا بشيخ تحته حسن الوسامة والقسامة<sup>(٩٩)</sup>  
والشيخ يعصر تحته قد بل من عرق حزامه  
إلى آخر ما قاله فيها .

وفي المدح تغيرت المثل العليا تبعا لتغيير الحياة الاجتماعية ، والمعايير الخلقية ، فبعد أن كانت الشجاعة والكرم وحماية الجار هي أهم ما يدور على ألسنة المادحين صرنا نرى أوصافا أخرى ترسم لنا شخصية مثالية غير تلك التي رسمها العصر الجاهلي لنفسه على ألسنة شعرائه ، شخصية تتحلّى برقة الحاشية وعدوبة الروح والظرف وغير ذلك من الصفات التي يطلبها مجتمع متحضر راق يعيش في ظلال بني العباس<sup>(١٠٠)</sup> ونستطيع أن نبين ملامح تلك الشخصية في قول أبي نواس يمدح الرشيد :

(٩٨) اليتيمة ح - ١ - ص ٢٩٥ .

(٩٩) الشيخ في هذا البيت والذي يليه ابن أبي أسامة

(١٠٠) إن المجتمعات كلما ارتفعت قل حديثها عن الشجاعة والكرم لعدم حاجتها إليها حيث تتكفل الحكومات بإطعام المحتاج وحماية الضعيف .

ملك تطيب طباعه ومزاجه حلو المذاق على فم المتذوق  
أو في قول أبي تمام يمدح أبا سعيد الثغرى :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أجأ إذن ثقلت وكان خفيفا  
وحلاوة الشيم التي لو ما زجت خلق الزمان القدم عاد ظريفا (١٠١)  
أو قوله فيه :

قطب الخشونة بالليان معاقبا فغدا جليلا في القلوب لطيفا  
هزته معضلة الأمور وهزها وأخيف في ذات الإله وخيفا  
يقظان أحصدت التجارب عقده شزرا وثقف حزمه تثقيفا  
واستل من آرائه الشعل التي لو أنهن طبعن كن سيوفا

ولعل ملامح تلك الشخصية الحديثة تبدو وأوضح ما تكون في تلك القصيدة  
التي أرسل بها أبان اللاحق إلى الفضل بن يحيى يزكى بها نفسه عنده وفيها  
يقول أبان :

أنا من بُغيه الأمير وكتر من كنوز الأمير ذو أرباح (١٠٢)  
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح راجح على النصح  
وظريف الحديث من كل فن وبصير بترهات الملاح  
شاعر مفلق أخف من الري شة مما يكون تحت الجناح  
أيمن الناس طائراً يوم صيد لغدو دُعيت أو لروح  
أبصر الناس بالجوراح والخيل وبالخرد الحسان الملاح  
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أننى ظريف المزاح  
لست بالناسك المشمر ثوييه م ولا الماजन الخليع الوقاح

وكأنما كان ينبغى للشخصية الحديثة أن تجمع بين عذوبة الخلق وجمال الخلق ولذا  
يحرص أبان على الإشارة إلى الأخيرة حين انتهى من الأولى فيقول :

(١٠١) وطيره قوله:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه يرد

(١٠٢) الأوراق للصولى ص ٤ ، ٥ .

لست بالضحخم يأميرى ولا القدم ولا بالمجحدر الدحداح  
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح (١٠٣)

وإنما شئت أن تعرف مدى ما كان بين القدامى والمحدثين فضع قول الأعشى في  
قيس بن معدى كرب :

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها  
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

بجانب قول أبي نواس في الرشيد :

يغشى الهجير بغرة مهديّة لو شاء صان أدبها الإكنان  
لكنه في الله مبتذل لها إن التقي مُسدّد ومعان

أرأيت عظم الفرق بين الحياتين والعقليتين . أما الأول فيحمد لصاحبه تعرضه  
للموت دون جنة ، وأما الثاني فيستكثر على ممدوحه التعرض للشمس دون وقاية .

أما الفخر فقد ظل على ما كان عليه في شعر ذوى الأحساب من أمثال الشريف  
الرضى الذى يقول مفتخراً بأسرته وعشيرته :

أنا من علمت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل  
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلج بمثل أوأخرى وأوائل

ولكن ظهر إلى جانب ذلك روح جديدة أهم ما تمتاز به أنها فردية يفخر فيها  
الشاعر بنفسه لا بقبيلته ، لأن الروابط القبلية ضعفت ، فأصبح كل فرد يشعر  
باستقلاله الذاتى فى ظل الدولة وحمايتها وصار فخر الشعراء بآدابهم ونباهة شأنهم  
أكثر من فخرهم بالشجاعة وحماية الجار وغيرها من المثل العليا عند أهل الجاهلية كما  
ترى فى قول أبى الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمنت كلماتى من به صمم  
أنا ملى جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراًها ويختصم

(١٠٣) وازن أيضا بين هذا البيت وقول طرفه .

أما الرجل الضرب الذى تعرفوه خشاش كراس الحية المتوقد

وكثرت فيها المبالغات الدالة على الغرور كما ترى في قول أبي العلاء :  
بأى لسانٍ ذامنى متجاهل عَلى وَخَفَقَ الرِّيحَ فى ثناء  
ومن هو حتى يُحملَ النطقُ عن فى إليه ويمشى بيننا السفراء

وأخيراً نحب أن نلفت الأنظار إلى أن تحول الفخر والمدح على النحو الذى ذكرناه ، هو الذى يمكن أن يسمى تطوراً ، حيث تغيرت فيه المثل العليا تغيراً كبيراً أما ما ظهر فى شعر الأمويين من تمدح بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ، بدلا من الدفاع عن القبيلة كما هو الشأن فى الشعر الجاهلى ، فلا يمثل تحولاً خطيراً فى الشعر ، حيث إن الموقف فى الحالين لا يعدو الإشارة إلى بلادبلاء القائد أو الرئيس فى الدفاع عن المجتمع الذى يعيش فيه والتقاليد التى تحكم ذلك المجتمع (١٠٥)

---

(١٠٥) نحن بذلك نحالف الدكتور شوقى ضيف - اقرأ له التطور والتجديد .

## جولات الشعراء في جوانب النفس

### البشرية

تعمدنا أن نختم مظاهر التجديد والتطور في أغراض الشعر العربي بالحديث عن النواحي النفسية لخطورتها واتصالها الوثيق بتطور الفكر العربي والحياة العربية . فالنفس البشرية لم تكن من الموضوعات التي أطال القدماء الخوض فيها أو التعرض لها كما يبدو في أشعارهم . أما في العصر العباسي عصر التطور والتجديد فإن النفس البشرية ونزعاتها المختلفة صارت تحظى بالكثير من ملاحظة الشاعر ، ملاحظة لاتلبث أن تترجم إلى أبيات ومقطوعات شعرية . ويأتي المتنبي وأبو العلاء وأبو العتاهية في مقدمة الشعراء العباسيين من هذه الناحية . وإن اختلفت دوافعهم إلى ذلك ، كل بحسب مزاجه وظروفه الخاصة .

فالأول كان ناقما على الناس لأنه يحب نفسه ، ولذا كان يصور نفسه دائما بصورة المحسود المغبون ، والناس من حوله حسدة ظالمون ، أقزام يقحمون أنفسهم في مواكب العاقلة . ومعظم فلسفته تدور حول هذه المعاني .

أما الثاني فكان عاتبا على الناس ؛ لأنه يحبهم ، عاتبا على الرعاة لأنهم يسيئون إلى الرعية ، وعلى الرعية لأنها تحسن إلى نفسها . وحاول إصلاح هؤلاء وأولئك ولكنه تعجل النتائج فيئس . ونادى بما ينادى به اليائسون ، نادى بالانتحار ، انتحار الإنسانية جمعاء عن طريق الامتناع من التزاوج والتوالد ، وأخذ يردد الأناشيد في فضل الموت على الحياة .

أما الثالث فلم يكن يعاني آلام انتفاخ الشخصية كالمتنبي ، بل على العكس كافي يعاني تلك الآلام التي يعانها المرء حينما يحس بتفاهته ، ولذا حقد على طائفة خاصة من المجتمع ، وهي التي كانت تفوقه حسبا ونسبا وسلطانا . ولم يكن الموت الذي أكثر من ذكره سبيلا إلى القضاء على العالم ووضع حد لما به من شرور ، كما هو رأى أبي العلاء ، بل سبيلا إلى القضاء على الامتيازات التي يتمتع بها السادة

والتسوية بينهم وبين أفراد الطبقات الدنيا من أمثاله<sup>(١٠٦)</sup> . وهذا هو السبب في أن قوله .

والناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن  
كان باعترافه أحب أقواله إليه ، لأنه يشمل على أبلغ وسائل التحطم وهو  
الطحن .

وقد اتخذنا من هؤلاء الثلاثة نماذج فقط ، وإلا فهناك كثيرون يجانب هؤلاء  
كانت لهم مشاكلهم . وكل ما نريد أن نلفت الأنظار إليه هو أن الحضارة الحديثة  
جرت في أذيالها مشاكل مختلفة ، منها تعقد الحياة الاجتماعية بانقسام المجتمع إلى  
طبقات متفاوتة في الحقوق والواجبات تفاوتاً يدعو إلى التنافس والتحاسد ،  
وقديماً كان الناس متساوين أو كالمساوين في ظل النظام البدوي الديمقراطي  
المتكشف .

وقد زاد من شعور الناس بذلك التفاوت ، الثقافة الحديثة التي عرفت الفرد  
بمقوقه وواجباته ، حين بدأ علماء الكلام يناقشون نظرية الخير والشر والصلاح  
والأصلح . وهل يجب على الله مراعاة العدل في معاملة عبده أولاً يجب ، وإذا  
كان المرء قد أصبح لا يطيق أن يقع عليه غبن حتى من خالقه الذي لأيسأل عما  
يفعل ، فكيف به لو كان من بشر مثله يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق .

وليس معنى هذا أن القدماء لم تكن لهم مشاكلهم ، أو أزماتهم النفسية يلى  
ولكن لم يكن لديهم الفراغ الكافي للإنصات إليها ، أو التفكير فيها كما فعل  
المحدثون بعدهم ، وإن شئت فاستمع إلى ما يؤيده هذه الدعوى من كلام هؤلاء  
وأولئك : يقول طرفة بن العبد :

لعمرك ما أمرى على بغمة نهارى ولاليلي على بسر مد<sup>(١٠٧)</sup>

أما أبو العتاهية فيقول :

(١٠٦) من ذلك قوله

واقترقنا في المقدرات وسوى الله في الموت بيننا فاستويانا

ديوانه ص ٢٥٦ .

(١٠٧) معلقته .

أقلب طرفي مرة بعد مرة لأعلم مافي النفس والقلب ينقلب<sup>(١٠٨)</sup>  
أو يقول:

يانفس أنى تُؤفكينا حتى متى لاترعوينا<sup>(١٠٩)</sup>  
حتى متى لاتقلع م ين وتسمعين وتبصرين  
أصبحت أطول من مضى أملا وأضعفهم يقينا  
يانفس إلا تصلحى فتشهى بالصالحينا  
وتفكرى فيما أقول ل لعل قلبك أن يلينا  
وهذا هو السبب فى أن الفكر كثيرا ما يمتزج بالوجدان عند المحدثين كما ترى فى  
قول المتنئى:

ياساقئى أخطر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما هم وتسهد  
أصخرة أنا مالى لاتحركنى هذه المدام ولاتلك الأناشيد

فإنه يناقش القضية مناقشة أهل المنطق أو علماء النفس ليعرف السر فى عجز  
الخطر عن التغلب على همومه ، وهل ذلك لنقص فيها ، أم لأن طبيعته قد حالت  
فصارت لاتتأثر بما يتأثر به سائر الناس؟ أما القدامى فيصورون مشاعرهم دون  
مناقشة أو تأمل طويل كما ترى فى قول طرفة .

وظلم ذوى القرئى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند<sup>(١١٠)</sup>

والذى نريد أن نصل إليه هو ما بدأنا به من أن النفس البشرية صارت ميدانا  
لدراسة الشعراء وملاحظتهم ، ملاحظة ظهرت فى نتاجهم الأدبى على نحو لم  
يعهده الأوائل ولم يفكروا فيه ، فبعد أن كانت الأزمة عند القدامى فى الماء  
والمرعى ، أو هكذا كانوا يعتقدون على الأقل ، صارت عند المحدثين فى النفوس  
والصدور ، كما ترى فى قول المتنئى:

(١٠٨) ديوان ص ٣٦ بيروت .

(١٠٩) ديوان بيروت ص ٢٦٤ .

(١١٠) معلقته .



وكأنّا لم يرض فينا بريب الد م دهر حتى أعانه من أعانا (١١١)  
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا  
ومراد النفوس أيسر من أن نتعادي فيه وأن نتفاني  
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلقى الهوانا  
أو قول بشار:

وماضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق  
ومن الموضوعات التي شغلت المحدثين من الشعراء مسائل القضاء والقدر  
وعبث الحظ بالناس ، فقد أطلوا من ذلك عجبهم وحيرتهم كما ترى في قول  
بشار:

طبعت على مافى غير محير هوأى ولو خيرت كنت المهذبا  
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصى علمى أن أنال المغيبا  
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقت إلا التعجبا  
ويقول أبو العتاهية قريبا من ذلك:

نبغى من الدنيا الغنى فتريدنا فقرأ ونطلب أن نصح فمرضا (١١٢)  
ويقول أيضاً:

أيا دنياى مالى لأراني أسومك منزلا لإنبابى (١١٣)  
ألا وأراك تبذل يازمانى لى الدنيا وتسرع باستلابى  
وقد اختلفت مواقفهم مما يكرهون من أمور الحياة والأحياء ، فحينما يلجئون  
إلى المغالطة فيقول قائلهم:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما يُرام به وما يتوقع (١١٤)  
ولن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلبَ المحال فتطمع  
وأحيانا يملون تلك المغالطة التي لاتقضى على المشكلة بل تعقدها ، وترسبها

(١١١) شرح العكبرى ج - ٤ - ص ٣٤٠ .

(١١٢) ديوانه ص ١٣٨ .

(١١٣) ديوانه ص ٢٤ .

(١١٤) ديوان المتنبي شرح العكبرى - ٢ - ص ٢٦٩ .

في أعماق النفس ، فيتمون في أحضان اليأس ، ويجدون في ظلاله الوريقة برداً  
وسلاماً على أكبادهم المقروحة فيقول بعضهم عاتبا على الدنيا ، شاكيا صروفها :  
قطعت منك حباثل الآمال وحططت عن ظهر المِطَى رحالي (١١٥)  
ويست أن أبقى لشيء نلت مما مافيك يادنيا وأن يبقى لي  
فوجدت برد اليأس بين جوانحي وأرحت من حل ومن ترحال  
ولئن يشت لربّ يرقّة خلّب برقت لذي طمع ولحمة آل  
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي وبنات وصّلكِ يعتلجن بيالي  
فالآن يادنيا عرفتك فاذهبي يادار كل تشئت وزوال

وقد كان من أثر هذه الملاحظة الدقيقة مع الحس المرهف أن كثرت في  
أشعارهم عبارات تدل على إداركهم التام لأسرار النفس البشرية ومن ذلك قول  
أبي الطيب الذي يعدّ بحق أستاذ الشعراء جميعاً في هذا الاتجاه .

واحتمال الأذى ورؤية جانبه غذاء تَصَوَى به الأجسام

فإن المتنبي يمثل هذا البيت عن إدراك فطري لرأي علماء النفس في  
الأنفعالات والعواطف المكبوتة (١١٦) ، وماتسبيه للمرء من متاعب نفسية  
واضطرابات عصبية وخلق حالة مزاجية تستمر مع المنفعل وقتا يطول ويقصر  
حسب استعدادة الشخصي .

وكان الشعراء قديماً لا يفتنون إلى مثل تلك الآثار حين يدعو العقلاء منهم إلى  
الاحتمال والمصانعة كما ترى في قول زهير:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يُضَرَّسَ بأنياب ويوطأ بمنسم (١١٧)

(١١٥) ديوان أبي العتاهية ص ١٩٤ .

(١١٦) راجع ما كتبه الأستاذ حامد عبد القادر في الانفعالات والعواطف بالجزء الثالث من كتابه « علم  
النفس » بالاشتراك مع الأستاذ الإبراهيمي وقرأ بصمة خاصة صفحات ١٧٠ ، ٢٣٨ .

(١١٧) ينبغي أن يلاحظ أن الاحتمال والمصانعة ليست من خلق العربي الذي يميل إلى الصراحة والمجازاة على  
النثر بمثله وزهير نفسه يقرر ذلك العرف الجاهلي بعد أبيات قلائل من البيت الأول حيث يقول : =

وإذا شئت موازنة أخرى بين العقلية الحديثة والقديمة فضع قول أبي الطيب:  
والظلم من شحم النفوس فإن تجدد ذا عفة فلعله لا يظلم  
بجانب قول زهير:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم  
فسترى أن زهيراً يمثل أحد شيوخ القبائل وحكامها حين يتحدثون عن قانون  
البادية ومنطق الغابة ، بينما يذكرنا المتنبي بمباحث علم النفس في نفسية الطفل  
وهل هي خيرة بطبعها ، أم أنا نحمل بين جوانحنا رواسب وراثية توجهنا إلى الخير  
أو الشر .

بل مالى لأعود إلى بيتين آخرين يكملان مع البيت السابق تصوير الثورة  
النفسية التي كانت تعصف برأس الشاعر في تلك الأثناء ويوضحان مدى تغلغل  
فكره في فهم الحياة والأحياء وأعنى قوله:

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم  
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ألا يدل البيت على اتساع بل تطور خطير في آفاق الفكر العربي ؛ فبينما كان  
القدامى يحمدون التعقل والتدبير ، فرحين بما يصل إليهم من رشاش يسير يربط  
البدن ويبلّ الصدى ، أخذ هو يشكو غرفة في ذلك الخضم الواسع ، وينشد  
النجاة منه ، ويحسد الواقفين على شواطئه حيث الأمن والدعة والغفلة . ألا يؤكد  
هذا البيت ما قلناه سابقاً من أن الثقافة الحديثة كانت شرا على أهلها حيث فتحت  
أعينهم على ماحولهم من مشاكل ومفارقات غفل عنها الجهال فاستراحوا  
وأراحوا ، على حين أطلوا هم التفكير فيها والأسى لها فأتبعوا أنفسهم فأتبعوا  
الناس معهم .

أما البيت الثاني فيمثل يقظة الشاعر لما يدور حوله ، وإحساسه بمخطر قوى

---

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم  
وليس معنى هذا أن زهيراً يناقص نفسه ولكنه في الأول مثالي موجه وفي الثاني واقعي مصور وشبيه بقول زهير  
الأول قول السموأل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

الشر المتكلمة في كل جهة من جهات الحياة ، وإصرارها على أن يكون لها الغلبة والسلطان ، رضيت الشرائع السماوية ، والوشائج الإنسانية أم سخطت ، مما يجعل أزهق الناس في الصراع مضطرا إلى أن يخوض ضدها حرباً مدمرة ، محافظة على شرفه ، واحتفاظا بحياته .

وقد لا يكون هذا الأذى الذى يتطير إلينا شره حاداً حاسماً حتى نحسمه بعمل إيجابى سريع مهما كلفنا ، بل منغصات صغيرة لاتكاد تنقطع ، كلما أغلقت دونها بالحلم والاحتمال بابا نفذت إليك من باب آخر بجيلة أو أخرى وذلك هو مايعنيه أبو العتاهية حين يقول:

أرقع من دنياى دنيا دنية ودارا كثيراً وهنأ وخروقها (١١٨)  
وإذا كان معظم ماأوردناه من شواهد يرجع تقريباً إلى نزعة واحدة هى سخطهم أو سوء ظنهم بالحياة والأحياء ، فإن هناك أبياتا أخرى تدل على أنهم حاولوا حل تلك الأزمة الحادة التى كانت تتناهم من وقت لآخر ، لاعن طريق اليأس أو المغالطة الصريحة كما قدمنا ، بل عن طريق مقاومة اليأس بالأمل والتشاؤم وتلمس الخير فى ثنايا الشر ، وخيوط الضوء الدقيقة فى طيات الظلام الخالك كما نرى فى قول أبى العتاهية:

كس نعمة لأيسْتغَلَّ بشكرها لله فى طىِّ المكاره كامنة (١١٩)  
وقد أحالوا اليأس المرير إلى زهد عذب مريح كما نرى فى قوله أيضاً:  
وجدت الروح جَدَّب العيش لما عرفت العيش مخَضّاً واحتلابا  
وكأنهم بذلك يرثون لمن لايزال متعلقا بالدنيا من أهلها ، وهل رأينا شاعرا قبل أبى العتاهية يرى فى الفقر زينة وبهاء فيقول:

ولقد عجبت من المثرِّ ماله نِسَى المثر زينة الإقلال  
وربما هدتهم الفطرة السليمة إلى بعض مانستعين به الآن فى ضوء علم النفس

(١١٨) ديوان بيروت ص ١٧٧ .

(١١٩) الموازنة ص ٤٠ .

على ضبط انفعالاتنا ، وتهذئة أعصابنا أمام مانكره من أمور الدنيا ، وذلك بتغير  
الجو العام حولنا<sup>(١٢٠)</sup> كما نرى في قول أبي العتاهية:  
لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال<sup>(١٢١)</sup>  
كما أدركوا أهمية التناسي أو النسيان في إمامة الآلام النفسية مستعينين على  
ذلك بالزمن فيقول قائلهم:  
وإذا مضى هم أمرئ فقد انقضى إن الهموم أشدهن الأحداث<sup>(١٢٢)</sup>  
وبعد فقد حاولنا فيما مضى أن نعنى بما كان من أشعارهم متفقاً مع ثورتهم  
على الحياة والأحياء فقط . وإلا فهناك قدر غير ضئيل من أشعارهم النفسية  
يجانب ماذكرنا ، يستطيع القارئ أن يعثر عليه بسهولة فن ذلك مثلاً في قول  
المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ————— الجرح ببيت إيلام  
وينبغي أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أننا لم نكتسب هذا فيما يسميه النقاد  
بفلسفة هذا الشاعر أو ذاك ويعنون به نظرتهم إلى الدين أو السياسة أو الزواج ونحو  
ذلك<sup>(١٢٣)</sup> وإنما أردنا أمراً واحداً فقط وهو إدراك شعر العصر العباسي لما لم يكن  
يدركه سلفهم من أسرار النفس البشرية ، وملاحظتهم الدقيقة لها .

والآن وقد انتهينا من الحديث عن أغراض الشعر نحب أن نشير إلى أننا جعلنا  
مأصباها من تغير مظهراً من مظاهر تطور الشعر العربي لأمرين:  
أولهما: كونها صدى لتغيرات وتطورات في الحياة الاجتماعية والسياسية كشعر  
أبي العتاهية الذي يعد من بعض نواحيه مظهراً من مظاهر تعقد الحياة الاجتماعية

---

(١٢٠) راجع كتاب الأستاذ حامد عبد القادر والإبراهيمي في « علم النفس » ج - ٣ - بحث  
ضبط « الانفعالات »

(١٢١) ديوان (بيروت) ص ٢٢٣ .

(١٢٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٢٣) من أمثلة ذلك ما كتبه الدكتور مهدي علام بعنوان « فلسفة المتنبي » في مجلة دار العلوم (يونية سنة

١٩٣٦) .

والنفسية ، وتناحر الطبقات وتحاسدها ، كالخمر والمجون والغزل بالمذكر التي انبعثت في الغالب عن موجة الزندقة التي غزت الدولة من الخارج وروح اليأس التي دبت في أنحائها من الداخل .

وهذا هو السبب الذي يجعلنا لانلقى بالا لما كان من مجون الوليد بن يزيد في العهد الأموي ، لأن تلك الحركة كانت محصورة في أضيق الحدود ، لم يتأثر بل لم يشعر بها المجتمع . وأهم من هذا كله أنها لم تكن مظهراً من مظاهر تطور الحياة الاجتماعية لدى طائفة كبيرة من الشعب ، على نحو ما حدث في العصر العباسي ، بل لدى شخص من الأشخاص أو شذمة من الناس .

ثانيهما : اتساع شقة الخلاف بين ماضي الشعر وحاضره . وإذا اتخذنا الغزل الحسي مثلاً نموذجاً لذلك رأينا التشابه القويّ إن لم يكن التام بين غزل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، ثم الاختلاف التام بينهما جميعاً وبين غزل بشار بن برد إن صح أن يسمى ذلك غزلاً ، وهذا قول لا يُلقى إلقاء بل له ما يؤيده من التاريخ ، ألا ترى أن ابن عباس على علمه وورعه ربما استمع إلى شعر ابن أبي ربيعة في بيت الله ، على حين كان يخشى المحافظون من أهل بغداد أن يؤثر شعر بشار على نساءهم تأثيراً سيئاً . وشنّ عليه رجال الدين حرباً شعواء ، وتهدما بذلك لغضب المهدي عليه غضباً انتهى بقتله .

## الفصل الثالث

عناصر الشعر العربي ومدى ما أصابها من تطور أو جمود : -

لعل القارئ كان يتوقع أن نقدّم هذا البحث على مبحث الأغراض . ولكننا خشينا أن نكون صورة من ذلك الضابط الذي سأله رئيسه عن السبب في إحجامه عن مهاجمة أحد الحصون ، فأجابه بأن لديه مائة سبب أحدها أن الذخيرة قد نفذت ، مما دعا القائد إلى إغلاق سمعه دون ما جاء بعد ذلك من أسباب . وإلا فإننا لم نغفل عن أن هذا الفصل هو أهم وأخطر خطوات الكتاب . وسيكون واجبنا فيه استعراض العناصر التي أشرنا إليها في صدر الكتاب ومعرفة مدى ما أصابها من تغير أو استقرار وأسباب ذلك . ولنبدأ بالطبع الذي بدأنا به هناك .

### العصر الأول

الطبع :

قد عرفنا فيما سبق أن العرب كانوا يتقبلون كل ما تجود به قرائحهم . دون طويل مراجعة أو تنقيح ، وظلوا كذلك حتى ظهرت مدرسة زهير ، فجوّدت لغة الشعر وصقلته وتنحّلت معانيه ، ولكن ذلك لم يحدّ بالشعر كثيراً عن اتجاهه الأول . ولذا ظل خلال العهد الأموي يسير على نفس النهج القديم . وعرفنا أن ميل العرب إلى الجريان مع الطبع في أشعارهم راجع إلى بساطة حياتهم البدوية وبعدها عن التكلف والتعقيد .

والآن وقد جاء العصر العباسي ، وتغير وجه الحياة . وتطور العربي من بدوى يفترش الرمال الصفراء النقية وتحيط به إبله وضأنه إلى رجل متحضر يتمتع بكل ما وصلت إليه مدينة العصر العباسي - المشرق رغم ظلام العصور الوسطى - من ألوان الترف والنعيم المادى متمثلاً في الرياش والزخرف ، والأدبي متمثلاً في ألوان الثقافة التي عرفها عصر الرشيد والمأمون . الآن وقد حدث ما حدث ، ماذا كان موقف الشعر والشعراء من

كل ذلك ؟ لم تبدل سنة الله ولم تتحول ، بل حدث ما يحدث عادة في جميع شعوب الأرض حين تتغير ظروفها ، وتتسع أمامها آفاق الحياة ، حيث يستجيب قوم لتلك الظروف الجديدة استجابة تامة ، بل ويسرفون فيها إن صح ذلك التعبير ، بينما يقف قوم آخرون موقفَ التردد والإشفاق من ذلك الجديد الذى لم يعرفوه . والتشبث أو الحنين إلى ذلك القديم الذى عرفوه واطمأنوا إليه . وكثيراً ما تتدخل عواملٌ مختلفة شخصية وغير شخصية لتوجيه كل فريق لما خلق له . وليس معنى هذا أن هناك فريقاً يقف دائماً وإلى الأبد في وجه تيارات التطور وقوف الجبال الرواسى . بل كل ما هنالك أن الناس دائماً أمام موجات التجديد أشبه بالمواد المختلفة من أخشاب وأحجار ومعادن حين يجرفها السيل ، فيسرع بعضها إلى امتطاء ظهره ، والسير معه حيثما اتجه ، بينما يسير بعض متثاقلاً كأنه مقيد بالسلال أو مرهق بالأغلال .

وعلى مقتضى تلك السنة ظلت طائفة من الشعراء تحتذى الأوائل من حيث الجرى مع الطبع ، ووضع الهدف النهائى فوق الأفكار الجزئية الجانبية وعُنت بعذوبة العبارة وموسيقيتها أكثر من عنايتها بذلك الزخرف الإضافى والجمال المكتسب الذى يتمثل فى المحسنات البديعية .

وكان على رأس هذه الطائفة أبو العتاهية والسيد الحميرى والبحترى ومالت طائفة أخرى إلى العناية بالصورة اللفظية وإثقالها بالمحسنات البديعية من جهة ، وبالمعانى عمقاً ودقة وإحاطة من جهة أخرى ، وعلى رأس هذه الطائفة مسلم بن الوليد وأبو تمام . ويمكن أن نسمى الطائفة الأولى بأهل الطبع والثانية بأنصار الصنعة . وإنا لذاكرون لك أربعة نماذج أولها جاهلى ، وثانيها أموى ، والثالث عباسى لإمام أهل الطبع ، والرابع عباسى أيضاً ولكن لحامل لواء أهل الصنعة ؛ لترى معناه مدى ما بين بعضها وبعض من توافق أو تخالف . ولتكن جميعها فى المدح : قال الأعشى يمدح قيس بن معدى كرب :



عَوَّدت كَنَدَةَ عَادَةَ فَاصْبِرْ لَهَا  
وَكُنْ لَهَا جَمَلًا ذَلُولًا ظَهْرَهُ  
وَإِذَا تَحَلَّ مِنَ الْأُمُورِ عَظِيمَةً  
فَلَعِمْرَ مَنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عِلَامَةً  
مَا كُنْتُ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانَ مَغْمَرًا  
وَسَعَى لِكِنْدَةَ غَيْرِ سَعَى مَوَاكِلِ  
وَأَهَانَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا  
مَا إِنْ تَغَيَّبُ لَهَا كَمَا غَابَ أَمْرُ  
وَتَرَى لَهُ ضِرًّا عَلَى أَعْدَائِهِ  
أَثْرًا مِنَ الْخَيْرِ الْمَزِينِ أَهْلَهُ

اغفر لجاهلها ورؤ سجالها<sup>(١)</sup>  
احمل وكنت معاوداً أحبالها  
نفسى فداؤك فاكفهم أثقالها  
قدراً فيين نصفها وهلالها  
إذ شب حر وقودها أجزالها  
قيس فضرر عدوها وبنى لها  
وأسا وأصلح بينها وسعى لها  
هانت عشيرته عليه فغالها  
وترى لنعمته على من نالها  
كالغيث صاب بلدة فأسالها

وقال جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَعْتَ دِينَا  
لَكَ الْمَتْخِيْرَانَ أَبَا وَخَالَا  
فِيَابِنِ الْمَطْمَعِينَ إِذَا شَتَوْنَا  
وَأَحْرَزْتَ الْمَكَارِمَ كُلَّ يَوْمِ  
نَمَابِكَ خَالِدٌ وَأَبُو هِشَامِ  
وَتَنْزَلُ مِنْ أُمِيَّةٍ حَيْثُ تَلَقَى  
وَأَعْدَاءَ زَوِيَّتِهِمْ بِحَرْبِ  
تَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ حَقًّا  
وَلَيْتُمْ أَمْرَنَا وَلَكُمْ عَلَيْنَا  
إِذَا بَعْضُ السَّنِينَ تَعَرَّقَتْنَا

وحلما فاضلا لذوى الحلوم<sup>(٢)</sup>  
فاكسرهم بالحوولة والعموم  
ويا بن الذائدين عن الحریم  
بغرة سابق وشظاً سليم  
مع الأعياص في الحسب الجسم  
شؤون الرأس مجتمع الصميم  
تكف مسالح الزحف المقيم  
كفعل الوالد الرؤوف الرحيم  
فضول في الحديث وفي القديم  
كفى الأيام فقد أبي اليتيم

وقال البحتري يمدح الفتح بن خاقان :

(١) ديوانه ص ٢٩ وهى مشروحة فيه شرحا جيدا .  
(٢) ديوانه ص ٥٠٧ .

تذود الدنيا عنه نفس أبية  
 مييد مقيل السر لا يدرك الذى  
 ولا يعلم الأعداء من فرط عزمه  
 خلالتق لاتنك توقف حامدا  
 ولن ينقل الأعداء مجدك بعدما  
 أكفرك النعماء عندي وقد نمت  
 وأنت الذى أعزنتنى بعد ذلتى  
 وأغيتنى عن معشر كنت برهة  
 فليست أبالى جاد بالعرف باذل  
 وأفصرت عن حمد الرجال وذمهم

وقال أبو تمام يمدح عياش بن لميعة :

لله أفعال عياش وشيمته  
 ما شاهد اللبس إلا كان متضحا  
 فاضت سحائب من إنعامه فطمت  
 يحرس بالبذل عرضا ما يزال من الـ م  
 فرع علا فى سماء العز متخذنا  
 ليث ترى كل يوم تحت كلكله  
 أهيسَ أليسَ لَجَاءُ إلى هم  
 تجرى السعود له فى كل نائبة  
 نافس أهل العلا فاحتاز علقهم  
 له لواء ندى ما هزّ عامله

تزيده كرما إن ساس أو سيبا (٢)  
 ولا أرى الحق إلا كان ملموسا  
 نعماه باليؤس حتى اجتثت اليوسا  
 آفات بالنفحات الغر محروسا  
 أصلا ثوى فى قرار المجد مغروسا  
 ليثامن الأنس جهّم الوجه مفروسا  
 تغرق الأسد فى آذيها الليسا  
 نابت وإن كان يوم اليأس منحوسا  
 منهم فأصبح معطى الحق منفوسا  
 إلا أراك لواء البخل منكوسا

وأظن أن النماذج واضحة فيما قدمنا ، وأن الشبه بين النماذج الثلاثة الأولى واضح من حيث جريانها مع الطبع وعنايتها بالغرض العام وبعدها عن المحسنات

(١) ديوانه ح - ٢ - ص ٧٧ .

(٢) ديوانه ص ١٢٨ .

بخلاف شعر أبي تمام الذي يشبه المعادلات الجبرية فترى فيه الفرعَ بأزاء الأصل وسماء العز في مقابل قرار المجد وترى فيه إلى جانب ذلك استعاراتٍ مركبةً أو مزدوجة أو ماشئت لها من الأسماء . فإنه لم يكتف بجعل صاحبه أسداً حتى استعار له كلكلا ، وهكذا يخلق لنا في خياله العجيب حيوانا لم يخلقه الله تعالى له أنياب الأسد وأظفاره وكلكل الجمل وجرانه .

ولا بأس على ممدوحه في أن يكون منحوساً<sup>(١)</sup> ، مادام ذلك يحقق نوعاً من البديع الذي أولع به .

ومن عجب أن معظم النقاد ومؤرخي الأدب قد اهتموا بناحية الزخرف اللفظي وما يحمله ذلك الزخرف من جمال أو قبح . ونسوا أن هذا الزخرف عند أهل الصنعة توأم لمجهود آخر في ميدان المعاني لا يقل خطورة عن الجانب اللفظي . والتنبيه إلى تلك الصلة بين التوأمن تساعدنا على معرفة الدوافع التي دفعت زعماء مذهب الصنعة إلى اعتناقه .

لقد كان إماما هذا المذهب مسلم وأبو تمام<sup>(٢)</sup> بظلين من أبطال المديح ، وقفا حياتهما على هذه المهنة مهنة التكسب بالشعر ، وجعلها مرتزقها وشغلها الشاغل ، فأحبا أن يقولوا في الممدوحين قولاً لم يسمع من قبل . والسبيل إلى ذلك أن يحشدا في العبارة كل ما يتسع له جلدها من معان على حد تعبير أبي تمام ، ثم يخلعا عليها بعد ذلك من الحلى اللفظية بقدر ما تتسع ثروة الشاعر اللغوية ، وما تسعفه به ملكته الشعرية .

وهكذا نرى أن العناية بالألفاظ والمعاني مظهران مختلفان لفكرة واحدة هي الوصول بالشعر إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من مراتب الإبداع والكمال . ولكن الطريق أمامها لم يكن مفروشا بالورود والرياحين كما يجب بعض الناس أن يفعل بهم أولهم ، بل تعرض الأخير منها لأنواع الحن والمتاعب .

(١) نشير بذلك إلى قوله :

تجرى السعود له في كل نائبة نائث وإن كان يوم البأس منحوسا

وشتان ما بين القولين .

(٢) اضطررنا إلى إطالة الحديث عن أبي تمام لأن في فهمه فهما للمذهب الصنعة كما ذكرنا أعلى هذه السطور

أهمها ثورة أنصار القديم عليه وغنهم به . فقد كان للقديم أنصاره ومعظمهم من الرواة وكان أشدهم عنفاً به ابن الأعرابي . ولم لا ينصرون القديم ويتعصبون له ، وهو بضاعتهم ورأس ما لهم . ولورضوا عن الجديد ، أو سكتوا عن مقاومته لطغي على قديمهم ، وذهب بمجدهم . على أنهم لو سألوا الله أن يشرب قلوبهم حباً الإنصاف فاستجاب لهم لوجدوا أنفسهم أمام خطر جديد ، هو صعوبة ما أتى به أهل الصنعة من معانٍ بعيدة عن أذهانهم وتجاربهم . ومن ثمَّ أحبوا أن يستروا موقفهم فتعلقوا ببعض أخطاء أبي تمام وراحوا يتريدون فيها ، ويتكلمون منه ومنها ، حتى يشغلوا الناس عن النقطة الأساسية في قضية القديم والحديث ، وقد أفلحوا إلى حد كبير فبقيت آراء الناس حول هذا الموضوع مضطربة حتى هذه الساعة . ومع أن أبا تمام لم يعدم الأنصار من أمثال أبي بكر الصولي فإن ذلك لم يجده نفعاً ، لأنه كان في دفاعه شبيهاً بخصومه في هجومهم . من حيث أن هؤلاء وأولئك ينظرون إلى المسألة من زاوية واحدة تناسب رأيهم الشخصي ويغضون أعينهم عن بقية الزوايا ، فالأنصار يركزون اهتمامهم على محاسنه محاولين فتح أعين الناس عليها ، والخصوم يعكسون الوضع فيهتفون بما يأخذونه عليه من مآخذ ويصمون الآذان عما له من محاسن .

ولعلَّ أخطر محاولة للدراسة مذهب الصنعة حتى الآن هي تلك التي قام بها الدكتور شوقي ضيف وقد انتصر فيها للمذهب الصنعة ولإمامه (٣) ومع أنه قد ألقى عليه ضوءاً قوياً إلا أنه نظر إلى المسألة بدوقه الخاص (٤) وكان الأولى أن ينظر إليها في ضوء الذوق العام لجمهور القراء .

ونعود إلى ما بدأنا به من مخالفة أبي تمام وصحبه لسنة القدامى في الجريان مع الطبع والبعد عن التكلف فنسأل أنفسنا متى يكون الشعر مطبوعاً ومتى يكون متكلفاً؟ وجواب هذا السؤال أن الشعر يكون مطبوعاً إذا تمت له أمور ثلاثة .

(٣) راجع ما كتب عن أبي تمام في كتاب « الفن ومذاهبه » .

(٤) الدكتور شوقي كآبي تمام نائر على التقاليد ، يضع الصنعة فوق الطبع ، ولا يضيره خفاء المعنى وسنعرض

لرأيه فيما بعد .

أولها : صدوره عن شاعر مطبوع ، أى مستعد بمقتضى فطرته لقول الشعر ، ولا يكون كذلك حتى يتم له رقة العواطف ، ودقة الإحساس والقدرة على تتبع مظاهر الجمال فى الكون وتدوقه ، إلى غير ذلك من الأمور التى يكون بها الشاعر شاعراً والأديب أدبياً<sup>(٥)</sup> .

ثانيهما : جريان الشاعر مع طبعه ، أى أنه لا يكفى أن يكون الشاعر مفطوراً على قول الشعر ، حتى يصحب ذلك رغبة أكيدة فى الاستجابة لذلك الطبع والجريان معه حيثما اتجه ، دون تعويق لتياره بالبحث عن معنى جديد أو لفظ بديع . وهذا غالباً هو ما يشير إليه النقاد حينما يتحدثون عن الطبع والتكلف .

ثالثها : ألا يحمل الشاعر نفسه على قول الشعر حملاً ، بل ينبغى أن يكون راغباً فيه بدافع من نفسه . ولا يكون كذلك إلا إذا كان تحت تأثير انفعال مناسب لموضوع الشعر . فإذا اتجه إلى الهجاء فلا بد أن يكون إذ ذاك مغيظاً محققاً ، وإن حاول الرثاء وجب أن يكون محزوناً ولعل هذا هو السبب فى قول الفرزدق : يأتى على وقت وخلع ضرس أهون عندى من قول بيت من الشعر<sup>(٦)</sup> . وينصح ابن قتيبة بالذهاب إلى الرياض ، والتقلب فى أعطاف الطبيعة المشرقة لمن كان بصدد قرص شيء من الشعر<sup>(٧)</sup> ولعل ما أشرنا إليه من ضرورة كون الشاعر تحت تأثير انفعال مناسب بين لنا السر فى قوة تلك القصيدة<sup>(٨)</sup> المشهورة التى قالها جرير فى هجاء الراعى وقومه . والتى يقال أنها أجلتهم عن ديارهم فراراً من العار الذى صبه شيخ الشعراء عليهم . فقد قالها وهو يهذى كالمحموم ويهدر كالبعير على إثر مشادة بينه وبين الراعى<sup>(٩)</sup> .

(٥) لأبى عامر بن شهيد حديث حول هذا الموضوع فى الرسالة التى كتب بها إلى أبى بكر المعروف بأشكياط (الذخيرة لابن بسام - القسم الأول - المجلد الأول) إخراج كلية الآداب ص ١٩٥ وما بعدها .

(٦) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(٧) نفسه .

(٨) نعى تلك التى يقول فيها :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا .

وقد بلغ من إعجاب بعض النقاد بهذا البيت وقائله أن قالوا : « إنه أهجى بيت قالته العرب » . طبقات

الشعراء ص ١٣١ .

(٩) طبقات الشعراء ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وشعراء العرب ونقادهم لم يكونوا يجهلون أثر الانفعالات القوية في إجادة الشعر ، فقد قال عبد الملك لأرطاة بن سهية : « هل تقول اليوم شعرا ؟ » قال : كيف أقول وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه » (١٠) .

أما علم النفس الحديث فرأيه في هذه المسألة واضح ، فإنه نجبرنا أن الانفعالات المتنوعة من غضب وخوف وفرح وغيرها تحدث تغيرات وإفرازات مختلفة في الكبد وغيره من الغدد (١١) يكون من نتائجها إمداد الجسم بنشاط غير عادي يمكنه من الإتيان بأمور ربما تعذر عليه الإتيان بها في الأحوال العادية ، والنفس هادئة ، والبال مستقر ، وكما يظهر أثر ذلك النشاط في الناحية الجسمية ، فيستطيع المرء رفع الأثقال الضخمة ، وقطع المسافات الطويلة ، فإنه يظهر في الناحية العقلية والعاطفية فيستطيع الإنسان التحليق في أجواء من الخيال ما كان يرقى إليها ، والنفاد بفكره في أسرار ما كان ليتهدى إليها في أحواله العادية . ولا شك في أن أبا تمام قد استوفى الأمرين الأول والأخير من تلك الأمور التي اشتراطها للشعر المطبوع وكان ينفعه الثاني منها . فاشتغاله بالمحسنات البديعية وتصيده لغرائب المعاني كان من غير شك يقطع تيار الطبع الجارف ويميل بالشاعر إلى الغموض والتكلف . ونتائج ذلك خطيرة جداً وضارة بالشاعر .

اولا : لأنها تهاجم الذوق العام عند فريق كبير من الناس . ونعنى به ذلك النوع الذى يطره المظهر الطبيعي رغم تواضعه أكثر مما تغريه الدهون والمساحيق .

ثانيا : إن استغلاق بعض أبيات أبي تمام على عقول القراء ، وما أكثرها ، تحول بين استمتاع القارئ بالقصيدة كوحدة متكاملة ، لأنها تستشغله عن جلالها بمحاولة فهمها وتجعل عمله فيها عقليا أكثر منه وجدانيا .

ونحن لاننشد في الشعر حكمة ولا ثقافة ، ولا تجرى فيه وراء الأفكار المجردة ، ولكننا ننشد أولا وأخيراً المتعة الروحية التي لا تتم إلا حين يغمرنا الشاعر بسيل من

(١٠) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(١١) باب الانفعالات من كتاب « في علم النفس » للأستاذ حامد عبد القادر ص ١٥٨ .

الإحساسات القوية والانفعالات الجياشية حول عواطف وموضوعات مشتركة بيننا وبينه . يقدمها إلينا في أعذب لفظ وأيسر عبارة ولعل هذا هو السبب في قول القدامى من النقاد « أبو تمام والتمني حكيمان والشاعر البحترى (١٢) » .

ومع هذا فذلك القدر المتواضع من الحكمة والعلم الذي يمكن أن نصيبه من قراءة أبي تمام لا يتيسر إلا لطائفة قليلة من المثقفين ، بينما يحرم معظمهم الاتصال بالشاعر اتصالاً مباشراً ، ويحرم هو أيضاً منهم . وما ظنك برجل يستعصى فهمه أحياناً حتى على أقرب الناس إليه وأعرفهم بطريقته . ولن نذكر لك شيئاً مما هتف به النقاد أو أكثروا فيه ولكن إليك أبياتاً ثلاثة لم يشر إليها أحد من قبل قالها في أبي سعيد الثغرى بعد أن فرغ من ذكر خدمته ومدائحها فيه :

هذا إلى قدم الذمام بك الذي لو أنه ولد لكان وصيفاً (١٣)  
وَحشاً تحرقه النصيحة والهوى لو أنه زمن لكان مصيفاً  
ومقيل صدر فيك باق روعه لو أنه ثغر لكان مخوفاً

وتعجب حين تعلم أن الخطيب التبريزي على بصره بالشعر العربي بعامة وشعر أبي تمام بخاصة ترك البيت الأخير دون شرح ، وليس استهانة منه بشأنه فإنه أشدها غموضاً ولكن لأسباب يعرفها هو . وسنحاول أن ننثرها جميعاً لتدرك مدى الغموض والعتى الذي يجزه الشاعر على القارئ حين يسلك به شعاباً ملتوية من الفكر يحار فيها الدليل ويمكن أن تقرأ هكذا :

أضف إلى ما تقدم من مدائحي فيك قديم حرمتي وسابق خدمتي وأكيد ولائي  
الذي لو صور بصورة فالبشر ، أو اتخذ شخصية ولد لكان من الطاعة لك والفناء  
فيك بحيث يحسبه الناس وصيفاً لا ولداً .

وبين جوانحي حشاً أنضجته عواطفى الحارة يلهيبها حتى إنه لو صح أن يكون زمناً  
تختلف عليه الفصول الأربعة ، لكان أشدها حراً وأعظمها هجيراً وهو الصيف .

(١٢) نحن نتفق معهم فيما يختص بالأول ولانطلق الحكم في الثاني لإطلاقهم كما سيتضح فيما بعد .

(١٣) ديوانه ص ٢٠٨ .

ولكن وسط ذلك الحر اللافت والجحيم المستعركهف متواضع باطنه فيه الرحمة  
وظاهره معرض للهجير . وفي ظلال ذلك الكهف الوريقة يكمن حذب لك وإشفاق  
عليك واحتياط لسلامتك ، وما هذا الكهف إلا صدرى ، الذى لو اتخذ صورة  
الثغر واتخذت تلك المعانى المختلفة صورة ما يعده الناس فى الثغور لحماية أرضهم من  
عدد وذخائر لكان ذلك الثغر مخوفا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه .

إذا كان هذا ما يقصده الشاعر فما أغربه ، وإلا يكن ، فهو أشد غرابة . ومع  
ذلك يقال لنا إن فى فهم مثل هذا الشعر متعة . حقيقة فيه متعة ولكنها منغصة . إنها  
أشبه بما يناله المرء من أننى لعوب غضوب ، تختلط فيه اللذة بالألم والدموع  
بالبسات .

وهكذا نرى أن أبا تمام كان يسرف فى الغموض حقا ، وكان جديراً بثورة  
القدامى عليه . ولكنه كان إلى جانب ذلك محسنا جداً حين يسلم بعض شعره من  
تلك الغرائب والعجائب التى جرّها عليه مذهبه الجديد . ومن هنا نعلم أن موقف  
قدامى النقاد منه كان يشبه تماما قول الذى قال : « رضيت فقلت أحسن ما  
علمت ، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ووالله لقد صدقت  
فى الآخرة » وكان أهم ما أخذه القدامى على أبى تمام قبح الاستعارة كما فى قوله :  
يادهر قوم من أخذعيك فقد أضججت هذا الخلق من خرفك (١٤)

وقبح الجناس كما فى قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ماسلمت سيلاّم سَلْمى ومها أورك السَلْم (١٥)  
وسوء النظم كما فى قوله :

يوم أفاض جوى أغاض تعزينا نخاض الهوى بحرى حججاه المزبد (١٦)  
واللحن كما فى قوله :

(١٤) موازنة ص ١١٦ .

(١٥) موازنة ص ١٢٢ .

(١٦) موازنة ص ١٢٦ .



ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الغار<sup>(١٧)</sup>  
والخروج على تقاليد القدامى في الوصف كما في قوله :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ماما ريت في أنه برد<sup>(١٨)</sup>

وأخذوا عليه النقل عن القدامى حتى قال بعضهم إنه لم يخترع سوى ثلاثة  
معان<sup>(١٩)</sup> . أما إحسانه فكثير كثيرة إساءته . وقد رأيت نموذجاً له في شعر الطبيعة  
السابق ونزيد هنا أبياتا أخرى قلائل منها قوله في أبي سعيد الثغرى :

قطب الخشونة بالليان معاقبا فغدا جليلا في القلوب لطيفا  
هزّنه معضلة الأمور وهزّها وأخيف في ذات الإله وخيفا  
يقظان أحصدت التجارب عقده شزرا وثُقّف حزمه تثقيفا

وقوله فيه أيضا :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أجأ إذن ثقلت وكان خفيفا  
وحلاوة الشيم التي لو مازجت خلق الزمان القدم صار ظريفا

أو قوله في الأفشين على اختلاف الهدف في الشعريين :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى  
نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفت شق إزار

أو قوله يمدح أحمد بن أبي دؤاد :

وما سافرتُ في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى  
مقيم الظن عندك والأمانى وإن قلقت ركابي في البلاد

(١٧) موازنة ١٢ س .

(١٨) موازنة ٦٣ .

(١٩) موازنة ٦٠ .

## استفحال الثورة وتشعبها

استفحلت الثورة التي قام بها مسلم وأبو تمام وتشعبت وزهبت بتلك السمات العامة التي تركها الطبع في الشعر القديم وأحلت أخرى مكانها ، وكان أهم ما ظهر من ذلك :-

أولا :- الغوص على الطريف من المعاني والجديد من الأخيلة ، فقد كان من آثار التغيير الشامل الذي طرأ على العقلية وعلى الذوق والخيال وعلى الحياة العربية بصورة عامة ، أن نبتت عند القوم آراء ومذاهب وأفكار لم تكن تخطر للقدماء بيال . ثم هم بعد ذلك لا يكتفون بهذا التفوق أو النمو الطبيعي ، بل يجهدون أنفسهم في تصيد الجديد والطريف من المعاني كما يجعلوا من شعرهم مسرحا أو مرآة لعرض معانٍ وأخيلة لا عهد للسامعين بمثلها . وغايتهم من ذلك إظهار ما لهم على الأوائل من امتياز وإليك عدة نماذج توضح ما ذكرنا ، يقول أبو العلاء المعري في الأول منها :

حياة عناء وموت عنا	فليت بعيد حمام دنا
وموقد نيرانه في الدُّجا	يروم سناء برفع السنى
يحاول عاش ستر القمي	ص ومسلء الخميص وبرء الضنى
ومن ضمه جدث لم يُبَل	على ما أفاد ولا ما اقتنى
بصير ترابا سواء عليه	مسّ الحرير وطعن القنا

وفيها يقول :

ينافى ابن آدم حال الغصو	ن فهاتيك أجنث وهذا جنى
إذا هو لم يخن دهر عليه	قال الفرى وجاء الخنا
وسيان من أمه حرة	حصان ومن أمه فرتنى

ويقول أبو الحسن الأنباري في الوزير أبي الطاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة :

علو في الحياة وفي الممات لَحَقُّ أنت إحدى المعجزات (٢٠)

٢٠) ابن خلكان (وفيات الأعيان) ج - ٢ - ص ٨٣ .

كأن الناس حولك حين قاموا      وفود نذاك أيام الصَّلَات  
 كأنك قائم فيهم خطيباً      وكلهم قيام للصَّلَاة  
 مددت يديك نحوهم احتفاءً      كمدهما إليهم بالهبات  
 ولما ضاق بطن الأرض عن أن      يضم عُلاك من بعد الوفاة  
 أهاروا الجو قبرك واستعاضوا      عن الأكفان ثوبَ السافيات

أرأيت هذا السيل الجارف من الأفكار الجديدة ، بل العواطف الحارة التي تأخذ بالعقل والقلب معا ، فقد استطاع الشاعر ببراعته وإخلاصه<sup>(٢١)</sup> أن يحيل المهانة كرامة والهزيمة نصراً. إنها مغالطة من غير شك ، فالبون شاسع بين الحقيقة المرة وبين الأخرجة المستعارة التي خلعها الشاعر على صاحبه فليس هناك ارتباط بين مصلوب في جذع وخطيب على منبر إلا في خيال قوى جامع يذكّيه قلب محب ناثراً. ولكننا نتقبل تلك المغالطة عن رضا ، بل نجري وراءها ونتشبث بها تشبثنا بالأحلام السعيدة لأننا نريد أن نعيش في هذا العالم الخيالي المصطنع بعيداً عن الواقع المرير. نريد أن ننسى أن الإنسانية أهينت في شخص ذلك المصلوب ، وأن نعتقد أننا حين يدفعنا الحرص على الحق إلى مثل هذه المواقف لن نقابل بشماتة الحاسدين ، بل بإكبار المعجبين. فإذا رجعنا إلى أبي العلاء وجدناه لا يعتمد على الخيال ، بل يعتمد على الحقائق ، وكل ما هنالك أنها حقائق دقيقة ، قلما يقف الشخص العادي عندها أو يلاحظها ، أما الفلاسفة والمفكرين فطوروا يسرفون في التفكير والتقدير كما فعل أبو العلاء هنا ، وتارة ينتقلون إلى الطرف الآخر طرفة واحدة ، فيستهينون بالأخطار ، بل يرتعون في أحضانها فرحين ، كما فعل الشاعر نفسه حين قال :

وهوئبت الخطوب عليّ حتى كأنني صرت أمنحها الوداداً<sup>(٢٢)</sup>

والشاعر لا يناقض نفسه. ولكنه يسلك نفس الطريق الذي يسلكه كل من أسرف في الاحتياط لنفسه ، ثم لم يظفر من كل ذلك بطائل. وفي هذا المعنى يقول أبو الطيب .

(٢١) يظهر من أبيات القصيدة أن الشاعر كان متأثراً حقاً بالمحادث.

(٢٢) ديوانه ٣ ص ١٠.

وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى (٢٣)  
وبعد فهل يدرى القارئ كم قرنا طواها أبو العلاء حين قال :

وموقد نيرانه فى الدجا يروم سنا برفع السنى  
ناعيا على الناس اشتغالهم بأنفسهم حتى فى تلك اللحظات التى يبدو الواحد  
منهم فيها وكأنه مشغول بمن سواه ؛ قترهم يحسنون إلى الضعفاء ، ولكن لا ليكشفوا  
ما بهم من ضر ، بل ليقال عنهم إنهم أجواد . إنه بذلك يذكرنا بطائفة من الكتاب  
المحدثين الذى ثاروا على المثل العليا القديمة من كرم ووطنية وحب بل وتدبّين ، قائلين  
إن الكرم نوع من الدعاية والوطنية تجر إلى الحروب . والحب إلى الزواج ومشاكله  
المختلفة . والدين كثيرا ما ينتهى بالتعصب البغيض . وشييه بقول أبى العلاء مع  
اختلاف الهدف قول أبى الطيب :

أرى كلنا يبغي الحياة بسعيه حريصا عليها مستهما بها صبا (٢٤)  
فحبّ الجبان النفسَ أوردته التقي وحبّ الشجاع النفسَ أوردته الحريا  
ويختلف الرزقان - والفعل واحد إلى أن يُرى إحسان هذا لذا ذنبا  
وإذا كان أبو الطيب قد ذهب بمعظم ما فى الأدب العربى من أشعار تفسر  
خلجات النفس ، وسلوك الناس ، فإن أبا تمام قد برز فى تصيد الغريب من الأخيطة  
والطريف من المعانى (٢٥) .

وإليك طرفا من قصيدته الرائية التى يمدح فيها المعتمم ويذكر احتراق الأفسنين .  
كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار  
كُسيبتُ سبائبَ لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار  
موتورة طلب الإله بثأرها وكفى برب النار مدرك ثار  
وفيهما يقول :

ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

(٢٣) لقد سبق الكتاب الأوربيون إلى هذا اللون من التفكير .

(٢٤) ديوانه ١ - ٦٥ .

(٢٥) يشاركه فى ذلك ابن الرومى .

نارا يساور جسمه من حرها هب كما عصفت شيقٌ إزار  
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساير  
صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار  
وكذلك أهل النار في الدنيا هم يوم القيامة جلّ أهل النار

ثم يعرج على بعض المصلوبين معه فيقول :

ولقد شفى الأحشاء من بُرحائها أن صار بابك جار مازيار  
وكأنما ابتدرا لكيا يطويا عن باطس خبرا من الأخبار  
سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السّموم مدارعا من نار<sup>(٢٦)</sup>  
بكروا، وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مريط النجار<sup>(٢٧)</sup>  
لا يبرحون من رأيهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار  
كادوا النبوة والهدى فتقطعت أعناقهم في ذلك المضمار  
فالقارئ هذه الأبيات التي اخترناها يجد في كل منها معنى جديداً ورائعا في  
الوقت نفسه ، فتراه يبرز النعم وقد أصابت غير موطنها ، تارة في صورة الغريبة أو  
الأسيرة . وطورا في صورة الحسناء وهي تتعثر في ثياب مهلهلة بالية .

ثم يشبه جسده وقد شبت فيه النيران بالثوب المعصفر ، فإذا ما أتت عليه النار  
وتفحم بدا وكأنه في ثياب سوداء . وبعد ذلك يستغل انتساب الأفشين إلى الجوسية  
أعظم استغلال فيدعى أن صلته بالنار قوية ومتصلة الحلقات ، فقد عبدها حيا ،  
واحترق بها ميتا ، وسيساق إليها في زمرة الكفرة والمفسدين . ثم يستغل انحراف  
بعض الجدوع وتقاربا ليشبه من عليها - شماتة وتهكما - بمن يسرحديثا إلى صاحبه .  
وكل هذه معان وأخيلة ما كانت لتطراً على ذهن شاعر قديم لو أنه وقف من المصلوبين  
هذا الموقف . وقد ذكر بعض الرواة أنه رأى أبا تمام يتصبب عرقاً كأنما يتنزل عليه  
الوحي ، وهو ينشد بعض أشعاره ، ومثل هذا الجهد العنيف يتيح لهم طرق أفكار لا  
يكاد يصل إليها البدوي القديم الذي ينتقل بين الصور والأخيلة تنقل النحلة بين

(٢٦) السموم بفتح السين المهملة الريح الحارة ، وأراد بها هنا النار .

(٢٧) أراد بالضوامر الصلب وهو بضمّتين جمع صليب .

الزهور ، لا تكاد تستقر في مكان حتى تثب منه إلى غيره مكتفية منها بالرشفة السريعة . وليس أدل على قوة تصرف الفكر الحديث واتساع آفاقه مما رأيناه من اتحاد الموضوع وهو الصلب في قصيدتي أبي تمام والأبباري ، واختلاف القول عندهما اختلافًا تامًا ؛ حيث جعله أحدهما كرامة والثاني هوانًا .

### محاولة الإقناع :

كان لانتشار العلوم ، واتساع الثقافة ، واستفاضة الجدل بين العلماء واطلاع العرب على منطق اليونان ، كان لكل ذلك أثره في الشعر العربي ، بل والعقل العربي الذي أصبح ينتظر لكل شيء تعليلاً ، ويتطلب عليه دليلاً وكان القدامى من جاهليين وأمويين لا يجدون ضرورة لشغل أنفسهم أو السامعين بمثل ذلك التعليل أو التدليل .

على أن ميل المحدثين من الشعراء إلى استنباط كل جديد وغريب من المعاني كثيراً ما كان يؤدي بالسامعين إلى استنكار ما يأتون به فيضطر الشعراء بدورهم إلى سوق الدليل على صحة ما يقولون حتى يتمكن من نفوس السامعين . ومن ذلك ما رواه الصولي من أن أبا تمام كان ينشد قوله :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الر أس لإامن فضسل شيب الفؤاد<sup>(٢٨)</sup>  
فأحس شك من حوله في صحة هذه القضية فعقب بقوله :

وكذا القلوب في كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد  
وإليك عدة نماذج من كلام القدامى والمحدثين تبين ما بينها من فروق في هذا الصدد .

قال جرير في النظر :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلتنا<sup>(٢٩)</sup>  
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاننا

(٢٨) أخبار أبي تمام ص ٢٣٢ .

(٢٩) ديوانه ص ٥٩٥ .

وقال فيه ابن الرومي :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم<sup>(٣٠)</sup>  
فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وَقَعَ السهام وَنَزَعْنَهُنَّ أَلِيم  
وقال الحَرث بن حِلْزَة في قالة السوء :-

أيها المناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذلك بقاء<sup>(٣١)</sup>  
لا تَحَلَّنَا على غراتك إنا قَبِلَ ما قد وشت بنا الأعداء  
فيقينا على الشنأة تَنمينا حصون وعزة قعساء  
فقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة خَفِيَتْ أتاح لها لسان حسود<sup>(٣٢)</sup>  
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب غرس العود  
وقال الفرزدق في وفاة مولود :-

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا<sup>(٣٣)</sup>  
وفي بطنه من دوام ذو حفيظة لو أن المنايا أخطأته لياليا  
فقال أبو تمام في صغيرين ماتا لعبد الله بن طاهر :

لهفي على تلك الخايل فيها لو أمهلت حتى تكون شمائل<sup>(٣٤)</sup>  
إن الهلال إذا رأيت نُموه أيقنت أن سيصيرُ بدرًا كاملا

دعك من التوسع في المعنى والتجديد فيه حيث جعل ابن الرومي العين تصيب  
حين ترسل النظر وحين تغضبه ، بينما اقتصر جرير على الأول وحيث ادعى أبو تمام أن  
قالة السوء تفيد المفترى عليه . على حين قنع ابن حِلْزَة بنى آثارها السيئة ، دعك من

(٣٠) تاريخ الأدب العربي ص ٣٧٩ .

(٣١) المعلقات العشر .

(٣٢) الموازنة ص ٦١ .

(٣٣) الموازنة بين أبي تمام والبحترى ص ٣٧ .

(٣٤) نفسه .

هذا الآن فإنه ظاهرة أخرى من ظواهر الشعر الحديث<sup>(٣٥)</sup> وانظر إلى طريقة القدامى في إيراد القضايا خالية من الأدلة ، جريا على عادتهم في الاكتفاء من القلادة بما أحاط بالعنق ، ثم انظر إلى إصرار المحدثين على إقامة البراهين عليها .

وشيوخ التعليل على هذا النحو يعدّ ظاهرة خطيرة في الشعر العربي لأن فيه عملية عقلية مركبة ، حيث يبدأ الشاعر بذكر دعوى يكتنفها الشك لغرابتها غالباً كذبيوع ما خفى من فضل الفضلاء كلما جد الحاسدون في تسويد صحائفهم ، ثم يثني بإقامة الدليل على إمكان حدوث ذلك ، ممثلاً له بنار اشتعلت في عود طيب الرائحة فتضوع شذاه بعد أن كان فضله على غيره خافياً ، يحسبه الجاهل نوعاً من الحطب . وهذه الظاهرة خطيرة لأنها وليدة خيال جامع وفكر ثاقب متحرر يستطيع أن يتغلغل في أسرار الكون ، فيدرك ما بين أجزائه المختلفة من روابط ووجوه شبه . وهكذا ينبغي أن يدرك القائل :

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنينا الطغام  
ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام

الشبه بين الغبار المتعالى في الجورغم تفاهته ، والطغام الذين يتسلقون كالقردة والزواحف على أكتاف غيرهم إلى المناصب العليا رغم هوانهم على أنفسهم وعلى الله ، ثم يقفز إلى الطرف الآخر للقضية فيدرك الشبه بين تواضع الجيش وانضوائه تحت لواء الغبار من جهة . وخفاء أقدار النفوس الكبيرة من جهة أخرى فيجمع بين هذين ويضعهما بإزاء ما سبق .

والشعر العباسي ملئ بهذا النوع من التعليل وإن أردت مزيداً فاقرأ قول أبي العتاهية :

يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذي لا يتفضى تعب<sup>(٣٦)</sup>  
إن استهاتها بمن صرعت بقدر ما تعلقو به رتبته

(٣٥) استنباط الجديد الدقيق من المعاني .

(٣٦) ديوانه ص ٣٤ .



ولو استوت للنمل لأجنحة كما يطير فقد دنا عطبه  
وقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكرم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى<sup>(٣٧)</sup>  
وقول أبي الطيب :

أرى المتشاعرين غرّوا بذمى ومن ذا يحمد الداء العُضالا  
ومن يكُ ذافمٍ مِرٍ مريضٍ يَجِدُ مرأً به الماء الزلالا  
وقوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال  
ولا يعتمد المحدثون فيما يحاولون من إقناع السامع على المنطق الجاف ، بل  
يسلكون إلى النفوس مسالك لطيفة ، تنتهى بها إلى التسليم إن كان الموقف موقف  
خصومة وجدل ، وبالرضا والهدوء عند السخط والمعاناة ويبدو ما قلناه واضحا حين  
تضع قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب  
بجانب قول بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه  
فعرش واحدا أو صل أخاك فإنه مقاربٌ ذنبٍ مرةً وبجانبه  
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاريه

والبيت الأخير من أبيات بشار يجعل الإخوان كالماء يصفو تارة ويكدر أخرى  
فإذا كنا نتقبل هذا الوضع فى مشاربنا ، ونتمسح فيه إبقاء على حياتنا ، فلم لا نفعل  
مثل ذلك بالإخوان أيضا فتقبلهم على علائهم .

وينبغى ألا ننسى أن فى مثل هذا التعليل شيئا غير قليل من المغالطة إذ ليست  
هناك صلة واضحة بين الماء والأصدقاء أو بين الطعام والقتام أو النار وقالة السوء .

(٣٧) ديوانه ص ٢٤٦ .

وكأنى بالشعراء يلتمسون أوهى الأسباب لتمكين ما يقولون من نفوس السامعين . وما أشبههم هنا بالجاحظ حين قال (٣٨) في تفضيل السودان على البيضان « ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى وجلودها أنفع وأثمن وأبقى . . وكل جبل وحجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد ييوسة . والأسد الأسود لا يقوم له شىء . وليس من التمر أحلى حلاوة من الأسود . . والإنسان أحسن ما يكون في العين إذا كان أسود الشعر وأكرم ما في الإنسان حدقتاه وهما سوداوان وكذا كبده ، وسويداء قلبه » وكأنه يمثل هذا الإسهاب يريد أن يقول إن نواميس الطبيعة في جانب دعواه وكذلك يفعل المحدثون من الشعراء فيما ذكرناه .

والقدماء في موازنتهم أبعد عن المغالطة ، وأقرب لطبائع الأشياء .

اقرأ إذا شئت قول عباس بن مرداس :

ترى الرجل النحيف فتزدرية      وفي أثوابه أسد مزير (٣٩)  
 ويعجبك الطير فتبتليه      فيخلف ظنك الرجل الطير (٤٠)  
 فما عِظَمَ الرجال لهم بفخر      ولكن فخرهم كرم وخير  
 بغاث الطير أكثرها فراخا      وأم الصقر مقلاة نزور (٤١)  
 ضعاف الطير أطولها جسوما      ولم للبزاة ولا الصقور

فسترى أن الرجل يبسط بين يديك قضية محددة ، وهي أن عظمة المرء ليست بقدر ضخامة جسمه ، ولكن بأعماله النافعة ، ثم يحاول في البيتين الرابع والخامس الاستدلال على صدق قضيته ، فلا يذهب بك بعيدا ، كما فعل المحدثون من بعده . ولكن يوازن بين الإنسان والطيور ؛ لأنها تابعان لجنس واحد وهو الحيوان . وقوانين الطبيعة المسيطرة عليها واحدة ، أو متقاربة .

وهناك نوع من القياس الصريح الذى لا يحتاج إلى مثل هذا المجهود الذهني لأنه

(٣٨) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣٩) الحماسة ج ٢ - ص ٢١ - مزير . عاقل .

(٤٠) الطير: الناعم المترف .

(٤١) بغاث الطير شرارها - مقلاة نزور . قليلة الأولاد .

مأخوذ من التاريخ ، لا من نواميس الطبيعة وترى نماذجه في مثل قول أبي تمام يمدح المعتصم ، ويعتذر عنه في استعمال الأفشين رغم ما كان ينطوى عليه من خيانة للدين والدولة :

هذا النبي وكان صفوة ربه من بين باد في الأنام وقار<sup>(٤٢)</sup>  
قد خص من أهل النفاق عصابة وهم أشد أذى من الكفار  
أو يقول مشيراً إلى أن الدين والورع لا ينبغي أن يكون أساساً يُقسَّم في ضوئه  
الناس إلى أشرف وسوقه ، بل ينبغي أن يكون الحكم في ذلك موافقهم ومآثرهم :  
إن كان بالورع ابني القوم العلا أو بالتقى صار الشريف شريفاً<sup>(٤٣)</sup>  
فعلام قدم وهو زان عامر وأميط علقمة وكان عفيفاً<sup>(٤٤)</sup>  
وإني المكارم حاتم في شركه وسواه يهدمها وكان حنيفاً

---

(٤٢) ديوانه ص ١٥٣ .

(٤٣) ديوانه ص ٢٠٩ الإشارة في البيت الثاني إلى عامر بن الظمیل وعلقمة بن علاثة وكانا قد تفاخرا بقدوم الأول لشجاعته وكرمه . ولم يضره كثيرا ما عرف عنه من فسوق وفجور .  
(٤٤) أحيط بالبناء للمجهول . نحن وأعد بالبناء للمجهول أيضا

## العنصر الثاني

التزام الحقائق : عرفنا أن التزام الحقائق كان ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلي . ولم يكن ذلك منهم مراعاة لدين ، أو خضوعاً لشريعة ، ولكنه أثر من آثار حياتهم الساذجة ، التي تكتفي بقدر الضرورة من كل شيء في المأكل بل والمشرب والملبس ، وتدع الفضول والمبالغات جانباً . ونتيجة من نتائج الحياة المكشوفة الصريحة التي يجوبونها . وقد تتبعنا آثار تلك الظاهرة في الشعر العربي ، فوجدنا الميل إلى الاقتصاد الشديد في المدح والفخر ، بحيث لا يكاد الشاعر ينسب إلى نفسه وقومه حين يفخر ، أو ممدوحه حين يمدح إلا ما يعتقده أو ما هو قريب منه .

أما العصر العباسي فعصر الضخامة والمبالغة في كل شيء ؛ ضخامة الدولة وفضامتها ، وضخامة الجيوش ، وتكديس الأموال ، وأبهة الملك ، وسطوة الخلافة . مظاهر رائعة وحياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياة البادية ، بحيث صار الشعر الجاهلي الساذج المتواضع يبدو أمامها وكأنه عباءة البدو التي تحيِّفها الزمن على كنف أحد المارة في بعض شوارع لندن أو باريس .

لم يكن إذن بدء من أن يساير الشعر العربي تلك الحياة الجديدة . وإن يطرح التواضع والبساطة والقصد الذي عاد لا يلائم الظروف الجديدة . فإن تردد ، أو تباطأ حملته الناس على ذلك حملاً ، ودفعوه إليه دفعا ، دون هوادة أو ملاينة . وما يذكر بهذه المناسبة أن أبا تمام وقف يمدح أحمد بن المعتصم فقال :

أبليت هذا المجد أبعد غاية فيه وأكرم شيمة ونحاس (٤٥)  
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال ذلك وظن أنه قال شيئا . ولكن أبا يعقوب يوسف الكندي الذي درس كتب أرسطو وأفلاطون ، سرعان ما لاحظ البون الشاسع بين قول أبي تمام ومقتضيات العصر فقال معترضاً : وهل زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب . إذن فلا بد أن يلتبس الشاعر لغة غير تلك التي كانت تقال من قبل ، ومُثلاً عليا غير

(٤٥) أخبار أبي تمام ٢٣١ والمعنى بلغة الرياضيين أن الممدوح حطم الرقم القياسي في هذه الفضائل جميعا .

تلك التي عرفت فيما مضى . لقد كان مثل هذا البيت يمكن أن يقع موقعًا جميلًا من نفس عبد الملك بن مروان أو أشباهه من خلفاء الدولة الأموية وأمرائها . أما اليوم فلا . وقد أخذ الشعراء إذ ذلك يلتمسون رضا الذوق العام بأساليب شتى . فقال بعضهم إلى الغلو كما ترى في قول أبي نواس للرشيدي :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه      لتهايك النطف التي لم تخلق  
أو قول المتنبي في بدر بن عمار .

لو كان علمك بالإله مقسمًا      في الناس ما بعث الإله رسولاً (٤٦)  
أو كان لفظك فيهم ما أنزلت      حوراة والقرآن والإنجيلا  
وسرعان ما سرت الروح الجديدة في أغراض الشعر الأخرى من هجاء وغزل وفخر وغيرها ، فإذا بابن الرومي يقول هاجيا :

لو أن قصرك يابن يوسف كله      لير يضيق بها فناء المنزل (٤٧)  
وأذاك يوسف يستعيرك إبرة      ليخيط قد قصيه لم تفعل  
ومن قبلهم قال بشار يتغزل :

سلبت عظامي لحمها فتركتها      عوارى في أجلادها تتكسر (٤٨)  
وأخلت منها مخها فجعلتها      أنابيب في أجوافها الريح تصفر  
وإذا أحببت أن ترى مدى ما بين القدامى والمحدثين من تفاوت بصورة أدق وأوضح فوازن بين قول أبي نواس السابق في الرشيد وقول جرير في الحجاج :

وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهم      نزو القطا التفت عليها الحباثل (٤٩)  
أو قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني      ولا قرار على زراً من الأسد

(٤٦) ديوانه - ح ٣ - ص ٢٤٤ .

(٤٧) تاريخ الأدب ص ٣٩٩ .

(٤٨) نفسه ص ٣٩٨ .

(٤٩) ديوانه ص ٤٤٠ .

أو وازن قول بشار فيما رماه به الحب من ضعف :  
سلبت عظامي لحمها فتركها عواري في أجلادها تتكسر

بقول عروة بن حزام في نفس المعنى :

متى تخلعا عني القميص تبيّنا بي الضرّ من عفراء يافتيان<sup>(٥٠)</sup>  
وتعترفا لحما قليلا وأعظما رقاقا وقلبا دائم الخفقان

وشبيه بهذا قول الأخطل في الخمر :

تدب دبيبا في العظام كأنها دبيب نعال في نقايتهيل<sup>(٥١)</sup>  
إذا قيس بقول أبي تمام :

إذا الروح دبّت فيه تحسب جسمه لما دبّ فيه قرية من قرى التّمّل<sup>(٥٢)</sup>

وقول النابغة :

وعيّرتني بنو ذبيان خشيته وهل عليّ بأن أحشاك من عار<sup>(٥٣)</sup>

حين يوضع بإزاء قول أبي تمام :

خضعوا لصولتك التي هي عندهم كالموت يأتي ليس فيه عار<sup>(٥٤)</sup>

فإنك لاشك واجد في أقوال السابقين قصداً واعتدالاً ، وربما رأيت عند  
القدامي شيئاً من المغالاة ، ولكنها نادرة ومستساغة . والسرف في ذلك إما أن  
تجرى مجرى التهكم ، والتهكم يعني بإضحاك الناس أكثر مما يعني بتحريّ الحقائق .  
ومن ذلك قول الطرماح :

ولو أن برغوئاً على ظهر قملة يكر على صفى تمم لوّلت

(٥٠) ديل الأماك ص ص ١٥٨ .

(٥١) الموازنة ص ٣٨ . والقا . بفتح النون القطعة من الرمل

(٥٢) نفسه .

(٥٣) نفسه ص ٣٦ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) الوساطة ص ٤٣٦ .

وقول العيني في جوابه:

ولو أن عصفوراً يمد جناحه على طيء في دارها لاستقلت<sup>(٥٦)</sup>  
وإما لأن المرء يستطيع أن يتقبل ما فيها من حقائق مع شيء من التأويل  
والمغالطة ، كما ترى في قول بعض القدماء:

ألا إنما غادرت يأم مالك  
صدى أينما تذهب به الريح يذهب<sup>(٥٧)</sup>

فالفرق شاسع بينه وبين قول المتنبي:

ولو قلم ألقيتُ في شق رأسه  
من السقم ما غيرت من خط كاتب<sup>(٥٨)</sup>

فإن الناس كثيراً ما يقولون فلان ظل لفلان ، أو صدق له . أما أبو الطيب  
فقد ضيق على نفسه سبل التأويل ، ووضع نفسه بين شق قلم فلا يستطيع أحد  
لذلك تخريجاً ، ولا يجد له من كلام الناس شبيها . ولسنا في ذلك نتحامل على  
المحدثين بدليل أننا نعتقد أن قول أبي الطيب:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني<sup>(٥٩)</sup>

أبعد عن المبالغة ، وأقرب إلى المتعارف من قوله السابق ، لأن المرء قد يكون  
قيماً ، أو نخيلاً ، بحيث يمكن أن يقول قائلاً مثلاً ، ماكدت أراه حتى تحدث  
إليّ أو نحو ذلك من العبارات .

ونحن نسلم بأن القياس مع الفارق . ولكن كم من الناس يفتنون إلى مثل  
هذه الفروق الدقيقة ، أليس معظم الشعر مغالطات ، ألا فليكن هذا بعضها .  
ومن عجب أن الجرجاني في وساطته<sup>(٦٠)</sup> سوى بين هذه الأمثلة من كلام القدماء  
والمحدثين ، وإن اعترف بكثرتها عند هؤلاء ، وندرتها في كلام أولئك .

(٥٦) نفسه .

(٥٧) نفسه ص ٤٣٢ .

(٥٨) نفسه ص ٤٣٤ .

(٥٩) نفسه .

(٦٠) ص ٤٣٣ .

ويختلف النقاد أيضا حول هذا اللون من التجديد اختلافهم حول تجديد أبي تمام ومسلم ، فمنهم من يتمسك بظاهر العبارة وحرفيتها على عادة القدماء فيرمى الشعراء بالإحالة ، ويتهمهم بالخطأ<sup>(٦١)</sup> ومنهم من وسعت الثقافة الحديثة آفاقهم فصاروا لا يقفون عند المعنى الحرفي للعبارة ولا يرون فيها إلا نوعا من المبالغة البريئة المقبولة بل المرغوب فيها . ومامن شك في أن هذا الفهم والتساهل كان صدى لما أصاب الحياة من تطور اجتماعي جعلهم يطربون لكل طريف من المعاني وجديد من الأخيلة ، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة التي عادوا لا يخفون بها كثيراً . وقد قوى هذا الاتجاه شيوع الثقافة اليونانية التي تحمل آثار الخيال الخصب الشائع في آدابهم وأساطيرهم . وترى آثار هذه الثقافة في قول قدامة بن جعفر<sup>(٦٢)</sup> « إن الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه . وكذلك نرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم<sup>(٦٣)</sup> » .

ولنا في هذه القضية موقف وسط ، فلا نرفض مثل تلك المبالغات ، ونرمى أصحابها بالخطأ والإحالة ، ولا نتحمس لها تحمس قدامة . لا نرفضها لأننا لا نوافق على ما يبيده القدامى من تزمّت وتحامل على المحدثين ، لأن المحدثين لم يحاولوا مغالطة السامعين ولا قلب الحقائق ، ولا ليهام الناس بحدوث ما لم يحدث ، ووقوع ما لم يقع ، وكل ما أرادوه هو إمتاع السامعين على أسلوب العصر . ومثل هذا الفهم يجعل ثورة أنصار القديم عليهم غير ضرورية .

ولا نتحمس لها تحمس قدامة لأننا نعتقد أن القصد في الفخر والمدح وأوقع من الإسراف والغلو فيها . فقد تكون المبالغة عذبة وجميلة ، وقد تعطي ضوءاً ساطعاً كأنه البرق الخاطف . قبل أن يتناولها الفكر بالتحليل . ولكن هذا الضوء اللامع

(٦١) الصناعيتين ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٦٢) نقد الشعر ص ١٩ .

(٦٣) إذا كان قدامة يمثل رأى المحدثين وأذواقهم هنا ، فإن الجاحظ يتحدث بلسان القدامى حين يقول : « وأنفع المدائح للمادح ، وأجداها على المدوح ، وأبقاها أثراً ، وأحسنها ذكراً أن يكون المديح صدقا ، ولظاهر حال المدوح موافقا وبه لا نقا - بوسائل الجاحظ ص ٣٢ .



سرعان ما يتلاشى أو يضعف على الأقل حينما يظهر أنها مجرد مبالغة أحسن الشاعر صوغها ، وليس بينها وبين الحقيقة إلا سبب ضعيف .

أما الممكن من المبالغات فإنه شبيه بنار الفحم ، بطيئة الاشتعال ولكنها مع ذلك شديدة الأثر ، طويلة الأمد . وسبب ذلك أن الحقيقة فيها تختلط بالخيال ، لجواز وقوعها ، وإمكان حدوثها ، اختلاطاً ربما قوياً في نفس السامع حتى يصير الخيال عنده حقيقة أو كالحقيقة . أما عند الغلو فقد يعجب السامع بخيال الشاعر ، أو عبقريته ، ولكن إعجابه يقف عند هذا الحد ، ولا ينفذ منه إلى الممدوح نفسه إلا القليل . وآية ذلك أتى وإياك حينما نقرأ قول الأعشى في قيس بن معدى كرب :

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها  
كنتَ المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلماً أبطالها

بعد قول أبي تمام في نوح بن عمرو :

لو أن طول قناته يوم الوغى ميل إذن نظم الفوارس ميلا  
تؤمن من حيث لا نشعر بأن صاحب الأعشى كان شجاعاً حقاً . أما صاحب الطائي فلا تؤمن ببطلته إلا بقدر ما تؤمن برحلات « جلفر » في أرض الأقرام<sup>(٦٤)</sup> .  
والقاريء للشعر العربي في العصر العباسي وما بعده يراه سلسلة من المبالغات متصلة الحلقات . يجعل وقعها على الأسماع ، وديبها إلى القلوب ، إذا أسعفها التوفيق فجاءت كما ترى في قصيدة المتنبي التي يقول في ثناياها عن أعداء سيف الدولة :

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان ليل والغبار  
وإن جنح الظلام انجاب عنهم أضواء المشرفية والنهار  
إذا فاتوا الرماح تناولتهم بأرماح من العطش القفار

(٦٤) رحلات خيالية قام بها أحد العالقة إلى أرض الأقرام فبدأ الفرق شاسعاً بينه وبينهم . وكتبها سوقت

الكاتب الإنجليزي المتوفى سنة ١٧٤٥ م .

ثم يقول في سيف الدولة :

وأصبح ذكره في كل أرض تُدار على الغناء به العقار  
تَحَيَّرَ له الجبابر ساجدات وتحمده الأسنة والشفار  
كأن شعاع عين الشمس فيه ففي أبصارنا عنه انكسار

ولعل السر في إعجابنا بهذه الأبيات واستساغتنا لما فيها من غلو ومبالغات أن تلك المبالغات قد أحسن وضعها حتى بدت كأنها حقائق مجردة من الخيال . وربما كان إعجابنا بشخصية سيف الدولة ، وبلائه في حرب الروم ونيله منهم رغم ضيق رقعة دولته ، مع سخظنا على تلك القبائل العربية لتجاهلها مثل هذا المجهود ، واستغلال إبقاء سيف الدولة عليهم ، واحتماله لهم استغلالاً سيئاً ، ونكرانهم أيادية عليهم وحمايته لهم . ولعل ذلك كله هو الذي يجعلنا نحس بما نحس به من متعة حين نقرأ هذه القصيدة . على أن جمال أسلوبها ، وخفة عبارتها ، وجريان ماء الطبع فيها أمور ينبغي أن تدخل في حسابنا .

أما المبالغات البغيضة فيمكن أن ترى صمورة منها في قول أبي تمام يمدح نوح بن عمرو الذي أشرنا إليه سابقاً وذلك حين يقول :

لا تدعون نوح بن عمرو دعوة للخطب إلا أن يكون جليلاً (٦٥)  
يقظ إذا ما المشكلات عروته ألفيته المتبسم البهلولا  
مازال يرمهن حتى إنه ليقال ما خلق الإله سحیلا  
تبت المقام يرى القبيلة واحداً ويرى فيحسبه القبيل قبیلا  
لو أن طول قناته يوم الوغى ميل إذن نظم الفوارس ميلا

وهكذا ندرك أن مدى إعجابنا ، أو نفورنا من المبالغات يتوقف على مبلغ إيماننا باستحقاق الممدوح أو المرثى أو ما سواهما لما يقال فيه . وهذا هو السبب في أننا لأنساء حين نقرأ قول أبي الطيب :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلباتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم  
وذلك لإيماننا بكثير مما يدعيه . وننفر في الوقت نفسه من قول ابن سناء الملك :  
توقّد عزمي يترك الماء جمرة وحيلة حلمي ترك السيف مبرداً (٦٦)  
ويأبى إبابي أن يراني قاعداً وأن أرى كل البرية مقعدا  
حيث لا نعلم الأسباب ولا الظروف التي من أجلها استحق أن يجعل من البشرية  
مقعداً يتربع عليه .

وهناك نوعان من المبالغة دارا على لسان أبي تمام أكثر من أي شاعر آخر ، وذلك  
لما قدمناه من أنه كان يهتم بتحميل أشجاره أكبر قدر ممكن من الثمار ، ولو أدى ذلك  
إلى تحطيم أغصانها . أما النوع الأول فيمكن أن نسميه المبالغة التي يقصد بها  
التأكيد ، لأنها ليست من تلك المبالغات المدوية التي تسبق إلى الأسماع ، بل فيها  
هدوء لا تكاد تصل معه إلى الأذهان إلا في النظرة الثانية ، ولهذا غفل معظم النقاد  
عنها . وما نظن أن أحداً منهم أشار إليها . وتتضح في مثل قوله :

يا متزلاً أعطى الحوادث حكمها لا مُطَّلَ في عِدَّةٍ ولا تسويفاً  
أرسي بعرصتك الندى وتنفست نفساً بعقوتك الرياح ضعيفاً  
ولئن ثوى بك ملقياً أجرامه ضيف الخطوب لقد أصاب ضعيفاً  
وهي الفجائع لم تزل نكباتها يألفن ربيع المنزل المألوفاً  
فاستعمال أرسى في البيت الثاني ، وثوى وملقياً أجرامه في الثالث ، ويألفن في  
الرابع ، مع إمكان الاكتفاء بنزل وزار وحل يمثل لنا ولوع المحدثين بتأكيد معانيهم  
والمبالغة فيها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وشبيه بذلك قوله من نفس القصيدة  
يخاطب الثغرى :

اسمع أقامت في ديارك نعمة خضراء ناضرة ترفّ رفيقا  
رّيا إذا النعم انتقلن تخيّمتم وإذا نفرن غدت عليك ألوفا

(٦٦) تاريخ الأدب العربي ص ٤٠٩ .

وقوله :

جدوى أصيل العلم أن سيضيمه قصف المكارم إن رجعت قضيها (٦٧)

وقوله :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أجاً إذن ثقلت وكان خفيفا  
فوصفه النعمة بالخضرة والنضرة والرفيف والرّي أمر لم يسبق إليه . وكلمة تخيمت  
التي احتلت مكان أقامت في شعر القدماء تكاد تكوّن مع البيت السابق وصفاً أو  
تخطيطاً لجنة خيالية يرسمها الشاعر في خياله للمدوح . جنة ملتفة الأشجار دائية  
الثمار ، وارقة الظلال ، تضرب فوق المدوح مرادفاً ضخماً فخماً يسعه ويسع كل  
من يلوذ به أو يتسبب إليه .

وكان يكفيه في البيت الثالث أن يقول : « جدوى من يعلم كذا  
وكذا (٦٨) » ولكنه يصر على أن يقول أن عطاءه هذا ليس عطاء الجامل  
أو المصانع الذي لا يؤمن بما يفعل ، فيجود حياء وتورطاً ، وإنما عطاء من  
يؤمن إيماناً قوياً في قرارة نفسه أن حرمان الشاعر سيؤدي إلى ضياع  
المكرّمات التي أقام نفسه حارساً عليها . وفي البيت الرابع لا يكتفي بتشبيه  
حلمه في الرسوخ بالجبل كما كان يفعل القدامى ، بل يختار الهضبة لضخامتها  
واتساعها . وأما النوع الثاني من المبالغة فيبدو في مثل قوله :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

أو قوله :

عاقدت جود أبي سعيد إنه بدُن الرجاء به وكان نحيفا  
جدوى أصيل العلم أن سيضيمه قصف المكارم إن رجعت قضيها  
واستل من آرائه الشعل التي لو أنهم طبعن كن سيوفا

(٦٧) القصف بفتحين النحاقة ، والقصفيف: النحيف .

(٦٨) وازن بينه وبين الأعشى حين قال :

وعلمت أن النفس تلقى حتفها ماكان خالقها المليك قضى لها

إن غاض ماء المزن فِضَتْ وإن قست كبد الزمان على كنت رؤوقا  
خَفَضَتْ عنى الدهر بعد مسلمة تركت لنايه على صريفها

ويسمى هذا النوع من التجديد عند النقاد بالتشخيص والتجسيم حيث جعل الزمان إنساناً يتكشف حيناً فيلبس الصوف ، ويقسو أحياناً فتغلظ كبده ، ثم يعن في القسوة فيصير جملاً صؤولاً ينشب أنيابه في عظام الشاعر . ثم وصف الرجاء وهو أمر معنوى بالنحافة والبدانة وفعل بالمكارم مثل ذلك . وصنع من الرأى شعلاً وسيوفا .

وقد شغل النقاد أنفسهم ببيان ما في مثل تلك الأبيات من مخالفة لأساليب الأوائل ، ولم يهتموا بالبحث عن الدوافع التي دفعت بالشعراء وعلى رأسهم أبو تمام إلى الإكثار من ذلك . وقد لا نكون مخطئين إذا ادعينا أنها مظهر من مظاهر احتفال أبي تمام ومن على شاكلته للمعاني ومحاولته دائماً إيضاحها وتأكيدا والمبالغة فيها . لأن المدرك بالحواس أشد جلاء ووضوحاً من المدرك بمجرد النظر والفكر .

أما فيما يختص بجمال ما ورد في شعر أبي تمام من تشخيص أو قبحه ، فيجب أن يكون مرد ذلك إلى وجود تشابه قوى أو عدم وجوده بين المشبه به والمشبه . فإخراج الليل الطويل الثقيل في صورة البعير من قول امرئ القيس :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله على أنواع الهموم لبيتلى  
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل  
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

جميل ومقبول حيث إن في كل من الليل والجمال ثقلاً وامتداداً . وهذا هو السبب في أننا نرحب بمثل قول أبي تمام :

خَفَضَتْ عنى الدهر بعد ملمة تركت لنايه على صريفها

حيث تشبه الملمات والكوارث بالجمل الصؤول . أما قوله :  
يادهر قوم من أخدعك فقد أضجرت هذا الخلق من خرقك  
وقوله :

كانوا برود زمانهم فتصدّعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا  
فغير سائع حيث لا صلة بين الإنسان والزمن ، حتى يستعار هذا  
لذاك ، ويشبه به في الخرق والتكشف ، اللهم إلا إذا كان أبو تمام يحمل  
بين جنبيه نقمة علي بنى جنسه ، تجعله من حيث يشعر أولاً يشعر ، يرى  
الإنسان صورة مجسّمة للظلم والعدوان . وليس هذا ببعيد على من كان مثله  
ذا ذكاء متوقد ، وحس مرهف ، فإن أمثال هؤلاء يكونون في كثير من  
الأحيان موضع حسد الأقران ، ولا يقابل الحسد إلا بالسخط والنقمة من  
المحسود . ويؤكد هذا التوجيه ما نراه من كثرة حديثه عن الأخادع ،  
ومطالبه الدهر بتقويمها ، فإن الأخادع في صفحة العنق ، التي يظهر فيها  
العجب والصلف .

وينبغي أن يهتم هذا الفصل بالإشارة إلى ما شاع عند المحدثين من قلب  
التشبيات بقصد المبالغة . وذلك كما يرى في قول البحترى يمدح المتوكل  
على الله ، ويصف البركة التي شادها :

كأنها حين لجّت في تدققها يد الخليفة لما سال وادياها  
أو قول أبي نواس في مدح الأمين :

تتبه الشمس والقمر المنير إذا قلنا كأنها الأمير (٦٩)  
فإن يك أشبها منه قليلا فقد أخطأها منه كثير

ووجه المبالغة أن التشبيه مبنى دائما على زيادة المشبه به على المشبه في  
وجه الشبه . فإذا قلنا محمد كالأسد ، فلا بد أن يكون الثاني أعظم جرأة

وإقداماً من الأول . فنحن نستغل عن طريق المغالطة ما قرر في اللاشعور من زيادة المشبه به على المشبه حين نقلب الأوضاع فنجعل الفرع أصلاً . وبذلك يتقبل السامع القضية دون مناقشة طويلة واثقاً أو كالمواثق بأن يد الخليفة في التدفق وسعة العطاء بحيث يمكن أن تجعل أصلاً يشبه به الأنهار والجداول ونحوها حين يراد تأكيد غزارة مائها وتلاطم أمواجها .

والتشبيه المقلوب على هذا النحو ، وبهذا القصد ، لم يرد إلا في شعر العباسيين وأما قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد جللته المظلمات الحنادس (٧٠)

فليس مما نحن فيه ، حقاً إنه تشبيه مقلوب حيث كان ينبغي أن يعكس الأمر فتشبه الأوراك بكثبان الرمل لضخامة الأخيرة . ولكن الشاعر لم يقصد بيان ضخامة الأوراك . لأنه لم يكن لديه عذارى يتحدث عنها ، بل كان يقصد بيان عظم تلك الكثبان مع شيء من طرافة التعبير .

---

(٧٠) زهر الآداب - ح ٢ ص ٩٤

## العنصر الثالث

التصوير :

تحدثنا فيما مضى عن الميل إلى التصوير ، وعرفنا أنه أحد الأصول الهامة في الشعر الجاهلي ، وحددنا هدفه عند الجاهليين بأنه نقل المشاهدات والتجارب التي شاهدها الشاعر أو مر بها عن طريق التشبيه أو الاستعارة محاولاً في تصويره الاقتراب من الحقيقة ما أمكن ، فإلى أى حد تطور هذا الأصل أو جمد على ألسنة المحدثين من شعراء بنى العباس ؟ الجواب على هذا السؤال : أن هذا الأصل قد تلون بما أصاب الحياة العقلية والاجتماعية من ألوان إذ ذاك ، وانتهى ذلك به إلى الانحراف الواضح عن الوضع القديم الذي عهدناه عليه ، ويمكن تحديد عوامل ذلك التطور أو الانحراف وآثارها على النحو التالي :

أولاً : تأثير ما ظهر في العصر العباسي من غلو ومبالغة ، فقد كان التصوير قديماً قريباً من الواقع متأثراً في ذلك باتجاه شعراء الجاهلية إلى القصد والاعتدال ، ولكن لما جاء العهد العباسي ونشأ الغلو والمبالغة ، ترك ذلك الذوق الجديد أثره في التصوير ، فعظم الفارق بين الحقيقة التي يتحدث عنها الشاعر والصورة التي يعرضها فيها وما كان عظيماً قبل ذلك ، وإليك عدة أمثلة يظهر فيها القديم بجانب المحدث ، وبضدها تتميز الأشياء .

قال عروة بن حزام متحدثاً عن خفقان قلبه واضطرابه :

كأن قطاة علفت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان  
وقال بشار في نفس المعنى :

كأن فؤاده كرة ترامى حذار اليبين لو نفع الحذار<sup>(٧١)</sup>

---

(٧١) الأدب العربي ص ٣٩٢ .



وما من شك في أن الأول أقرب إلى الحقيقة ، لأننا لا نشعر بأن قلوبنا تتزعج من صدورنا ويقذف بها بعيداً عنا حينما تصيبنا نوبة من نوبات الشوق أو القلق ، بل نشعر بها نتحقق وهي لا تزال حبيسة داخل أفضاسها وأمثلة هذا النوع كثيرة كقول أبي الطيب في الرماح :

جوائل بالقنبيّ مشقّفات كأن على عواملها الذبالا  
بعد قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كآنياب أغوال  
وكقوله في لبدة الأسد :

متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا  
بعد قول طرفة في ذيل ناقته :

أن جناحى مَضْرَجِي تَكْتَفَا حِفَافِيهِ شُكَا فِي الْعَسِيبِ بِمَسْرَدٍ  
وكقوله في الخيل وما تثيره من غبار :

خافيات الألوان قد نسج النقم مع عليها براقعا وجلالا  
حين يوضع بجانب قول طرفة في ناقته وما تثيره يديها من حصا .

قترى المرو إذا ما هجرت عن يديها كالفراش المشفتر

ومن مراجعة الأمثلة السابقة ترى مدى احترام القدامى لقواعد فن التصوير ، وعدم اكتراث المحدثين به . وإنما اختلفوا على هذا النحو تبعاً لاختلاف غايتهم من التصوير . فالقدامى يهدفون إلى الايضاح ، (٧٢) بينما يهدف المحدثون إلى الجلدة

(٧٢) وازن بين قول طرفه في مغنية .

إذا رجعت في صوتها نخلت رجعها تجلوت أظآر على ربع ردى  
وقول بشار في حبيته :

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين رهرا  
لترى كيف يحاول أحدهما الاقتراب من الحقيقة جاهداً ، بينما يفض بها الآخر عرض الحائط .

والإبداع والتفخيم والتعظيم . القدامى يحاولون الاقتراب من الحقيقة ما استطاعوا ، ولا يتعدون عنها إلا مكرهين والمحدثون يخلقون في سماء الخيال إلى آخر ما يمكن أن تحملهم إليه أجنحتهم أليس هذا هو ما يمكن أن يفهمه المرء من قول امرئ القيس من جهة :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العُنب والحشف البالى  
وقول أبي الطيب من جهة أخرى :

شرف ينطح النجوم بروقيده وعز يقلقل الأجبالا (٧٣)  
أو قوله في أهداء سيف الدولة :

قد سودت شجر الجبال شعورهم فكأن فيه مُسفة الغربان (٧٤)  
وجرى على الورق النجيع الفانى فكأنه النارج في الأغصان

أما العامل الثانى فهو تغلغل المحدثين فيما وراء ذلك الإهاب الخارجى لمظاهر الكون نتيجة لانتشار العلوم ، وتقدم الثقافة ، واتساع آفاق الفكر بحيث صار الشاعر يستطيع عن طريق تداعى المعانى ، وغير ذلك من العمليات العقلية المختلفة أن يرى ويسمع مالم يكن سلفه فى الجاهلية يستطيع أن يسمع ويرى . هذا مع قصد شعورى إلى الابداع والتجديد . وإذا شئت أن ترى نماذج لهذا فارجع إلى قول امرئ القيس فى الطبيعة متحدئا عن السيل وأثره فى البادية سهوها وجبالها :

كأن ثيرا فى عرانيين وبله كبير أناسٍ فى بجاد مزمل  
كأن ذرا رأس الجيمر حوله من السيل والعتاء فلكة مغزل  
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل  
وألقى بصحراء الغبيط بعاغه نزول إيمانى ذى العياب المحمّل (٧٥)  
كأن مكاكى الجواء غديّة صبحن سلافا من رحيق مُقلقل

(٧٣) ديوانه ح ٢ ص ١٤٣ .

(٧٤) ديوانه - ح - ٤ ص ١٨٣ المسفة بتشديد الفاء المكسورة الدانية من الأرض .

(٧٥) شة صروب الأزهار الناشئة عن هذا المطر بضروب الثياب الملونة التى يعرضها التاجر الإمانى للبيع .

وضع بجانبه حديث شاعر محدث عن الطبيعة وعن المطر وآثاره في السهول والرياض ، كأبي تمام حين يقول :

مطر يذوب الصحو منه وبعده      صحو يكاد من الغضارة يُمطر<sup>(٧٦)</sup>  
غيثان فالأنواء غيث ظاهر      لك وجهه والصحو غيث مُمطر  
ياصاحبي تقصياً نظري كما      تريا وجوه الأرض كيف تُصوّر  
تريا نهارة مشمسا قد شابه      زهر الربا فكأنما هو مقمر  
دنيا معاش للورى حتى إذا      حل الربيع فأتما هي منظر  
أضحت تصوغ بطونها لظهورها      نورا تكاد له القلوب تنور  
من كل زاهرة ترقرق بالندى      فكأنها عين إليك تَحَدَّر  
تبدو ويحجها الجميم كأنها .      عذراء تبدو تارة وتَحْفَر<sup>(٧٧)</sup>

فأظنك إلا مدركا عظم الفرق بين الشعريين والفكرين ، فامرؤ القيس مصور ، وأبو تمام مفكر ، الأول قد أعاد المناظر الطبيعية بعينها أو بعبارة أخرى نقلها إلينا بأمانة عن طريق تلك التشبيهات المتوالية .

أما الثانى فركب أجنحة الخيال وابتعده كثيرا عن أرضنا وسمائنا ، فتخيل الصحو وكأنه ممطر لغضارته ، والنهار المشمس وكأنه مقمر لبهائه ورقته والزهرة حين تسفر ثم تحتجب خلف الحشائش وكأنها عذراء خجول تظهر ثم تختفى خلف الحجب والأستار .

وإن شئت فوازن بين قول امرئ القيس:-

كأن ثيبيرا في عرانيين وبله      كبير أناس في بجادٍ مزمل  
وقول ابن خفاجة عن جبل آخر مرّبه:

وقورٌ على ظهر الفلاة كأنه .      طوال الليالي مُفكير في العواقب<sup>(٧٨)</sup>  
يلوث عليه الغيم سودَ عائم      لها من وميض البرق حمر ذوائب<sup>(٧٩)</sup>

(٧٦) ديوانه ص ١١٨ .

(٧٧) الجميم: نبات ارتفع عن الأرض ولكن لم يتم نصحه .

(٧٨) ديوانه ص ٢٧ .

(٧٩) يلوث: يعصب - ذوائب: جمع ذؤابة وهى الشعر الثابت على الناصية .

أصحت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب  
فقال: ألاكم كنتُ ملجأ قاتلٍ ومواطن أوأوه تبثل تائب<sup>(٨٠)</sup>  
وكم مزي من مدلج ومؤوب وطارت بهم ريح النوى والنواب

فامرؤ القيس قد وقف عند حدود الشبه الظاهري بين جبل ممتد على جوانبه خطوط  
ملونة من أثر الزبد والغناء وشيخ كبير قد تزل في ثوب مخطط ، ولم يفكر أو يُعنى بما وراء  
ذلك ؛ لأنه مصور يرى أن واجبه قد انتهى عند هذا الحد . أما ابن خفاجة فقد تغلغل إلى  
ما وراء تلك الثياب الخارجية ، وتعمق فكر الشيخ ودرس مايجول به من خواطر وعبر ، أو  
يبدو عليه من وقار وتعقل ، وأخذ يستعيد معه أخبار من لجأ إليه من أختار وأشرار . ومن  
المثاليين السابقين نستطيع أن ندرك ما بين العقلتين من خلاف أما امرؤ القيس فأشبهه بالمرأة  
المصقولة تعكس الحياة والطبيعة في دقة وأمانة . وأما أبو تمام وابن خفاجة - والمحدثون من  
خلفها - فقد سلطا عليها أضواء قوية من فكرهما وخيالها ، فكشفا عن جوانب خفية ،  
لا يفتن إليها الفكر الجاهلي الساذج الذي لا عنى إلا بالجوانب الظاهرية للحياة<sup>(٨٢)</sup> وإن

شئت مزيدا من تلك الموازنات فاقرأ قول امرئ القيس أيضا في ليل طويل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى<sup>(٨٣)</sup>  
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل  
ألا أيها الليل الطويل انجلى بصبح وماالإصباح منك بأمثل  
وقوله في وميض البرق :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل

(٨٠) آواه: كثير الدعاء .

(٨١) مدلج: سائر بلبل- المؤوب: الذي يقضى النهار سائرا قال بظلي . استظل به وقت الظهيرة .

(٨٢) يؤيد ذلك عدم تغلغل الحرافة في آدابهم وعقائدهم ، كما ترى مثلا في الأمة اليونانية ، ولعل السبب

في ذلك وضوح الصحراء العربية مع غموض البحار المحيطة باليونان ، والتي تثير كثيرا من الفروض والأوهام كلما

ابتلعت طائفة من الراكبين على ظهرها . ومن آثار تلك النظرة السطحية عدم إيمانهم بالحياة بعد الموت ، كما ترى

في قول طرفة بن العبد :

أرى قبر نحام بنجيسل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليها صفائح صم من صفيح منضد

(٨٣) هذان اليتان ، وبيتا البرق من المعلقة ، وهي مشروحة شرحا جيدا .

يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السيط بالذُّبَال المقتل

ثم اقرأ بعقب ذلك قول القاضى التنوخى من رجال القرن الرابع :

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعَتْهُ بِصُدُودٍ وَفِرَاقٍ مَا كَانَ فِيهِ وَدَاعٍ<sup>(٨٤)</sup>  
مُوحَشٍ كَالثَّقِيلِ تَقْذَى بِهِ الْعَيْدِ وَنِوَانِي حَدِيثِهِ الْأَسْمَاعِ  
وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهِ سَنَنِ لَاحٍ بِسِينِهِنِ ابْتِدَاعِ  
مَشْرِقَاتِ كَأَنَّهُنَّ حَجَاجِ تَقْطَعُ الظَّلَامَ وَالْحَصْمَ انْقِطَاعِ

فامرؤ القيس حين صور طول الليل ولمعان البرق عرض ذلك عرضاً حسياً فشبهه الأول بموج البحر حيناً ، ويجعل جاثم على صدره حيناً آخر ، وشبه الثانى بمصباح راهب . أما التنوخى فقد ارتاد سماء جديدة ، وحلق فى آفاق بعيدة ، وترك الحسيات جانباً .

شبه الضوء الصادر من النجوم بالسنى حيناً وبالحنجج المشرقة حيناً آخر . ولسنا الآن بصدد بيان أجود الشعراء ، ولكننا نلفت الأنظار فقط إلى الفرق بين العقليتين والمنهجين .

وما أشبه الفرق بين الفريقين بالفرق بين الرجل الناضج والطفل الغرير<sup>(٨٥)</sup> أو بين العالم المثقف والأسمى الساذج . ولا عيب فى ذلك فالعصر الجاهلى يمثل مرحلة أولية من مراحل نمو الفكر الإنسانى ، بينما تمثل الحياة العباسية مرحلة أكبر نضجاً ورقياً ، وطبيعياً أن يترك ذلك أثره فى الشعر ، ولكن ليس معنى هذا دائماً تفوق الحديث على القديم إذ ربما مال بعض الناس إلى رؤية الطبيعة فى أثوابها الأولى دون تغيير أو تبديل<sup>(٨٦)</sup> وأمثال هؤلاء يطربهم الشعر الجاهلى .

(٨٤) يتيمة الدهر ٣٣٦/٢

(٨٥) أعتقد أن الشبه قوى بين مايوصى به علماء التربية من استخدام وسائل الإيضاح فى تعليم الطفل ، وبين ماشاع فى العصر الجاهلى من تصوير يقصد به الإيضاح كما ترى فى قول طرفه (ديوانه ٤٨)  
أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدث كما حاد البعير عن الدحض

(٨٦) بالقرب من لندن منطقة واسعة تركت للطبيعة تعمل فيها ماتشاء دون تدخل من جانب البشر ولما كانت تلك البلاد كثيرة الأمطار فإنك ترى فيها الأشجار الضخمة بجانب الحشائش القصيرة ، وربما رأيت شجرة تفاح أو كمثرى هنا وهناك ويقصد الناس تلك المنطقة لرؤية الحياة فى ثيابها الطبيعية ، ولكن يجب ألا ننسى أن للجانب الآخر شيعته الذين لا يرون فى عبث النسيم بأطراف الأغصان ، وما يصحب ذلك من موسيقى عذبة - شيئاً يلفت الأنظار ، أو يستهوى الأسماع .

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان التجارب النفسية وجدنا دقة التصوير أشد إمتاعاً من الجرى وراء الخيال كما ترى في قول عروة بن حزام .

كَأَنَّ قِطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفْقَانِ  
حين يوضع بجانب قول بشار:

كَأَنَّ فَوَادَةَ كُرَّةٍ تَرَامِي حِذَارَ السِّبِينِ لَوْ نَفَعَ الْخِذَارُ  
أو كما ترى في قول طرفة بن العبد يصف حبيته ونعومتها وإدلالها:

تَحْسِبُ الطَّرْفُ عَلَيْهَا نَجْدَةً يَالْقَوْمِي لِشَبَابِ الْمَسِيكِرِ  
حين يوازن بقول إبراهيم بن سيار في نفس المعنى:

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَآلَمَ خُدَّهُ فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظْرِي أَثْرٌ  
والسبب في ذلك أن عروة وطرفة قدما لنا في عبارة عذبة جميلة تجربة طالما أحسنا بها وعجزنا عن تصويرها ، وأعاد إلى أذهاننا ذكريات عزيزة ، مطرقة مثلاً قد أعاد إلى ذاكرتك صورة لفثاة مدللة أو كالمدللة ، مترفة أو كالمترفة ، طالما رفعت طرفها إليك في تناقل فعل المتأذى حتى بتلك الحركة الهينة ، والمجهود اليسير . أما بشار وابن سيار فلم يفعلوا شيئاً سوى الجرى وراء الأوهام .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن التصوير كما عرفناه في العهد الجاهلي نادر جداً في العصر العباسي ، ولا يأتي حين يأتي إلا وعليه مسحة من الحضارة الحديثة تجعل الفرق بينه وبين الجاهلي كبيراً . وتستطيع أن تطمئن إلى صواب هذا الحكم حين تضع قول أبي الطيب مخاطباً سيف الدولة ومشيراً إلى أعدائه .

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ نَثْرَةَ  
كما نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ  
أو قوله في الأسد:

يَطَأُ الثَّرَى مَتَمَهلاً مِنْ تَيْبِهِ فَكَأَنَّهُ آسٌ يَحْسُ عَلِيلاً  
يجانب قول طرفة:

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ  
خَشَاشُ كِرَاسِ الْحَيَّةِ الْمَتَوَقَّدِ  
أو بقوله:

أَبَا مَنْذَرَ رَمْتَ الْوَفَاءَ فَهَبْتَهُ  
وَحَدَّتْ كَمَا حَدَّ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ

فطرفة قد انتزع من بيئته أقرب صورها لتمثيل الحقّة والنشاط أو الإحجام والتردد غير متأتق ولا متوقّف . أما أبو الطيب فيختار أجمل الصور وأعذبها (٨٧) .

ومن هذا النوع القديم الذى يلتزم فيه أمانة النقل عن الطبيعة معظم ماجاء لأبي عبادة البحرى فى التصوير ، فهو من هذه الناحية بدوى يعيش فى المدينة أو جاهلى تأخر به الزمن إلى عهد بنى العباس (٨٨) ووصفه للبركة التى بناها المتوكل خير شاهد على ذلك . وإليك أبياتا منه :

ننصبُ فيها وفود الماء مُعجَلَةً كالخيل خارجة من حبل مجربها (٨٩)  
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاربها  
إذا علّتها الصّبا أبدت لها حُبُكاً مثل الجواشن مصقولا حواشيا  
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء رُكبت فيها

وما أظنك إلا ملاحظا تلك البساطة والسذاجة البادية على تشبيهاته فخياله فى البيت الأول أيسر متالا حتى من قول امرئ القيس :

كأن ذرا رأس المجيمر حوله من السيل والغناء فلكة مغزل  
أما فى البيت الثانى فهو يعيد عبارة يعرفها العامة قبل الخاصة حيث يشبهون الماء النقى دائما بأسلاك الفضة . وفى الثالث لم يزد على أن قلب قول عمرو بن كلثوم فى الدروع :

كأن غضونهن متون غدر تصفقا الرياح إذا جرينا (٩٠)  
أما من حيث البيت الأخير فلا فضل له إلا فى إقامة الوزن فأن قوة الشبه بين

---

(٨٧) قد ذهب عبد الله بن المعتز بأحمل مائى الشعر العباسى من تشبيهات تقرب فيها الصور من الأصل المقول عنه . وللمؤلف فيه بحث مفصل .

(٨٨) ومن هذا ترى أن إعجاب أنصار القديم من القاد به وقولهم فيه « إنه يحافظ على عمود الشعر » لم يكن لإقلاقه من البديع ؛ ويعدّه عن عريب المعانى فقط بل لأسباب كثيرة .

(٨٩) ديوانه ص ٣١٩ .

(٩٠) المعلقات .

الأجسام وخيالها في الماء أمر يدركه من لديه أدنى حظ من سلامة الملاحظة ولا أقول دقتها . ولا يسعنا أن نترك سدا الموقف دون أن نشير إلى ما كان من شأن التصوير في العهد الأموي . وأظننا لن نكون بمعزل عن الحقيقة إذا قلنا إن شعراء هذا العهد كانوا يسيرون في أعقاب الجاهليين . وقد اخترنا لك إحدى نقائض جرير لترى مدى إكثاره من ذلك التصوير الجاهلي الذي يهدف إلى نقل الحقائق دون مبالغة أو تزويد إلا ما تقتضيه ضرورة الإيضاح ، ودون جرى وراء الخيال ، أو تعمق لمظاهر الكون . وإليك بعض الأبيات التي اخترناها على غير ترتيب :

حور العيون يمسن غير جوادف	هزًا الجنوب نواعم العيّدان (٩١)
عطر الثياب من العبير مدبّل	يمشى الهوينى مشية السكران
صدع الطعائن يوم بنّ فؤاده	صدع الزجاجة ما لذلك تدان
من كل متنفخ الوريد كأنه	بغل تقاعس فوقه خرّجان
لاقوا فوارس يطعنون ظهورهم	نشطَ البزاة عواتقَ الخربان (٩٢)
ولقيت راية آل قيس دونها	مثل الجبال طُلين بالقطران
هزوا السيوف فأشرقوها منكم	وذوابلا يخطرن كالأشطان

---

(٩١) ديوانه ص ٥٧٠ - الجوداف . القصار - العيّدان : جمع عيدانة ، وهي النخلة الطويلة .  
(٩٢) النشط : الجذب - البزاة الصقور - الخربان : جمع خرب وهو الحيارى الذكر ، وعواتقها صغارها .  
أى فعلوا بهم كما تفعل الصقور بالخربان .



## العصر الرابع

الموسيقية :عرفنا أن الشعر الجاهلي يمتاز بالموسيقية ، وأن السبب الأول في ذلك أنه كان مسموعا ، فوجب أن يكون كذلك حتى يخف على الأسماع والقلوب . ومن الحق أن نقول : إن الشعر العربي في مجموعه قد احتفظ بهذه الموسيقية دون تغيير كبير إلا عند إمامي مذهب الطبع والصنعة ومن لف لفها ؛ حيث حرص الأول منها على تجويد موسيقى الشعر وتهذيبها ، بينما اضطر ثانيها إلى التضحية بها كما ضحى بالطبع في سبيل الصناعة اللفظية . وتفصيل ذلك أن البحترى وقد تخلف عن أستاذه ومعاصره أبى تمام في ميدان الفكر ، ولم يستطع أن يخلق معه في تلك السماء التي طالما حلق فيها ، أحب أن يحدث نوعا من التوازن بينه وبين ذلك العملاق ، فلم يجد أمراً أقرب إلى متناول يده ، أو أحب إلى نقاد عصره من تهذيب موسيقى الشعر ، فصرف إلى ذلك الأمر همه ، ومازال بشعره حتى بلغ في تلك الناحية شأوا عظيما .

وكان يعتمد في تحقيق تلك الموسيقية على اختيار أعذب البحور وأخفها . وكثيراً ما كان يجمع إلى ذلك خفة القافية وجهال حرف الروى فيختار قوافيه من بين المفردات التي تشتمل على حرف أو أكثر من حروف اللين ، حتى يسهل مرورها في الحلق ، ويحسن وقعها على الأذن . ثم لا يشغله شيء من ذلك عن بقية البيت بوجه عام ، فيختار مفرداته من أعذب الألفاظ وأرقها . ولا يكتفى بذلك حتى يتأكد أن كلا منها جديرة بأن تحسن جوار زميلتها حين تلتقي بها في عبارة ، أو تقيم معها في بيت . ونحن لا نشك في أنه كان يتمتع بأذن ذواقة ، وأنه كان يستغل تلك الموهبة إلى أبعد حدود الاستغلال ؛ وذلك بترديد البيت عدة مرات على مسامعه حتى يتأكد من خفته وسلاسته .

ومع أن الكلمة الأخيرة في عنوبة الألفاظ وثقلها ينبغي أن تترك لعلماء الأصوات الذين يستطيعون أن يبنوه على قواعد علمية تجريبية مفصلة ، فإن ذلك لا يمنعنا من القول بأن شيئاً غير قليل من ذلك تستطيع الفطر السليمة أن تدركه دون

عناء ، وإن لم تعرف له اسما ، أو تحفظ له قاعدة . وقد يما لاحظ النقاد شيئا من ذلك ، ومثلوا لتنافر الحروف والمفردات بقول امرئ القيس في شعر حبيته :  
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مُثَيٍّ ومرسل  
وقول الآخر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر  
وإليك أبياتا من إحدى مدائح البحري في المتوكل على الله ، يتمثل فيها ما قدمنا من خصائص شعره . وفيها يقول وقد بدأ مشبِّهاً :

عذيري فيك من لاح إذا ما	شكوتُ الحبَّ حرقني ملاما
فلا وأبيك ما ضيبت عهدا	ولا قارفت في حبيك ذاما
ألام على هواك وليس عدلا	إذا أحيت مثلك أن ألاما
لقد حرمت من وصلي حلالا	وقد حللت من هجري حراما
أعيدى في نظرة مستثيب	توخى الأجر أو كره الأثاما
ترى كيدا محرقة وعينا	مؤزقة وقلبا مستهاما
تئات دار علوة بعد قرب	فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا	فما يعتادنا إلا لاما
وربة ليلة قد بت أسقى	بعينها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتاقا	وأفنيناهما ضما والتزاما

ويترك النسب إلى المديح فيقول :

مخالف أمركم لله عاصي	ومنكر حقكم لاق أثاما
وليس بمسلم من لم يقدم	ولا يتكم وإن صلي وصاما
شهرتم في جوانب كل ثغر	ظبات البيض والأسل المقاما
وأقدمتم وفي الإقدام كره	على الغمرات تُقتحم اقتحاما
أمين الله دمت لنا سليا	وملئت السلامة والدواما
أرى المتوكلية قد تعالت	محاسنها وأكملت التماما

قصور كالكواكب لامعات يكدن يضئن للسارى الظلاما  
 أما أبو تمام فيصدر عن ذوق وعقلية مغايرة تمام المغايرة لصاحبه ؛ فقد وضع  
 نصب عينيه جودة المعانى وغرابتها من جهة وازدحام المحسنات البديعية التى قد تجف  
 حتى تشبه العمليات الحسابية من جهة أخرى ، وترك عذوبة اللفظ وجمال الموسيقى  
 تأتى فى المؤخرة ، وهكذا يمكن أن تقول إنه لم يكن يحفل بها إلا بقدر ما كان أهل  
 الطبع يحفلون بالمحسنات البديعية ولذا جاءت معظم أشعاره ثقيلة على الأسماع  
 والألسنة . وسنذكر لك هنا أبياتا من إحدى قصائده المشهورة ، قالها فى رثاء محمد  
 بن حميد الطوسى :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفصّ ماؤها عذر<sup>(٩٣)</sup>  
 تُوفيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السّفَر السّفَر  
 وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خُلِقُ العسر  
 ألا فى سبيل الله من عَطَلت له فجاج سبيل الله واثغر الثغر  
 وفيها يقول :

وقد كانت البيض المآثير فى الوغى بواطر فهى الآن من بعده بُتر  
 أمن بعد طيّ الحادثات محمداً يكون لأثواب الندى أبداً نشر  
 إذا شجرات العرف جُدّت أصولها فى أى فرع يوجد الورق النضر  
 لئن أبغض الدهر الخثون لفقده لعهدى به يُحَبُّ له الدهر

والأبيات تعلن عن نفسها فى وضوح فكثرة الجناس والطباق مع البناء  
 للمجهول ، قد أساء إلى الموسيقى كثيراً :

على أن لأبى تمام أبياتا تجعل المرء يجزم بأنه كان يتحدى الذوق العام والأوضاع  
 الموسيقية أحياناً كقوله فى ابتداء إحدى قصائده :

قَدْكَ انْتَبَّ أربيت فى الغلواء كم تعذلون وأتم سجرائى<sup>(٩٤)</sup>

(٩٣) ديوانه ص ٣٦٨ .

(٩٤) ديوانه ص ٢ .

وكقوله :

قوت بقرآن عين الدين وانشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطلم<sup>(٩٥)</sup>  
وكقوله لبعض ممدوحيه :

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون<sup>(٩٦)</sup>  
حُدَيْتَ حذاء الحضرمية أرهفت وأجابها التخصير والتلسين  
وقد تعجب حين تراه يشبه قصائده بالأحذية ، كأنما عجز عن أن يجد لها شبا  
خيراً من ذلك ، لكن رويداً فإنه يشبهها في مكان آخر بما هو شر من ذلك ، وأشد  
وقعا على أذن الممدوح فيقول :

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب<sup>(٩٧)</sup>  
ويقول في رثاء بني حميد :

لو خر سيف من العيوق منصلتا ما كان إلا على هاماتهم يقع  
وما أعظم الفرق بينه وبين قول كعب بن زهير الذي نسج على منوال قوله :  
لا يقع الطعن إلا في نحرهم وما لهم عن حياض الموت تهليل  
ويقول في أحد ممدوحيه :

هو الهام هو الموت المريح هوال م حتف الوحي هو الصمصامة الذكر<sup>(٩٨)</sup>  
أخذه من قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذورهج كأنه أجل يسعى إلى أمل  
وتورط أبي تمام في هذه الغرائب وغيرها من أمور يأبأها الحس المرهف يرجع إلى

(٩٥) ديوانه ص ٢٢٩ .

(٩٦) ديوانه ص ٣٣٠ .

(٩٧) ديوانه ص ٢٩ .

(٩٨) ديوانه ص ١٥٠ . والوحي على وزن غنى السريع .

تغلب الناحية الفكرية على غيرها من نواحي الشعور ؛ فإن قوة إحدى هذه النواحي كثيراً ما يكون على حساب الأخرى (٩٩) .

واستخفاف أبي تمام بالذوق العام ، على نحو ما بدا في الأبيات السابقة ، ومخالفته طريقة الأوائل ، وإسرافه المزرى في المحسنات ، يهدينا إلى الفكرة المسيطرة عليه وعلى كثير من شعراء العصر العباسي ، ألا وهي الاعتقاد على الرأي الشخصي ، وعدم التقيد بالتقاليد الموروثة ، أو الوقوف عند السماع .

وهو وأصحابه في هذا يشبهون أهل الكوفة بين النحويين ، والمعتزلة في المتكلمين ، وأبا حنيفة مع الفقهاء . ومن هذا نرى أن التقليد والتجديد أو التبعية والتحرر لم تظهر آثاره في ميادين الأدب وحدها ، بل شملت أنواع النشاط الفكري المختلفة . فهي إذن ثورة فكرية عامة أعان عليها ، ومهد لها تطور المجتمع . وهي لذلك تذكرنا بالثورة الرومانتيكية في الآداب الأوروبية ؛ فهي تشبهها من حيث إنها صدى لتطور الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وتشبهها من حيث إن كلا منها حاولت التحرر من كل ما هو قديم ، سواء في ذلك لغة الشعر ومعانيه ، أو دوافعه وأغراضه .

وإذا كان أبو تمام قد مثل الذروة العليا لتلك الثورة ، فإن له سلفاً مهدوا لها . وكان لكل منهم لونه الخاص . فبشار بن برد أول من أصاب عناصر الشعر القديم في الصميم ، فلم يحفل بدقة التصوير ، ولم يلتزم الحقيقة فيما يقول ، ثم ذهب بعد ذلك بوقار الشعر العربي في غزله وهجائه .

وقد كان أبو نواس يشبهه في مهاجمة الذوق العام ؛ حيث أسرف في الحديث عن الخمر والغلمان ، ثم رفع لواء الثورة على بناء القصيدة العربية أما أبو العتاهية فحاول تيسير لغة الشعر والميل به نحو العامية .

ومسلم بن الوليد هو واضح أسس الطريقة التي اتجهها أبو تمام فيما بعد ، وأهم

---

(٩٩) ينقسم الشعور إلى فكر ووجدان وإرادة . وموقف أبي تمام هنا شبيه بموقف شوقي في ذكرى شكسبير ، حيث شبه جمجمته بأصيص أزهار ، ولسانه بذبذب عقرب إلى آخر ما ذكره هناك .

ما تمتاز به العناية بالبديع من جهة ، والغوص على المعاني من جهة أخرى .  
وهذا الاختلاف بين قادة الثورة هو سر ما نراه من خلاف بين مؤرخي الأدب  
حين يحاولون البحث عن زعيمها ، ومرسل الصيحة الأولى فيها ، قترامهم يجعلون  
بشارا زعيم المحدثين جميعاً حيناً ، وأبا نواس حيناً آخر ، أو يتخطونها معاً إلى مسلم  
وأبي تمام ، لأن مذهبها متشعب النواحي ، واضح المعالم والرسوم .  
ولعل السرفى لإغفالهم بشاراً أحياناً أن نواحي التجديد عنده لم تكن واضحة في  
أذهان معظم النقاد الذين لم يحاولوا أن يتعرفوا على عناصر الشعر القديم ، ويعرفوا  
موقف زعماء المحدثين منها .

ومن هذا أيضاً تعرف السرفى تعصب أنصار القديم للبحترى ، رغم تأخر الزمن  
به ، وجعلهم آياه زعيم أهل الطبع ، مع أن أبا العتاهية وبشاراً يشاركانه فيه . وما  
ذلك إلا لأن كلا من الأخيرين وإن حافظ على أهم عناصر الشعر القديم ، وهو  
الجريان مع الطبع ، قد خالفها في أمر أو أكثر ، أما البحتري فكان صورة من  
القدماء ، لا تكاد تختلف عنهم إلا بقدر ما تمليه الضرورة من أمور لا تمس أصول  
الشعر العربي التي أشرنا إليها .

وكأني بالقارئ يسأل نفسه - وقد فرغ من أمر القدامى والمحدثين - عن أشعر  
الفريقين ، وأعذب الشعريين . ومن حقه أن يسأل هذا السؤال . ومن منا لا يسأل  
نفسه من حين لآخر ، وبمناسبة أو أخرى عن أشد عصور الشعر العربي ازدهاراً ،  
وهل هو الجاهلي ، أم الأموي ، أم العباسي . وعن أمير شعراء العربية ، وهل هو  
امرؤ القيس ، أم جرير ، أم المتنبي .

وجواب هذا السؤال أن لكل من القديم والجديد مزاياه ، والفرق بينهما أشبه  
بالفرق بين فن البناء قديماً وحديثاً . فالأول يمتاز بالبساطة والرحابة ، والثاني بالدقة  
والتعقيد . وكل طراز صالح لعصره ، مناسب لظروف أهله . فنحن نعجب ببساطة  
الشعر القديم وقصده ، ووضوحه وتناوله الأمور من أقرب الطرق وأيسرها على  
القارئ والسامع ، وقارئ الشعر الجاهلي أشبه براكب المطية الذلول ، أو البحر  
المهادئ .

أما الشعر الحديث فإنه يهز نفوسنا ، ويهز أعيننا بما فيه من معانٍ بدیعة ، ونظرات عميقة ، وفهم تام للحياة والأحياء حين تتوفر له جودة العبارة ، وعدوية اللفظ ، ويسعفه الطبع السليم . ترى شيئاً من ذلك لبشار وابن الرومي وأبي نواس وأضرابهم كما ترى كثيراً منه عند أبي الطيب ، وقدراً صالحاً عند أبي تمام ، فإذا تعقّد لفظه ، واضطربت عبارته ، وخنق أنفاسه كل غث ومتكّلف من البديع ، ذهب حلاوة المعنى وجمال الفكرة .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن شعر القدامى ومعهم أهل الطبع من المحدثين كالبحتري ، يخلق فوق رؤوسنا حتى نكاد نلمسه بأيدينا ، ولكنه لا يتهافت تحت أقدامنا . أما أبو تمام وأشباهه فيصعدون أحياناً إلى أوج السماء ، ويسقطون أطواراً إلى أعماق الأرض .

والآن وقد استعرضنا عناصر الشعر الأربعة ، وعرفنا أهم ما أصابها من تطور في العصر العباسي ، نحب أن نلفت الأنظار إلى أحد الأمور الهامة التي يمكن بمساعدتها أن نميز بين القديم والحديث من الشعر . ونعني به شيوع مظاهر الترف والحضارة في الشعر الحديث ، ويقابل ذلك في القديم سيطرة الحياة البدوية عليه . بحيث لا يكاد القارئ يخطئ وهو يقرأ في الشعر العربي ما إذا كان يقرأ لتقديم أم محدث .

وإذا أحببت أن تتأكد من هذا ، فاقراً قول الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ثرة من جذبها بالعصائب

ثم اقرأ بعقبه قول ابن المعتز في موقف مشابه للسابق :

والريح تجذب أطراف الرداء كما أفضى الشفيق إلى تنبيهه وسنان (١٠٠)

فالظروف التي أوحى بالبيتين واحدة . ألا وهي عبث الريح بأطراف ثياب هذا الشاعر أو ذلك . ولكن كلا منهما يفسر هذا العمل في ضوء تجاربه الخاصة . فالفرزدق الذي قضى حياته في منازعات مستمرة مع جرير وغير جرير من الشعراء . بل واشترك بطريق مباشر أو غير مباشر في حروب تميم مع غيرها من

قبائل البدو يرى في جذب الريح لطرف عصابته نوعا من الخصومة . أما ابن المعتز فيتذكره موقفا كريما ، وهو موقف الحواضن والخدم وهم يوقظونه في رفق ولين .

وشبيه بهذا قول طرفة ويشار في الغناء والحديث . قال الأول في قينة :  
إذا رَجَعْتُ في صوتها خلتَ رَجَعَهَا      تجاوب أظَارَ على رُبُع رَدِي  
وقال الآخر :

وكان رجع حديثها      قِطَع الرياض كُسين زهرا  
فطرفة يتخير أقرب الأشياء إليه وأشدها شبيها بترجيع القينة ألا وهو تجاوب النوق المرضعات حين تفقد أحد فصلاتها . بينما رأى بشار في أحاديثها شبيها من الرياض والأزهار ؛ لما في كل منها من جمال وجملة .

وينبغي ألا تنسى أن سلطان الزمن والبيئة على الشاعر أقوى من أن يقاوم ؛ فهذا عبد الله بن المعتز يحاول في بعض قصائده أن يتشبه بالأوائل فيقول معارضا لييدا :

أذلك أم قرد بقضر أجاده      من الغيث أيك فرعه قد تهللا (١٠١)  
لدى ليلة خوارة المزن كلما      تنفس في أرجائها البرق أسبلا  
كان عليه من سقيط قطارها      جانا وهت أسلاكه ففتصلا  
فبات بليل العاشقين مسهدا      إلى أن رأى صباحا أغر محجلا  
فنفض عن سرياله لؤلؤ الندى      وآيس ذعرا قلبه فتأملا (١٠٢)

وأظن أن البون شاسع بين هذه الأبيات وتلك التي قالها لييد في ناقته فاللؤلؤ والجمان وليل العاشقين الطويل وسهادهم أمور ما كان لها أن تعرف الطريق إلى نور الوحش الذي يتحدث عنه ابن المعتز ، فالوقوف عصيب لا يَحتمل كل تلك الرقة ،

(١٠١) ديوانه ص ٢٨١ .

(١٠٢) وازن بين هذه الأبيات وبين قول لييد في معلقته :

أفنتلك أم وحشية مسبوعة      خذلت وهادية الصوار قوامها

وما بعدده .



حشمن لا يتسع لكل ذلك الترف ولكن الأمير العباسي رجل مترف ، فلا بد أن تخونه عباراته ، وتم عنه لغته شاء أم لم يشأ .

وإذا كانت شخصية ابن المعتز وعصره بأبيان أن يستترا حتى حين يريد أن يخفيها ، فأنهما يظهران بوضوح تام حين يرسل نفسه على طبيعتها . وهذا هو السبب فيما اشتهر به من جبال التشبيهات ونبلها . فالقارئ لقوله :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الخندسا  
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجا الترجسا

لا يشك في أنه يقرأ لشاعر عباسي . كما أن القارئ لمثل قول زهير :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يُضَرَّسُ بأنياب ويوطأ بمنسم  
ومن لم يندُ عن حوضه بسلاحه يُهدَّمُ ومن لا يظلم الناس يُظلم

يدرك من أول نظرة أنها لشاعر بدوي :

وما ذلك إلا لأن المناجل الفضية لا يمكن أن تخطر ببال البدوي ، كما أن الأنياب والمناسم ، وأحواض المياه والدفاع عنها بجد السيوف والدعوة إلى التظالم من شأن الجاهلية الأولى وضروراتها .

## الفصل الرابع

### استرداد الشعر العربي لحرته

خرج أبو تمام من المعركة التي نشبت بينه وبين أنصار القديم منتصرا أو كالمنتصر وصار له مذهب عرف به ، ونسج على منواله بعض فحول الشعراء كابن المعتز ، بل والمتنبى في مبدأ حياته الشعرية ولكن الأخير لم يلبث أن ثار عليه ، وحرر نفسه ، بل والشعر العربي منه أيضا .

وقد أدهشنا<sup>(١٠٣)</sup> أن نرى صاحب «الفن ومذاهبه» قد وضعه في مكان غير لائق به ، حيث جعله رأس جماعة من الشعراء ظهرت في القرن الرابع الهجري «وأخذت تعيد وتبدئ في الخواطر المسبوقة والأفكار المطروقة ، ثم هي تعقد في الألوان والأصباغ القديمة ؛ إذ تستعين بوسائل من التكلف للثقافة . فليس فيها نقش ولا زخرفة إنما هي أشياء غريبة عن الفن لا تفصح عن وجدان ، ولا ثراء في الألوان ، ولذا جاء جاهلها مملأً ينقصه الروعة الفنية<sup>(١٠٤)</sup> .

وقد استدل الزميل على دعواه بعد أبيات تثبت تصنعه للثقافات المختلفة كمصطلحات الصوفية وعبارتهم ، وللأفكار الفلسفية . ومن ذلك قوله مشيرا إلى فكرة التجلي :

تجلى لنا فأضآنا به كأننا نجوم لقينا سعودا  
أو فكرة الخال كما في قوله :

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد في كل حال  
وكقوله مثيرا إلى قول أرسطو في الحكمة : «قد يفسد العضو لصلاح أعضا» .  
لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

---

(١٠٣) قد يعجب القارئ لطول تتبعنا للزميل الدكتور شوقي وإشارتنا الكثيرة إلى كتابته ولكن ماذا نفعل ، وقد كتب خير ما كتب في الموضوع وإن خالفنا ونخالفناه أحيانا ؟ والمرء يشعل نفسه دائما بأهم ماسبقه من بحوث أو باحثين .

(١٠٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ١٧٨ .

ثم يأخذ عليه أبياتا أخرى مثل قوله:  
ولك الزمان من الزمان وقابة ولك الحمام من الحمام فداء  
وقوله:

أسنى على أسنى الذى دهنتى عن علمه فيه على خفاء  
ورأيتنا أبا الطيب رغم هذه الأبيات وغيرها أقل تصنيعا وتصنعا من أبي تمام  
فشعره ليس تليقا أو تعقيدا ، بل ولا امتدادا لشعر أبي تمام ، وإنما أبي الطيب  
يرجع الفضل الأول في وقف تيار هذا المذهب الغريب على الشعر العربي والعقلية  
العربية .

وتسألنى بعد ذلك . ما بال هذه الأبيات التى مرت منذ قليل ، وظاهرها  
التصنع والتعقيد ، ويجانبها عدد غير قليل لمن تتبع شعر أبي الطيب ؟ والجواب  
على ذلك أن هذه الأبيات لا تمثل شعر المتنبي ، فقد قالها محاكيا أبا تمام ؛ لأن  
الآخر كان أقرب الفحول المحدثين إليه وأعظمهم ذكرا<sup>(١٠٥)</sup> ولكن طبيعة المتنبي  
المتنرد الجاحمة ما كانت تستكين لقيود الصنعة أو تصبر على الرسف فى سلاسلها  
طويلا ؛ ولذا كانت تثور عليها فتحطمها ثم تنطلق على طبيعتها غير حافلة إلا بما  
جاء عفوا ودون عناء .. ويذكر الدكتور عبد الحميد يونس أن أبا الطيب حاول  
أن يسلك مسلك أبي تمام فوجده صعبا وعر المسالك فتحول عنه إلى  
غيره<sup>(١٠٦)</sup> وليس الأمر كما ذكر ، بل أعرض عنه للأسباب التى أشرنا إليها .  
فن الظلم إذن لأبي الطيب ، بل ولأى شاعر آخر ، أن نأخذ البيت أو  
البيتين نتصيدا من هذه القصيدة أو تلك ، ألا ترى أن بالعتابه يقول:  
الدهر ذو دول ، والموت ذو علل والمرء ذو أمل والناس أشباه<sup>(١٠٧)</sup>

---

(١٠٥) ربما كان من تمام الفائدة أن تذكر أن القصيدة الممزجة التى أكثر حصوم أبي الطيب من الإشارة  
إليها ، والتي ذكرنا بعض أبياتها منذ قليل قد أرسل بها الشاعر إلى أديب مثله هو أبو على هرون بن عبد العزيز  
الأوارجى الكاتب . ولغة العلماء والأدباء فيما بينهم دائما غير لغتهم حين يتحدثون إلى الجمهور ومن يدرى لعل  
الأوارجى هذا كان مولعا بالتعقيد مقتونا بهذا النوع من الشعر فأحب أبو الطيب أن يزيده مه .

(١٠٦) مقدمة ديوان أبي تمام لإخراج مطبعة صبيح .

(١٠٧) ديوانه ص ٢١٢ .

ولم تنزل عبر فيهن معتبر يجرى بها قدر والله أجراه  
يبكى ويضحك ذو نفس مصرفة والله أضحكه والله أبكاه  
ومع ذلك لاندخله في رجال الصنعة ، لأنه قالها لغرض خاص (١٠٨) وخرج  
فيها عن طبعه وطابعه العام .

والمنهج السليم إذن أن نتخير قصيدة أو بعض قصيدة لكل من الشعارين تمثل  
طابعه العام ثم نوازن بينهما من حيث شيوع البديع وغير البديع من خواص  
المذاهب الحديثة فيها وعدم شيرعه .

وقد استعرضنا نتاج كل من الشعارين لاختيار نماذج للموازنة فوجدنا أن  
شعر أبي تمام يكاد يكون في مستوى واحد من حيث الحرص على تقاليد مذهب  
الصنعة والتكلف ، أما المتنبي فيمكن تقسيم شعره إلى قسمين أحدهما على مذهب  
أبي تمام ، وثانيها قاله وهو مشغول بنفسه أو كالمشغول ، معني<sup>٤</sup> بآماله وآلامه أو  
كالمعنى ، وهو قدر لا يقل عن سابقه ، وقد أرخى فيه لنفسه العنان وابتعد كثيراً  
عما تقتضيه الصنعة من تكلف وتعقيد وتصنع وتصنيع ، فكان كالبركان اللائر  
يرسل الحمم دون طويل فكر أو مراجعة . وسنبداً بذكر أبيات له تمثل النوع ،  
وتضع يازاتها أبياتا لأبي تمام كي يتضح وجه الشبه أو الخلاف بينهما . ثم نذكر  
بعد ذلك هذا النوع الذي انفرد به أبو الطيب .

وقد اخترنا لهما قصيدتين حيث قيلت كل منهما في مدح ملك أو أمير مع  
التعرض لتنكيله بخارج عليه وكافر بنعمته مكتفين بقدر كاف من كل منهما .  
قال أبو الطيب يمدح سيف الدولة ويذكر إيقاعه ببعض الخارجة عليه .  
طوال قناً تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى بجار<sup>(١٠٩)</sup>  
وفيك إذا جنى الجاني أناة تُظن كرامةً وهى احتقار  
وَأَخَذُ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بَضْبَطٍ لَمْ تُعَوِّدُهُ نَزَارِ

(١٠٨) يظهر أنه كان يعارض بها قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسى إلى أمل

حيث تحده أن يقول مثلها كما ورد في الأغاني ج - ٣ - ص ١٣٩ .

(١٠٩) ديوانه - ٣ - ص ١٠٠ .

تَشَمُّهُ شَمِيمَ الوحشِ إنسا  
وما انقادت لغيرك في زمان  
فقرحت المقاد ذفريها  
وأطمع عامر البُقينا عليها  
وغيَّرها التراسل والتشاكى  
وكانت بالتوقف عن دارها  
وكنتَ السيف قائمه إليها  
فأمست بالبُدَيَّة شفر تاه  
وكان بنو كلاب حيث كعب  
تَلَقَّوْا عَزَّ مولاهم بذل  
فأقبلها المروجَ مَسوماتٍ

أما أبو تمام فيقول مادحا المعتصم ومشيراً إلى حرق الأفشين .

الحق أبلج والسيوف عوار  
ملك غدا جار الجلافة فيكم  
يارب فتنة أمة قد بَزَّها  
جالت بخيذر جولة المقدار  
كم نعمة لله كانت عنده  
كُسيبتُ سبائبِ لؤمه فتضاءلت  
موتورة طلب الإله بثأرها  
صاды أمير المؤمنين بزبرج  
مكرا بنى ركنيه إلا انه  
حتى إذا ما الله شق غباره

(١١٠) ذفريها: مثنى ذفري وهي العظم الذى خلف الأذن .

(١١١) التلبب: التشمير للحرب .

(١١٢) الشيار ضد الهزال .

(١١٣) صدى: دارى . زبرج: زينة: حمة: الإبرة التى يلدغ بها قطب العقرب الشجام: الثعبان .

ونحا لهذا الدين شفرته انثنى  
 هذا النبي وكان صفوة ربه  
 قد خص من أهل النفاق عصابة  
 واختار من سعد لعين بنى أبي  
 حتى استضاء بشعلة السور التي  
 أما أبيات المتنبي التي تمثل الشطر الثاني من شعره فهي :

عيد بأية حال عدت يا عيد  
 أما الأحبة فالبيداء دونهم  
 لولا العلاء لم تجب بي ما أجوب بها  
 وكان أطيب من سني مضاجعة  
 لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى  
 ياساقبيٍّ أخمر في كئوسكما  
 اصخرة أنا مالى لا تحركنى  
 إذا أردت كميت الخمر صافية  
 ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها  
 أمسيت أروح مثر خازنا ويذا  
 إني نزلت بكذايين ضيفهم  
 جود الرجال من الأيدى وجودهم  
 ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم  
 من كل رخو وكاء البطن منفتق

والحق منه قاني الأظفار  
 من بين باد في الأنام وقار  
 وهم أشد أذى من الكفار  
 سرح لوحى الله غير خيار  
 رفعت له سجفًا عن الأسرار

بما مضى أم لأمر فيك تجديد  
 فليت دونك يبدأ دونها بيد  
 وجناء حرف ولا جرداء قيدود  
 أشباه رونقه الغيد الأماليد  
 شيئا تيممه عين ولا جيد  
 أم في كئوسكما هم وتسويد  
 هذى المدام ولا تلك الأناشيد  
 وجدتها وحييب النفس مفقود  
 أنى بما أنا باك منه محسود  
 أنا الغنى وأمولى المواعيد  
 عن القرى وعن الترحال محدود  
 من اللسان فلا كانوا ولا الجود  
 إلا وفي يده من نتنها عود  
 لافى الرجال ولا النسوان معدود

وأظن أن القارى الكريم بعد الموازنة بين الشعرين سيوافقنا على أن أتهم أبي الطيب بالتلفيق والعيش على تراث الأوائل مع الخلو من الروعة الفنية فيه حيف شديد عليه ، ومع أن قئ قصيدته الأولى بديعا لا يقل عما لصاحبه ، فإن بديع أبي الطيب تتطلبه المعانى فى إلحاح . ألا ترى أن وضع طوال القنا مع القصار ، والكرامة بجانب الاحتقار وقائم السيف بأزاء حده والغرار ينسجم انسجامًا تاما مع غرض القصيدة وهو الحرب والنضال .

فأين من هذا ما تراه عند أبي تمام من وضع الجبار بجانب الجبار والثار بعد الثار ماذا يقصد بهذا ، أيريد أن يجعل منها جناسا ؟ لقد رجعنا إلى شرط الجناس فرأينا أن

تكرار الكلمة بلفظها ومعناها كما هي الحال هنا ليس من الجناس في شيء ، بل لا بد أن يختلف المعنى إذا اتحد اللفظ كما هو الحال في كلمة إياه من قول المعري . فإن إياه الليث ما حل أنفه بأن محلات الليوث إياه أو يختلف اللفظان في الاشتقاق إذا اتحد المعنى كما ترى في لفظي حل ومحلات من البيت السابق .

أما هذا التكرار فليس من الجناس في شيء<sup>(١١٤)</sup> ومع ذلك يصر عليه أبو تمام ويكثر منه كأن ولوعه بالصورة اللفظية أغراه بالاكثار حتى مما لا خير فيه وقد كان العرب يفعلون ذلك ولكن لفائدة كما في قول مالك بن الربيع لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى مزار ولكن الغضى ليس دانيا فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا فإنه إنما فعل ذلك حين حضرته الوفاة فحن إلى موطنه في بلاد العرب . ولهذا الكلمة في قلبه وحياته وضع خاص وارتباطات كثيرة وذكريات عزيزة لأنها موطنه ، وطبيعي أن يحن إليه في اللحظات الأخيرة من حياته ولذا لا نجد بأسا في تكرارها . ومع أن النقاد يأخذون على الأعشى قوله<sup>(١١٥)</sup> وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مثل شلول شلشل شول لانحد منى الصفات الأربعة الواردة بعد شاو وتقارب لفظها ، فأنا نعتقد أنه فيها خير ألف مرة من أبي تمام في قوله :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل فيك إلا بالرضا لأن التكرار عند الأول له دوافعه النفسية فالأعشى سكيرو حريص على أن يكون الشواء نشيطاً خفيفاً ، الحركة حتى لا ينغص عليه لذة الخمر بطول انتظار الشواء . أما أبو تمام فلا هدف له من هذا التكرار سوى الزخرف اللفظي . ويمتاز الأعشى بأمر آخر ، ذلك أن التكرار عنده استوفى شرط الجناس ، وهو اختلاف الألفاظ من حيث الاشتقاق .

فإذا ما ولينا وجهنا شطر النوع الثاني من شعر أبي الطيب وجدنا له قصائد كثيرة يمكن أن توضع بجانب الدالية السابقة ونذكر على سبيل التمثيل :

(١١٤) المثل السائر لابن الأثير ص ١٥٦ .

(١١٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢ .

واحر قلباه ممن قلبه شم ومن بجالى وجسمى عنده سقم  
وقوله :

ملومكما يجلى عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام  
وقوله :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلاً تهب اللثام  
وقوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم  
وقوله :

فدينك من ربيع وإن زدتنا كربا فأنت كنت الشرق للشمس والغربا  
وقوله :

كم قتيل كما قتلت شهيد بياض الطلى وورد الحدود

على أن هناك أمراً خطيراً ينبغى أن نغطن إليه ، وذلك أن قصائد أبى الطيب حتى  
المعروفة بغرابتها لا تخلو من أبيات وهاجة ترسل ضوءاً قويا يشغلنا عما حوله من غرابة  
ويغرينا بمتابعة القراءة حتى النهاية . ومثال ذلك قصيدته الهمزية التي يرى فيها الدكتور  
شوق صورة واضحة للتعقيد ، ألا ترى أن قوله :

مثلت عينك في حشاي جراحة فتشابهها كلتاهما نجلاء  
كاف لأن يدفعنا لاغتفار ما عساه أن يأتي بعده من سيئات . بل دعنى أتقدم  
معك إلى هذه الأبيات التي نأخذها عليه مثل قوله :

ولك الزمان من الزمان وقاية ولك الحمام من الحمام وقاء  
قل فيها ووخذ عليها ما تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تقول إنها ميتة ينقصها  
الحياة والحركة ، وهذا يكفيننا . دعها تثيرنا ضد الشاعر أو ضد أنفسنا ، أو تثير  
الخصومة بين بعضنا وبعض كما توقع هو ، فأنها في جميع هذه الحالات ستبعث فينا  
الحياة والنشاط . ومهما يكن من أمر فأنها خير من قول أبى تمام في عياش بن لهيعة :  
مقابل في ذرا الأذواء منصبه عيصا فعيصا وقد موسى فقد موسى  
الواردين حياض الموت متأقة ثباً ثباً وكراديسا كراديسا  
نموك قنعاس دهر حين يحزنه أمر يشاكه آباء قناعيسا  
وبعد فهل آمنت معى بأن الحكم على الشاعر اعتماداً على عدة أبيات منتزعة من  
أما كتبها انتزاعاً قد لا يؤدي إلى سلامة الأحكام وسدادها . بل أرجو ألا أكون متهماً



بالتطرف والاسراف إذا قلت : إنه لا يصح إصدار حكم من الأحكام العامة على شاعر من الشعراء اعتمادا على قصيدة بعينها ، بل ينبغي أن نختار قصيدة تمثل مذهب الشاعر أتم تمثيل . ألا نرى أننا لو اخترنا للموازنة بين مذهب أبي تمام وأبي الطيب قول الأول بمدح عياش بن هبة (١١٦)

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا  
ووضعنا بأزائه قول أبي الطيب في مدح سيف الدولة وعتابه :

واحر قلباه ممن قلبه شم ومن بحالى وجسمى عنده سقم  
لكان تزيدا على أبي تمام لأنه أكثر من البديع فيها إلى حد الابتدال  
ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن الأحكام ينبغي أن تبنى على الكثير الغالب ، وأن  
الاعتماد على الأبيات المفردة يؤدي إلى فسادها ، أن العمل بغير ذلك يكاد ينقض  
رأى الزميل نفسه ، ألا تراه يجعل قول المتنبي :

أعدى الزمان سخاؤه فسخابه ولقد يكون به الزمان بخيلا  
بعد قول الطائي :

هيات أن يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل  
دليلا على جمود الشعر ونضرب معينه ، بحيث صار الأواخر يعيشون على تلفيق  
أشعاد الأوائل ، مع أن لأبي تمام ما هو شر من ذلك ألا تراه يقول متغزلا .  
ملظومة بالورد أطلق طرفها في الخلق فهو مع المنون محكم (١١٧)  
بعد قول إبي نواس :

تبكى فتدري الدر من نرجس وتلطم الورد بعنان (١١٨)  
إلى غير ذلك من الأمثلة التي لا يتسع لها المقام . وتختلف الطائي ظاهر ؛ فاستعمال  
ملظومة على هذا الوجه ، والربط بين طرف الحبيبة والموت على هذه الصورة بأبأهما  
الدوق السليم . فهل يفهم من هذا أن أبا تمام أيضا كان ملفقا ، أم أن للشعراء  
سقطات من حين لآخر ، لا يختص بها أحد دون سواه (١١٩) .

(١١٦) ومع ذلك لمانع من ذكرها حين نذكر للمتنبي أسوأ شعره .

(١١٧) الموازنة ص ٤٣ .

(١١٨) نفسه .

(١١٩) إن خير وسيلة لإصدار أحكام دقيقة على الشعراء ، هي اتباع طريقة الإحصاء التي يدعو إليها الأستاذ رجب ، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أكسفورد . وقد طبق أصول هذه الطريقة زميلنا الدكتور عبد العزيز عتيق على أبي فراس الحمداني في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها إلى جامعة أكسفورد .

أما أبو العلاء فشعره نوعان ، قال أولها في صباه ، واحتذى فيه أبا الطيب حتى يكاد يكون صورة منه في كل شيء وبخاصة في الفخر بنفسه والتحامل على المنافسين من الشعراء . وأكبر الظن أن هذا التحامل ليس إلا عدوى وصلت جراثيمها إليه من أستاذه ومثله الأعلى ، والقارىء لقوله :

رويدك أيها العاوى ورائى لتخبرنى متى نطق الجهاد<sup>(١٢٠)</sup>  
سفاه ذاد عنك الناس حلم وغى فيه منفعة رشاد  
أأحمل والنباهة فى لفظ وأقر والقناعة لى عتاد  
أو قوله :

باى لسان ذامنى متجاهل علىّ وخفق الريح فى ثناء<sup>(١٢١)</sup>  
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء  
ومن هو حتى يحمل النطق عن فى إليه ويمشى بيننا السفراء  
ولمى لثر يابن آخر ليلة وإن عزّ مال فالقنوع ثراء  
والقارىء لها ولأمثالها يدرك قوة الشبه بينها وبين شعر أبى الطيب وقد جمع كتابه سقط الزند هذا القسم من الشعر .

وهناك نوع آخر قال بعد أن زهد فى الناس واعتزلهم فى بيته وضمّنه تأملاته فى الحياة ، ونصائحها للأحياء ، وإن شئت فقل ثورته عليهم . وفى هذا الشطر يقوى الشبه بينه وبين أبى تمام ، وذلك لأن الصنعة هنا من جناس وطباق ونحوها لا تطغى عليها العاطفة الجياشة أو الخيال الجامح كما ترى فى سقط الزند ، بل تظل بارزة واضحة وسط ما يحيط بها من فكرة هادئة ، أو نصيحة متعلّقة ، وهذا يذكرنا بأبى تمام الذى يطغى الفكر عنده على العواطف . ولكن رغم كل ذلك لم يبلغ مبلغ أبى تمام فى الاحتفال للبديع أو التعقيد فيه . وأظهر أنواع البديع عنده الجناس . ومن الطريف أن تعلم أنه التزم فيه أيضًا ما لم يلتزمه أحد من الشعراء ونشر بذلك إلى رأى دعا إليه الخليل بن أحمد الفراهيدى فى الجناس<sup>(١٢٢)</sup> وأوجب فيه أن يتفق المتجانسان فى اللفظ دون المعنى . ومع أن هذا الرأى ظل مطرّحًا لا يهتم به الناس

(١٢٠) سقط الزند - السفر الثانى - القسم الأول ص ٢٨٦ .

(١٢١) نفسه ص ٣٩٥ .

(١٢٢) راجع الصناعتين الخانجى ص ٢٥٠ .

كثيرًا ، فقد كان المعري من أسرع الشعراء إلى الاستفادة منه وإليك إحدى قصائده لترى مدى نجاحه في ذلك .

تكرم أوصال الفتى بعد موته  
وأرواحنا كالراح إن طال حبسها  
يُعبّرنا لفظ المعرفة أنها  
فإن إباء الليث ما حلّ أنفه  
وهل لحق الثريب سكان يثرب  
هم ضاربوا أولاد فهر وجالدوا  
ضرابا يطير الفرخ عن وكر  
وذو نجب إن كان ما قيل صادقاً  
هل الدين إلا كاعب دون وصلها  
وما قبلت نفسى من الخير لفظة  
تفزع أعراية أن جرت لها  
وما الأرى للحى إلا مسفة  
تعادت بنو قيس بن عيلان بالغى  
ولولا القضاء الحتم أنجى واقد  
وعادوا إلى ما كان إن جاء عارض  
يبثون قتلاهم بأكثر منهم

وهن إذا طال الزمان هباء (١٢٣)  
فلا بد يوماً أن تكون سباء  
من العرّ قوم في العلا غرباء  
بأن محلات الليث أباء  
من الناس لا بل في الرجال غباء  
على الدين إذ وشى الملوك عباء  
أمه ويترك درع المرء وهى قباء  
فما فيه إلا معشر نجباء  
حجاب ومهر معوز وحباء  
وإن طال ما فاهت به الخطباء  
نواعب يستعرضنها وظباء  
على أنهم في أمرهم أرباء  
فثابوا كأن العسجد الثوباء  
ولم بين حول الرافدين خباء  
رأوا أن رعيا في البلاد رباء  
وإن قتلوا حرّاً فليس يباء

والقارىء لهذه القصيدة يجد فيها عددًا وفيرًا من الجناس معظمه على شرط الخليل بن أحمد ، أما قليله فيتبع مذهب الجمهور الذى يميل إلى التساهل والرقق بالنفس وبالناس . وما من شك في أن الخليل وأبا العلاء كانا يدركان أن اختلاف المعنى أدق في الصناعة لأنه يذكرنا بما بين المفردات من تباين في معانيها رغم اتحاد لفظها ، فهو كما أشرنا سابقاً نوع من التلاعب بالألفاظ يحسن أو يقبح تبعاً لبراعة الشاعر واستعداده الشخصى .

## خاتمة

أظن أنه لن يضير هذا البحث أن نقف به عند هذا الحد ، معترمين أن نعمل على إتمامه ، إن شاء الله تعالى بعد قليل . وإني لأعرف الناس بما فيه من فجوات يجب أن تملأ ، وإجمال ينبغي أن يفصل .

ألست ترى أن ما نذهب إليه من أن الشعر القديم يميل إلى الصدق والقصد يمكن أن يكون موضع جدل ومناقشة ؛ وأن من حق أى إنسان أن يعترض فيدعى أن المبالغة والغلو عرفا في كل العصور . وأن من ذلك في الجاهلية قول المهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور  
وفي العهد الأموى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعامه أعز وأطول

وسيكون من حق هذا المعترض علينا أن نجري له بعض الإحصائيات ، كى نثبت أن ما ورد من ذلك فى الشعر القديم نادر ومستساغ وبذلك يطمئن إلى سلامة النظرية التى بين يدينا .

وسيكون الموقف فى التصوير أشد دقة وتعقيداً ؛ لأن بعض المحدثين كالبحتري يكاد يكون صورة من الأوائل فى هذا الصدد . ولبعض آخر مذاهب جديدة ، كابن المعتز ، الذى يحاول الاقتراب من الأصل المنقول عنه ، كما كان يفعل القدامى ، ولكن بعد أن يخلع عليه جمالا جديداً ، ويعرضه فى ثياب أنضر وأزهى<sup>(١)</sup> . وربما برهنت الأيام على أن كتابنا الخالى سيكون مختصا بتحديد النظريات مع ذكر نماذج محدودة عليها ، بينما يهتم الكتاب المرتقب بالتطبيق المفصل على تلك النظريات

وهناك أمر آخر لم يحظ بالعناية التامة هنا ، ونرجو أن نتمكن من أن نوفيه حقه فى المستقبل ، وهو موقف القرآن من العقليتين القديمة والحديثة . ولن نكون قد قننا

---

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن ابن المعتز .

بواجبنا على الوجه الصحيح حتى نعرف موقف شعراء العربية على اختلاف بيئاتهم وعصورهم من المذهبيين .

وإذا كان لنا أن نذكر للقارئ قاعدة عامة تعينه على التمييز بين القدامى والمحدثين ؛ فذلك أن يتذكر كلما قرأ لهؤلاء أو أولئك أن الأوائل كانوا يعتمدون دائما على حواسهم ، بينما يستعين الأواخر كثيرا بعقولهم . وإذا قرأت هذا البحث في ضوء هذه النظرية فستطمئن إليه . وربما فتحت أمامك آفاق لم تفكر فيها بعد

وأخيرا أرجو أن أكون بهذا البحث قد بذلت مجهودا متواضعا في سبيل إعلاء ذلك البنيان الضخم الذى أرسى زميلنا الفاضل الدكتور شوق أساسه ولن نسخط إن شاء الله تعالى إذا وقف منا بعض الباحثين نفس الموقف الذى وقفناه من الدكتور شوق مسددين أو معارضين ؛ فإننا لم نقل آخر كلمة في الموضوع ، كما أن الحق أحب إلينا ، وأكرم عندنا من أى شىء آخر والحمد لله أولا وأخيرا . والسلام عليكم ورحمة الله

محمد عبد العزيز الكفراوى

طيبة الجديدة ش الأهرام

١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٨

## مراجع البحث

- أخبار أبي نواس مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٤  
أخبار أبي تمام  
الأغاني - مطبعة التقدم  
الأمالي - دار الكتب سنة ١٩٢٦  
الأوراق - مطبعة الصاوي سنة ١٩٣٤  
ابن الرومي - للأستاذ العقاد - مطبعة حجازي . الطبعة الثانية  
البيان والتبيين للجاحظ -  
البيان المغرب لابن عذارى - إخراج ليثي بروفنسال  
التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوقي ضيف  
تاريخ الأدب العربي للأستاذ السباعي يومي . مطبعة العلوم سنة ١٩٣٧  
تهذيب الكامل للسباعي يومي  
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين  
ديوان - عبيد بن الأبرص - ليدن - ١٩١٣  
ديوان - امرئ القيس - شرح السندوي مطبعة الاستقامة سنة ١٩٢٠  
ديوان طرفة - شرح الشنقيطي  
ديوان أبي الطيب المتنبي - شرح العكبري . مطبعة الحلبي سنة ١٩٣٦  
ديوان أبي العتاهية - بيروت سنة ١٨٨٢  
ديوان ابن الرومي - كامل كيلاني - مطبعة التوفيق الأدبية  
ديوان زهير بن أبي سلمى  
ديوان الأعشى - المطبعة النموذجية  
ديوان جرير - مطبعة الصاوي . الطبعة الأولى  
ديوان أبي نواس - المطبعة العمومية الطبعة الأولى  
ديوان بشار بن برد  
ديوان البحترى مطبعة هندية . الطبعة الأولى  
الذخيرة لابن بسام . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩

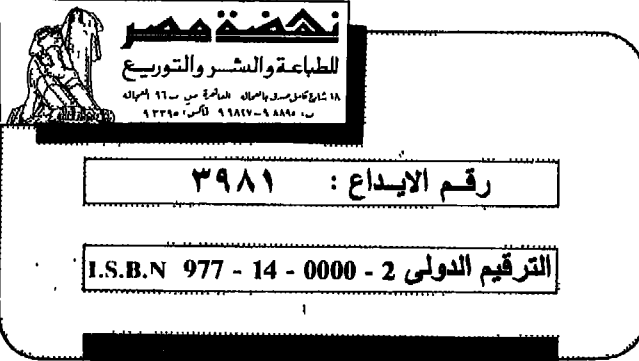
زهر الآداب . المطبعة الرصافية سنة ١٩٢٥  
سقط الزند - مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٦  
سيرة ابن هشام . مطبعة حجازى ١٩٣٧  
الشعر والشعراء . مطبعة المعاهد سنة ١٩٣٢  
الشعر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف والنشر  
شعراء النصرانية  
الصناعتين - لأبى هلال العسكري الآستانة . الطبعة الأولى  
ضحى الاسلام . مطبعة التأليف والنشر . الطبعة الثانية  
طبقات الشعراء - مطبعة سعادة  
عصر ما قبل الاسلام للأستاذ مبروك نافع - مطبعة وادى النيل  
الفن ومذاهبه - مطبعة لجنة التأليف والنشر - الطبعة الأولى  
فى علم النفس - للأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ الأبراشى  
اللزوميات مطبعة الجالية الطبعة الأولى  
ليلي والمجنون . الدكتور هلال . مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الأولى  
معجم الأدباء . مطبعة دار المأمون سنة ١٩٣٨  
المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر مطبعة بولاق سنة ١٢٨٢هـ  
المفضليات مطبعة المعارف سنة ١٣٦١هـ  
الموازنة بين أبى تمام والبحترى . مطبعة صبيح .  
مجموعة رسائل الجاحظ . مطبعة التقدم . الطبعة الأولى  
نيكل - مختارات من الشعر الأندلسى  
نقد الشعر لقدامة بن جعفر . القسطنطينية . الطبعة الأولى  
النابعة الذيبانى للأستاذ عمر الدسوقى  
نفح الطيب . المطبعة الأزهرية . الطبعة الأولى  
الوساطة بين المتنبي وخصومه . دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٤٥  
يتيمة الدهر للثعالبي مطبعة الصاوى . الطبعة الأولى

## الفهرس

صفحة	الموضوع
	الباب الأول :
٧	العاصر الأصلية للشعر العربي .....
٧	الطبع .....
١٢	الصدق .....
١٦	التصوير .....
٢٣	الموسيقى .....
٢٧	بناء القصيدة .....
	الباب الثاني :
٤١	عصر صدر الإسلام .....
٤٥	العصر الأموى .....
٥٢	مظاهر تشابه الشعر فى العصرين الأموى والجاهلى .....
٥٥	القائص والعزل بسوعيه امتداد للشعر الجاهلى .....
	الباب الثالث :
٦٧	العصر العباسى - مقدمة ..
٧١	الفصل الأول - بناء القصيدة .....
١٠٧	الفصل الثانى - أغراض الشعر وما أصابها من تطور .....
١٠٧	العزل بالمدكر .....
١١٠	شعر الزهد أو التزاهد .....
١١٥	الحرر والمجون .....
١٢١	الطبيعة .....
١٢٤	الخصومات .....
١٣٦	العزل .....
١٣٧	الهجاء .....
١٤٤	المدح .....
١٤٦	الفخر .....
١٤٨	جولات الشعراء فى جوانب النفس البشرية .....







رقم الايداع : ٣٩٨١

الترقيم الدولي 2 - 0000 - 14 - 977 - I.S.B.N



